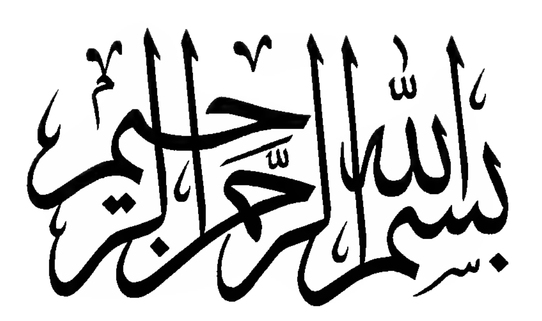
الإعجاز العلمي والبلاغي

في القرآن الكريم

الدكتور فهد خليل زايد



دار النفائس
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

الإعجاز العلمي والبلاغي

في القرآن الكريم

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨م

الطبعة الأولى



دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن
العبدلي/ مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن
هاتف : ٠٠٩٦٢٦٥٦٩٣٩٤٠
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٥٦٩٣٩٤١
Email: ALNAFAES@HOTMAIL.COM
www.al-nafaes.com

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيد الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً يليق بكرمك يا أرحم الراحمين.

إن البراهين التي تعتمد على الأساليب المنطقية المجردة، والعبارات العاطفية، والقصص الموهومة لا تكون في الواقع براهين إلا للذين آمنوا مسبقاً بالموضوع المبرهن عليه، أما البراهين العلمية الواقعية المادية المحسوسة، تضع الإنسان أمام الحقيقة وجهاً لوجه فإما أن يؤمن، وإما أن يستكبر.

ونحن نعلم أن القرآن دستور الإسلام لكل زمان ومكان، ومن حقه علينا أن نعرض قضايا العصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والطبية والفلكية والطبيعية إلى ما شاء الله من معارف، لذا اجتهدت في كتابي هذا أن أوجهه إلى جيل اليوم من الشباب، اتخذت منطلقاً من الناحية الجمالية في المعنى القرآني العام من حيث المعاني، وما يتضمنه من إعجاز في البيان، وما يحتويه من إعجازٍ علميٍّ في المضمون.

وقصدت بالجمال مطابقة المضمون القرآني العام مع المضمون العلمي والمضمون البياني، إذن الجمال المقصود هنا تناسق المضمون القرآني للمُثُل الإنسانية وتناغم حقائق الكون العلمية التي تتكشف للعقل الإنساني.

وركزت اهتمامي على تناغم المضمون القرآني مع ما ترنو إليه عقول ووجدانيات البشرية من الحقائق العلمية والبيانية.

وركزت أيضاً على المضمون لأن جلّ العناية من قبل كانت منصرفة إلى الشكل على الرغم من أن كل نص أدبي لا يفصل شكل عن مضمون، وهناك نماذج وفيرة للأشكال الجمالية. لذلك حرصت على أن أقسم كتابي هذا إلى قسمين، أولها يدور حول الإعجاز القرآني في العلوم (الإعجازي العلمي) والقسم الثاني: الإعجاز القرآن في علم المعاني والبياني.

أشهد الله إني وضعت كتابي هذا بعيداً عن العصبية والهوى وأدعو القارئ أن يقرأ الكتاب بعقل مفتوح وقلب يقظان، وأن يصبر على ما لم يسبق له به علم من أمور اللغة حتى يعيها.

والله أسأل أن يهيئ الخير لنا في تذوّق حلاوة القرآن الكريم والتعرّف على جماليّة المضمون والشكل والمعاني والبيان، بصورة شاملة، وهي خطوة على الطريق، فإن أصبت فالله ولي التوفيق، ونسأله تعالى أن يلهمنا الرشد ويجنبنا الزلل إنه سميع مجيب، وإن جفاني الصواب فإن فوق كل ذي علم عليم.

﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

د. فهد خليل زايد

الباب الأول

الإعجاز العلمي في القرآن



الإعجاز العلمي

١- شكل الأرض بين القرآن والعلم:

عبر القرآن عن مظاهر تضاريس القشرة الأرضية في إشارات عامة منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعد:٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:١٩].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩-٢٠].

٥- قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥].

٦- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة:٢٢].

٧- قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٨].

٨- قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [طه:٥٣].

٩- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠].

١٠- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٦-٧].

١١- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:٣١].

١٢- قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان:١٠].

١٣- قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٥].

١٤- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ﴾ [الرعد:٤١].

لقد توصل العلم أخيراً إلى حقيقة شكل الأرض ولم يكن التوصل إلى كروية الأرض أمراً ميسوراً، حيث ساد الاعتقاد بأنها مبسوطة، وأطلق عليها اسم البسيطة واعتقد البعض بكرويتها وأنكر سطحيتها. وآخرون آمنوا بسطحيتها وأنكروا كرويتها، وتوقع الإغريق وعلماء المسلمين كروية الأرض بسبب بعض الظواهر الطبيعية غير المباشرة مثل ظهور أعالي الأشياء قبل أسافلها في كل من اليابس والماء، ورؤية قمم الجبال الشاهقة من بعيد قبل سفوحها، وغياب السفينة المسافرة عن راصدها قبل غياب شراعها.

وكلما ارتفع الإنسان عن سطح الأرض اتسعت دائرة الأفق وملاحظة شكل القوس الدائري لظل الأرض على سطح القمر في أثناء خسوفه.

ثم جاء عصر (نيوتن) عام ١٧٨٦م توقع بذكائه أن الأرض كروية منبعجة عند خط الاستواء.

ثم جاء عصر الفضاء وقام الطيار الروسي (جاجارين) بتصويرها وهو في سفينته الفضاء عام (١٩٦١) ووجدها كرة تسبح في الفضاء.

وتم المسح الشامل بالأقمار الصناعية لكوكب الأرض فاطمأنت القلوب لكرويتها ووجد أن قطرها ١٢٧٥٧كم عند خط الاستواء بزيادة ٤٣ كم عن القطر عند القطبين مما يجعلها في شكل بيضوي.

وعندما قال الله عز وجل: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس:٦] ودحا وطحا يحملان معنى بسط الأرض وتوسيعها. ومن تصوير الأقمار الصناعية للأرض (١٩٥٨م) وجد أنها أشبه بحبة الكمثرى وأن أقرب الأشكال إليها هو شكل البيضة أو هو ما جاء به القرآن منذ أكثر من ١٤ قرناً.

وبذلك تكون جميع المعاني اللغوية للفعل (دحا) بمعنى مدّ وبسط ورمى وأزاح وجعلها كالبيضة، مع شكل الأرض وحركتها، واستمرار المد كأنها بساط دليل هندسي على كروية الأرض لأنها لو كانت منبسطة لا غير لانتهى المد عند أطرافها.

وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن:١٧] فلو كانت الكرة الأرضية منبسطة لوجب أن يكون على سطحها شروق واحد وغروب واحد، فضوء الشمس

ينتقل عبر خطوط الطول الوهمية للأرض وعددها ٣٦٠ خطاً بمعدل ٤ دقائق لكل خط محدثاً مشارق ومغارب على هذه الخطوط، ومعنى ذلك تعاقب المشارق والمغارب في الثانية الواحدة، مما يعني انتقال لفظ الجلالة (الله أكبر) في الأذان حول الكرة الأرضية وطوافه حولها بل الانقطاع طوال الأربع وعشرين ساعة وإلى يوم الساعة.

وتؤكد البحوث العلمية الدقيقة على الكثير من هذه الحقائق والنتائج العلمية المستنبطة من معاني ألفاظ الآيات السابقة كالآتي:

١- استمرار انكماش سطح الأرض حتى الآن، امتداداً لأثر التبريد يقدره العلماء إلى ٣٠٠ كم. ويمكن الكشف عن هذا بأجهزة الاستشعار عن بُعد، وبالأقمار التي تستخدم لقياس الطبقات الحادثة في قشرة الأرض كمحاولة للتنبؤ بالزلزال.

٢- الطغيان المستمر لمياه البحار والمحيطات على شواطئ اليابسة التي تعتبر حدوداً مرنة غير ثابتة قابلة للتغيّر نتيجة تراكم الرواسب والطفح البركاني في قيعان المحيطان.

٣- تأثير عوامل التعرية بإنقاص الأرض من أطرافها إلى أعلاها.

٢- تكوّن الأرض، كيف نشأت الأرض؟

١- قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء:٣٠].

٢- قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ﴾ [الفرقان:٥٩].

٣- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨].

٤- قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت:٩-١٢].

نستخرج من الآيات السابقة المفاهيم الآتية:

١- خلق الله جرم الأرض من الشمس أو السديم الدخاني الأول في زمنين مجهولين (يومين) كما أطلق الله سبحانه عليهما بالقرآن.

٢- في اليوم الأول منهما وهي الحقبة التي أوحى الله فيها لانفصال جزء من الشمس أو السديم الأول (حدث الفتق) والذي صار فيما بعد أرضنا.

٣- وفي اليوم الثاني وهو الحقبة التي تم فيها تبريد هذا الجزء المنفصل فصارت له قشرة صلبة، ثم خلق الله سبحانه الجبال والمنخفضات وصاحب ذلك زلازل مروعة وبراكين، وخروج بخار الماء، لما بَرَدَ تكثّف وتحوّل إلى ماء غزير في الأحواض المحيطة الكبرى حتى تصلح لاستقبال الحياة. ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ [فصلت:١١-١٢]. ذلك أن السماوات والأرض قد انقادت للأمر الإلهي بيسر وسهولة مما جعل التصرّف الظاهر فيها وكأنه حاصل من ذاتها لا بتوجيه من خارجها لطبع فيها فالطوع هو انقياد والكره عكسه، وكل هذا مجرد تصوّر لعملية الخلق.

وضع العلماء عدة نظريات تُفسِّر وجود الأرض:

١- نظرية التصادم (لإيفون الفرنسي) عام ١٧٦١م: حيث افترض أن أصل المجموعة الشمسية يرجع في تكوينه إلى تصادم عنيف قديم حدث بين الشمس وجرم كبير من أجرام السماء، ربما نيزك كبير نتج عن هذا التصادم تطاير أجزاء من جسم الشمس انطلق بعضها في الفضاء، والآخر وقع في نطاق جاذبية الشمس، وأخذ يدور حولها على أبعاد مختلفة، تكوّنت هذه الأجزاء بمضي الوقت (الكواكب) بعد أن انخفضت درجات حرارة أسطحها الخارجية لكنه للأسف ثبت أن أغلب النيازك لا قيمة لها في الوزن والتكوين كما أنها تحترق عادة عند دخولها حد الأرض.

٢- نظرية السديم (للعالِم لابلاس) عام ١٧٩٦م: تفترض أن الأرض والشمس والسماء وأجرامها إنما كانت سديماً هائلاً (سحابة هائلة من الغازات) انفصلت منه الكواكب نتيجة انفجار تحت تأثير القوة المركزية الناتجة عن الدوران.

٣- نظرية المد (للعالِم جيمس جيفس): افترض اقتراب نجم كبير من الشمس تدفقت في اتجاهه مواد الشمس الغازية وانفصالها عن الشمس وانطلاقها في اتجاه النجم الذي كان قد تباعد، فاستقرت على أبعاد من الشمس هي مداراتها الحالية، أخذت تبدو تدريجياً مكونة الكواكب المختلفة، ومن بينها الأرض وتسمى نظرية النجم الزائر.

٤- نظرية (الفرد هيل) الحديثة: تفترض أن الأرض وبقية كواكب المجموعة الشمسية نشأت نتيجة تكاثف غازات ملتهبة لكثير من العناصر التي كانت داخل نجم عملاق براق يتبع الشمس ثم انفجر مكوناً المجموعة الشمسية.

وهذا معناه أن المجموعة الشمسية ليست جزءاً من الشمس ولكنها جزء من نجم آخر انفجر. ويتبع هذا الانفجار تكون سحب جبارة من الغازات الملتهبة تسبح في الفضاء بسرعة تبلغ ملايين الأميال في الساعة.

وقد تم إنتاج جميع الذرات بما فيها ذرات الأرض والسماوات كلها من الدخان الكوني وهذه هي مرحلة إعداد المواد الخام كمرحلة أولى.

ثم بدأ تشكيل السماوات والأرض السبع كأجرام سماوية من الدخان والظلام الدامس على هيئة نجوم وكواكب وأقمار في مرحلة سديمية جديدة بدأ فيها توليد الطاقة في الأفران النووية للنجوم وخروج الضوء منها وسط ظلام الفضاء بحيث أصبحت هذه المصابيح زينة للسماء في هذه المرحلة الثانية، ثم بدأ تصلب (دحو) القشرة الأرضية بعد طحوها، أي: (قذفها) كسديم مشتعل من فوهة الدخان في السماء كمرحلة ثالثة. وأخيراً بدأت الأرض بعد ذلك في حالة منصهرة لينة كالعجينة ساعد على تشكيلها على هيئتها الكروية القريبة في شكل الدحية (البيضة) وبمجرد بدء تجمد (تصلب قشرتها) بدأ بذلك العمر الفسيولوجي للأرض.

لقد دلت الأبحاث العلمية على أنه لما انفصلت هذه الكتلة الملتهبة من الشمس جعلت تدور في الفضاء أجيالاً متعددة، وتبعاً لذلك أخذت تنخفض حرارتها تدريجياً وبعد أن كانت كتلة من الغاز الملتهب، أصبحت كرة من النار السائلة ثم برد الغلاف الخارجي ليجمد، أما البخار الملتهب الدائم المتصاعد من الأرض، فإن بملامسته للفضاء المحيط بالأرض وهو بارد نوعاً ما ينتشر في الفضاء البعيد.

وما جاء به العلم لا يتناقض مع ما جاء القرآن الكريم منذ ١٤ قرناً بل يؤكده. والحقيقة التي بها نؤمن أن القرآن الكريم ليس في حاجة لما يؤكده، هذا وقد ورد ذكر كلمة (الأرض) مفردة ومجتمعة مع مشتقاتها في القرآن (٤٦١) مرة إما للدلالة على الأرض جميعها أو على جزء منها أو بالاقتران مع السماء في الخلق.

٣- الجبال:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨].

٢- قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١].

٣- قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب:٧٢].

٤- قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر:٢٧].

٥- قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧].

٦- قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل:١٤].

٧- قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل:١٥].

٨- قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ [النازعات:٣٢].

٩- قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية:١٨-١٩].

١٠- قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحجر:١٩].

ماذا يقصد بالجبال في التفسير الجغرافي ولماذا يشير القرآن إليها كثيراً؟ .

التفسير الجغرافي للجبال: إنها كتلة من الأرض صماء صلدة صخرية ترتفع كثيراً (لا يقل عن ٩١٤م) عن مستوى البحر أو عما يجاورها، ومن ذلك نجد أن الجبل أعلى من التل، وتمتاز الجبال عامة بصغر مساحة قمتها كثيراً عن مساحة القاعدة بخلاف الهضبة التي تشبه بشكلها شكل المائدة، ونادراً ما تكون الجبال العالية على شكل قمم متفرعة أو منعزلة، وإنما تنتظم على شكل مجموعات وسلاسل صلبة متتابعة.

نستخرج المفاهيم التالية من خلال الآيات القرآنية حول الجبال:

١- أن وظيفة الجبال في تثبيت الأرض تشبه وظيفة الأوتاد في تثبيت الخيمة.

٢- أن هناك نوعاً من الجبال لا يخرج من باطن الأرض، وإنا ألقي من فوق سطحها.

٣- يرسو نوع من الجبال عند شواطئ البحار القديمة كما ترسو السفن عند رصيف الميناء.

ماذا أظهر البحث العلمي بهذا الشأن؟

١- وُجد أن التشبيه القرآني للجبال بالأوتاد أصدق وصف لها فبواسطة جهاز (الستمر جراف) بيّن أن لكل جبل جذراً مغروساً يثبت القشرة الأرضية العلوية الصلبة في الطبقة اللزجة التي تحتها كالوتد.

فجبال الهمالايا لا يتعدى بروزها ٩كم فوق سطح الأرض بينما جذرها يصل لعمق ٥ ,٧ كم في أعماق القشرة.

وقد وجد أن جذور الجبال لها امتداد القشرة الأرضية للقارات وأن سمك القشرة تحت القارات ٥ كم وأما سمكها تحت الجبال فتقدر حوالي ٣٥ كم، والعلم أثبت أن الجبال تعمل كمساكات للقارات من الصخور السائلة التي توجد تحت القشرة الأرضية الصلبة، ولولا جذور هذه الجبال المنغرسة لطفت القشرة إلى الخارج وانعدم توازن الأرض وثباتها.

الوظائف الأساسية للجبال:

إن الجبال موزعة بدقة وحكمة على سطح الكرة الأرضية توزيعاً جغرافياً مذهلاً يساعد على التوازن بين المرتفعات والمنخفضات بحيث لا تمتد ولا تضطرب ولا تميد بنا الأرض.

لقد أثبت العالم الأميركي داتون عند دراسته لجبال الهيمالايا، أن الجبال أرسيت في الأرض حفاظاً على توازنها.

والحقيقة أننا لو تصورنا الكرة الأرضية خالية من الجبال، فمما لا يقبل الجدل أنه كان من المحال تماسك أجزائها وتآلف أطرافها، واتصال أنحائها اتصالاً مستمراً باقياً، والجبال تزيد من صلابة الأرض ومنعتها، والجبال البحرية تعمل كبرزخ لا تسمح أن يطغى ماء بحر على الآخر. فلكل مادة الكثافة الخاصة بها، وتقوم التيارات المائية التحتية بدوام التوازن والثبات وهي كثافة كل منها دون أن يبغي أحدهما على الآخر، وقد سبق القرآن سبقاً علمياً وإعجازاً قرآنياً، قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩-٢٠] كما سبق علمياً أن هناك علاقة بين الجبال الشامخة والماء العذب كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات:٢٧] فالبرودة تكثف بخار الماء الموجود حول قمم هذه الجبال الشاهقة فيتجمد الماء على هيئة ثلج أو جليد يغطي قممها وبحرارة الشمس ينصهر الجليد العلوي المتراكم فيسيل الماء لينزل لأسفلها بالجاذبية الأرضية، ولذلك فالجبال العالية أيضاً منابع مناسبة للأنهار (ومنها نهر النيل) التي تشق طريقها إلى الوديان حولها كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٥]، بالنسبة للطرق والسبل فقد جاء قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:٣١] ومدلول هذه الآية ينطبق تماماً على ما فعلته الأنهار في جبال (درالنزبرج، ونيوفيلد) فقد شقت فيها (فجاجاً سبلاً) وأصبحت تبدو على شكل حافة مسننة كأسنان المشط. وإذا كان لفظ (ألقى) يدل على إلقاء

شيء من أعلى على شيء آخر أسفل منه فإن العلماء يرون أن الجبال الالتوائة قد ألقيت فعلاً من أعلى من الجبال القديمة بعد أن نحتتها عوامل التعرية ونقلتها وأرسلتها في البحار القديمة التي بدورها نقلتها الرياح لتستقر مرتفعة عن سطح البحر، وقد التوت ونشأت منها السلاسل الالتوائية مثل جبال (تيتش، والإنديز، وأورال، وموزمبيق، واليابان، وأخستك).

ويرى (كوبر) أن الجبال الالتوائية قد مرت بمراحل في تكوينها من الرواسب كما يلي:

١- تكوين البحر الداخلي في منطقة حوضية منخفضة.
٢- تراكم الرواسب حتى تملأ القاع.
٣- هبوط القاع لثقل الرواسب بحسب قوانين التوازن.
٤- تراكم الرواسب في طبقة أخرى حتى تملأ القاع إلى المستوى الأول تماماً.
٥- تكرار هبوط القاع والامتلاء بالرواسب.
٦- انضغاط طبقات الرواسب الطبقية جميعها، وبروزها في شكل التواءات عالية بسبب زحف حافتي الحوض نحو بعضها. أما الفعل (جعل) في الآية ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعد:٣] فتشير إلى جعل الجبال في نفس باطن الأرض راسية على السطح فسبحان الخالق، وتلك دقة القرآن وشمولية لفظه.

الجبال على اختلاف أشكالها تنقسم على ثلاثة أقسام:

١- صخرية: تحتوي على المعادن المسخرة لمنفعة الإنسان، ومن هنا فالجبال مخازن عظيمة للخامات.
٢- هشة السطح: مغطاة بوشاح ناعم الحبيبات تستغل في الزراعة والرعي.
٣- شاخة: تصيد المطر وتجمع الثلج وهي أساس الأمطار التضاريسية.

وهناك من الجبال: الجبل المنطوي على نفسه الذي ينشأ نتيجة الانثناءات في طبقة الأرض والضغط على الجانبين وتظهر فيه طيات عديدة على هيئة أثناء مثل جبال الأطلس بالمغرب وجبال الأورال بروسيا والألب بسويسرا.

وهناك من الجبال الجبل المخروطي البركاني، وينتج عن الانفجار البركاني من باطن الأرض فقد حدث بركان في المكسيك عام ١٩٤٣ تكوّن على أثره جبل بركاني بلغ ارتفاعه ١٣٥٠ قدماً ومن أشهر الجبال البركانية (جبل كلمنجاروا) في إفريقيا وارتفاعه ٢٠ ألف قدم.

٤- الزلازل:

١- قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١].

٢- قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق:١٢].

والزلزلة لغةً: التحريك والاضطراب الشديد.

والزلزلة علمياً: بأنها هزات سريعة خاطفة متلاحقة لسطح الأرض أو هي رجفة في الأرض لا تستغرق سوى بضع دقائق ينتج عنها تشققات أرضية، وتتضمن تأثيرها ١٢ درجة تختلف في شدتها باختلاف البُعد عن المركز مثل شدة الصوت وفقاً لقانون التربيع العكسي.

أسباب حدوث الزلازل:

بتقدم العلوم أصبح للزلازل علم السيرمولوجيا وتعرف النظرية التي تمدنا بتعليل مقبول للظواهر الناتجة عن العمليات الداخلية للأرض باسم (نظرية الصفائح والألواح التكوينية أو الحركية Tectonic theory) التي ظهرت على يد العالِم (هارفي هس) الذي يفترض فيها أن الغلاف للأرض الصلبة قد تفتقت إلى

عدة قطع صخرية منفردة تكون ألواحاً، وصفائح سمكها يصل إلى حوالي ١٠٠ كم (وبالرصد بالأقمار الصناعية وجد أن عددها ثمانية ألواح رئيسية متجاورة تفصلها تصدعات في مكان الانقسام) ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ ﴾ [الرعد:٤] تحمل القارات والجبال بالإضافة إلى عدد ثانوي من الألواح الصخرية، وتتحرك جميعها فوق غلاف مائع ببطء شديد في حدود سنتيمترات قليلة كل عام – بالنسبة لبعضها البعض.

ويُعتقد بأن السبب الأساسي لحركة الصفائح هو محرك حراري ناتج عن التوزيع غير المتساوي للحرارة داخل الأرض، فعندما ترتفع المواد الساخنة إلى أعلى من أعماق الأرض وتتوزع جانبياً عن طريق تيارات الحمل، تبدأ الصفائح بالحركة، ونظراً لأن كل صفيحة تتحرك كوحدة مستقلة فإنه يحدث اللقاء بين الصفائح على امتداد حوافها وقد أمكن التعرّف على ثلاثة أنواع منها مختلفة (ذات حواف متباعدة، وذات حواف متقاربة، وذات حواف متحوّلة) فهي إما أن تتباعد عن بعضها البعض أو تتقابل في حركتها عند الأخاديد فتنثني إحداها وتهبط تحت الأخرى إلى داخل الوشاح في عملية تسمى (الانزلاق).

وفي بعض الحالات تتحرك إحدى الصفائح مارة أمام الأخرى جنباً إلى جنب بدون تقابل أو تباعد بحسب اتجاه حركتها النسبية.

وتحدث الزلازل عند التقاء الألواح المتقاربة في منطقة الفوالق الموجودة بينها والتي يصل عمقها أحياناً إلى ٧٠ كم وطولها آلاف الكيلو مترات وتسمى أحزمة الزلال، وتتركز في أربعة أحزمة نشأت منذ ٢٠٠ مليون سنة عند بدء إزاحة القارات بعضها عن بعض بعد أن كانت متحدة في قارة واحدة، وهذه الأحزمة هي:

١- الحزام الباسيفيكي: حول المحيط الهادي من اليابان إلى سواحل أمريكا.

٢- حزام الهيمالايا: من شمال الهند إلى العراق (وسط آسيا).

٣- حزام الألب الأوروبي: من جنوب أوروبا إلى إسبانيا والمغرب والجزائر.

٤- حزام وسط الأمريكيتين: يمر بمنتصف المحيط الأطلنطي ويؤثر على جزر الكاريبي.

الزلازل البركانية:

تنشأ بسبب انفجار بركاني وعن تحركات الصهارة (Magma) تحت القشرة الأرضية ولها صلة بتوازن البراكين.

وقد تنشأ عن انفجارات في فوهة البراكين أو عن انكسار في الصخور بالقرب من البركان أو قد تكون ناشئة عن مجرد الضغط الذي تسببه غازات الحمم البركانية وهي محلية وسطحية إذا ما قورنت بالزلازل البلوتونية، ويوجد مركزها على عمق سحيق من الأرض قد يصل إلى ٨٠٠ كم من سطح الأرض.

عناصر الزلازل:

١- بؤرة الزلزال: وهو مكان في باطن الأرض الذي ينشأ منه الزلزال.

٢- مركز الزلزال: وهو مكان فوق سطح الأرض.

٣- توابع الزلزال: يستمر الصخر المنكسر في التذبذب فترة من الزمن حيث تتأثر بالضغط الواقع على الصخور في باطن الأرض منها.

٤- الزلزال نوع من النشاط الديناميكي للصخر يوجد في موجات تبتعد من مركز الزلزال في جزء من القشرة الأرضية باتجاه الطبقات السطحية للأرض في دوائر تتسع شيئاً فشيئاً مع هذا الانتقال وبسعة والمسافات بعيدة فاقدة قوتها تدريجياً تذكرنا بتلك الموجات التي تحدث على سطح الماء فيها لو ألقي به حجر.

٥- البراكين:

قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢].

قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق:١٢].

البركان: هو فتحة في القشرة الأرضية يخرج منها غازات وأبخرة ورماد وصخور ومواد منصهرة والطفح كالقذائف مكونة تلاً أو جبلاً بركانياً عند الفوهة وتكون عند خروجها مصحوبة بألسنة من النيران الشديدة.

ويحدث هذا عندما يحدث تصدّع في قشرة الأرض الصلبة فيخرج خلال هذا الصدع مصهور الصخور في باطن الأرض من الضغط الواقع عليه كما في فوهات البركان وأخرجت الأرض أثقالها من شقوق وتصدعات وفوهات تُخرج حمماً تمدنا بما نحتاج إليه من المعادن أو تسمى فوهة البركان (المخرج الرئيسي).

فالبراكين هي مخازن الصهير في شكل مادة سمراء عجينة لزجة تُعرف بـ (اللافا) التي تتصلب عند وصولها إلى حالة التصلّب من جديد بسبب انخفاض درجة الحرارة. وبعض البراكين مثل التي توجد في هاواي في وسط المحيط الهادي تقع بعيداً عن حافات الصفائح وتأتي الصهارة في هذا المكان من ثورة عالية الحرارة في طبقة الرداء ربما لزيادة العناصر عندها وصدق الله العظيم في وصف ما يتم يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٣-٤].

فمن العجيب حقاً ظاهرة الطفح البركاني من صدوع الجبال البركانية الموجودة في قاع البحار والمحيطات، لأن الصهير يشتعل ناراً تحت سطح البحر لا تستطيع المياه إطفاءها – وقد يتراكم الصهير ليكون الجزر في هذا البحر المشتعل الذي سماه القرآن ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦].

هذا وفي الحمة وهي ابنة عم البركان تخرج ماءً ساخناً بدلاً من الصهير المشتعل ناراً، وتكثر في ثلاث مناطق إيرلندا، نيوزيلندا، حديقة بلوستوف غرب إفريقية، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر:٢١] وقد تجف مياهها فجأة نظراً لهروب رصيدها عقب الهزات الأرضية وصدق الله العظيم ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك:٣٠].

٦- المطر:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء:٣٠].

قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ [النبأ:١٤-١٥].

الماء: مصدر الحياة والحيوية في حياتنا، ويدخل في تركيب جميع خلايا الكائنات الحية.

لقد ذكر القرآن الماء ٥٩ مرة لذلك لا عجب في أن الغلاف المائي للأرض يغطي ٧١٪ من سطحها تقريباً لعمق يبلغ في المتوسط ٣٨٠٠م بينما مساحة اليابسة لا تعد ٢٩٪.

كيف يتكون ماء المطر؟

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور:٤٣].

الماء في الطبيعة دورة هيدروجينية مستمر لكل من الشمس، والرياح، والضغط الجوي، وبخار الماء بجميع صوره، حيث ترتبط ببعضها البعض. وتكون في مجموعها جهازاً عاماً منظماً يسمى (الدورة العامة للحياة).

فأشعة الشمس، وهي السراج الوهاج، تقوم بالتسخين أو التبخير للمياه في سائر المسطحات المائية فيتصاعد بخار الماء ماءً نقياً عذباً، تاركاً الملح، وفي البحار حتى لا يضر الناس، ولولا بخار الماء في الجو لما تكوّن السحاب ولا الضباب ولا الندى، ولما تساقط مطر أو ثلج أو برد.

ويرجع السبب في حركة الرياح وتصريفها إلى اختلاف درجة حرارة سطح الأرض بتأثير الشمس مما يسبب صعود الهواء عن سطح الأرض إلى أعلى عند خط الاستواء لخفته، وانخفاضه من الطبقات العليا نحو الأرض عند المنطقتين المعتدلتين نظراً لثقله، وبذلك تتحرك الرياح قريبة من سطح الأرض منها إلى المنطقة الاستوائية ذات الضغط المنخفض، وبالمثل الرياح الموسمية.

وللرياح الدور الأعظم في إكمال دورة الماء في الطبيعة ومنها إلى المنطقة الاستوائية ذات الضغط المنخفض.

وقد جعل الله البرودة في الجو التي تزداد بالارتفاع ٨ أميال، سبباً في إيقاف ارتفاع الماء إلى أعماق السماء، كما أن الرياح لواقح السحب، حيث تجتمع سحابتين مشحونتين شحنتين كهربيتين مختلفتين (موجبة سالبة) وعند تقاربهما حتى يصبح ما بينهما من فرق في الجهد الكهربي كافياً لإحداث التفريغ الكهربي خلال المسافة التي تفصلهما.

والتفريغ يحدث على هيئة شرارة كهربية تسمى برقاً، وهو ضوء شديد اللمعان يكاد يخطف الأبصار يصحب الضوء فيه حرارة شديدة، ويكون هذا تلقيحاً ولو شئنا سميناه تلقيحاً كهربياً، بمساعدة نوى التكاثف، حيث تتلقح جزئيات بخار الماء بها فتثيرها فيتجمع الماء حول تلك الجزيئات مكونة أغلفة مائية حتى تصل إلى حجم كبير نشاهده سحاباً يثقل فينزل منه المطر، حيث لا يقدر وهو بتلك الحال على

مغادرة غلاف الأرض، ولهذا نلاحظ نزول المطر عقب هبوب الرياح اللواقح فهي مبشرات بقدوم المطر.

كما أن الرياح تسوق السحب وتنقل الماء من فوق البحار إلى أعماق القارات فهي مسخرة بأمر ربها، وللرياح دور في تشكيل السحاب.

وللسحب أنواع منها: الركامى الذي يشبه الجبال ينزل منه المطر، وبعض البرد ويصحب ذلك برق خاطف للأبصار ونوع انبساطي.

أما المطر التضاريسي: حيث تعمل الجبال الشوامخ على تبريد السحاب الذي يمر بها وتعمل على تكثيفه وإنزال الماء منه وهي تختلف عن الأمطار التصاعدية الناشئة عن تيارات الحمل الصاعدة إلى طبقات الجو العليا عند منطقة الاستواء، والأمطار الإعصارية الناشئة عن كتل هوائية مختلفة النشأة والصفات في جهة واحدة.

ونحن البشر لا نملك تخزين ماء المطر، فهو في دورة مستمرة بين السماء والأرض، ما دام الأمر كذلك فحين تبخل السماء بالماء يجب أن نلجأ إلى الله، ونقيم صلاة الاستسقاء، ونطلب من الله أن تجود علينا السماء بالماء كما يقول تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح:١٠-١١].

ومن الظواهر الطبيعية لنزول المطر: ١- الرعد، ٢- البرق، ٣- الصواعق، ٤- البَرَد والثلج.

ومن الواجب دراسته عناصر المناخ، وهي: الحرارة، الضغط الجوي، الرياح، الرطوبة.

العوامل التي تسبب نزول المطر كما أثبتها العلم الحديث:

١- قد يهب الهواء وما يحمله من سحاب على منحدر جبل بارد فيبرد السحاب بملامسته لهذا المنحدر ويتساقط المطر.

٢- قد يهب الهواء المحمل بالسحاب في مكان دافئ إلى آخر أبرد منه.

٣- قد يصعد الهواء الدافئ وما يختلط به من سحاب بتأثير الحمل إلى حيث يلامس هواءً بارداً فيبرد.

٤- قد يبرد الهواء الدافئ عند صعوده إلى أعلى نتيجة تمدده لنقص الضغط الواقع عليه.

وفي جميع هذه الحالات تتجمع قطرات الماء المكونة للسحاب بعضها مع بعض وتسقط مطراً.

ويصل العلم إلى حقيقة أقرّها القرآن بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨] وهي أن المياه الجوفية ناشئة من المياه السطحية الآتية من المطر وأنها تتسرب إلى باطن الأرض فتحفظ هناك. ولبيان ذلك نجد أن الله قد أسكن الماء في الأرض بفعل المنخفضات والتعاريج، والتسرب الجزئي في باطن الأرض.

٧- الينابيع:

قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر:١١-١٢].

قال تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [هود:٤٠].

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر:٢١] وتعطي آية أخرى في القرآن الكريم بياناً واضحاً جداً على أن أصول الينابيع والأنهار أصلها من مياه الأمطار التي تتسلل وتتخلل في التربة.

والينابيع: هي القنوات والممرات المائية في باطن الأرض، أو الثغرات التي يتفجر منها الماء ويخرج على سطح الأرض على شكل جداول وأنهار وعيون، ومعنى (نبع) تفجر، ولذا سميت العين ينبوعاً، وكلمة (سكن) التي عبر بها القرآن ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون:١٨] هي أفضل وصف للمياه الجوفية وذلك لأن لفظة (الإسكان) تعني أنه لا بد من وجود الفراغ الذي تشغله المياه الجوفية وهي المسام الموجود بين الصخور. والإسكان يعني الاستقرار والاتزان في المسطحات المائية.

قد تهاجر المياه الجوفية في الطبقات الصخرية الرسوبية إلى مسافات طويلة بحيث تصبح هذه المياه غائرة، فلا يمكن للإنسان أن يصل إليها بأدواته، وهنا يتجلى الإعجاز العلمي في القرآن في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك:٣٠] وقال تعالى: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ [الكهف:٤١] وعلى العكس من ذلك تماماً يقول سبحانه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن:١٦] فغدقاً، أي: ماءً كثيراً جارياً.

٨- تفجير المياه من الحجارة:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ﴾ [البقرة:٧٤] انتهت البحوث الجيولوجية إلى أن الحجارة قد تتأثر وتتفاعل حيث إن هناك أحجاراً تنفجر منها المياه أنهاراً فضلاً عن المياه الجوفية التي قد تغور في القشرة الأرضية،حيث تجري في المسام الموجودة بين الصخور والأحجار حتى إذا زادت الضغوط الواقعة عليها تمكنت من الخروج على هيئة مياه متدفقة بحيث يمكنها أن تكون أنهاراً أو ينابيع.

أنواع مياه الأمطار عند سقوطها على الأرض:

١- جزء يتبخر مرة أخرى مباشرة عائداً إلى الهواء، وجزء يمتصه النبات ثم يتبخر بعضه عن طريق النتح وصدق الله بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا ﴾ [الأنعام:٩٩] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج:٦٣] وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج:٥].

٢- وجزء آخر ينساب من مياه الأمطار إلى الجداول والأنهار، والبحار والمحيطات ليتبخر من سطحها بحرارة الشمس ويعود للهواء والأنهار.

٣- الجزء الثالث يتخلل الطبقات إلى باطن التربة (كمياه جوفية) وهي تعتبر المصدر الرئيس لمياه الينابيع ليعود نحو الشبكة السطحية إلى السطح.

٩- الرياح :

قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤].

الرياح: الهواء المتحرك الموجود في طبقات إذا سارت متوازية مع سطح الأرض، فالهواء غاز يمتاز بالتحرك عندما يهب من مناطق الضغط العالي البارد إلى مناطق الضغط المنخفض الساخن، فالهواء الساخن خفيف ومن ثم قليل الوزن ومن ثم قليل الضغط بمعنى أن الهواء البارد كبير الوزن ومن ثم عالي الضغط على سطح الأرض. ومن ذلك يمكن القول بأن الرياح تتكون بسبب فروق درجة الحرارة وبالتالي فروق الضغط، وأن الشمس تؤدي دوراً هاماً في تصريف الرياح. ويقصد بها توجيه حركة الرياح بسرعات متفاوتة.

كما تعمل الكرة الأرضية بدورانها اليومي حول محورها بسرعة تصل إلى ١٦٠٠ كم عند خط الاستواء على إجبار الرياح على السير بانحراف إلى اليمين لتقع شمالية شرقية في نصف الكرة الشمالي، أو اليسار لتصبح جنوبية شرقية في نصف الكرة الجنوبي في حالة الرياح التجارية.

ومن هنا تعددت أنواع الرياح مقداراً واتجاهاً، وأصبح أمر هبوبها وتصريفها أمر إلهي فهو وحده سبحانه قادر على تحويلها من حال إلى حال جنوباً وشمالاً. إذاً المقصود بالريح هو ما جاء به القرآن هو الهواء المتحرك بالأدلة التالية:

١- قال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ [الشورى:٣٣] فالذي يتصف بالسكون هو الهواء المتحرك لأن الحركة ضد السكون فلا تكونه.

٢- قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف:٥٧] والذي يقل ويحمل إنما هو الهواء المتحرك لا الحركة.

٣- قال تعالى: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر:٢٢] هذه صفة الهواء المتحرك.

لقد جاءت كلمة (ريح) ١٤ مرة.

ولقد جاءت كلمة (الرياح) ١٠ مرات.

ولقد جاء كلمة (ريحاً) ٤ مرات.

وكل شيء في كلمة الريح يحمل العذاب كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ [الحاقة:٦]، أما الرياح فتحمل الخير كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرًا ﴾ [الأعراف:٥٧].

أهمية الرياح:

١- تكوين المطر ونقله.

٢- إدارة طواحين الهواء، وتوليد الطاقة الكهربية. ودفع السفن الشراعية.

٣- تشارك في حفظ توازن الأرض.

٤- حاملات للسحب وناقلات للصوت.

٩- الضغط الجوي:

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام:١٢٥].

إن الغلاف الجوي الغازي كأي غاز مرن متغير الحجم قابل للتمدد والانكماش وبذلك يصبح له وزن ضغط فهو يضغط على سطح الأرض بما يسمى الضغط الجوي الذي يقدر بثقل كيلوجرام على كل ١ سم[٢] وذلك عند مستوى سطح البحر، لذلك فإنا نتوقع أن يقل الضغط الجوي كلما ارتفعنا عن سطح البحر وصعدنا إلى السماء لقصر عمود الهواء من جهة ولزيادة تخلخله كلما ارتفع من جهة أخرى حيث ينخفض إلى ٥ , ٠ قيمته إذ صعدنا إلى ارتفاع ٥ , ٣ ميل فيصبح ٣٨ سم[٢] ثم يقل ويصبح ١٩ سم[٢] زئبق على ارتفاع ١٨ ميل، حيث يتأثر الضغط الجوي زيادة أو نقصاً إلى جانب ذلك بحرارة الهواء فكلما زادت درجة حرارة الهواء تمدد وقلّت كثافته والعكس صحيح.

كما يتأثر بكمية الماء العالقة بالهواء، حيث نجد أن بخار الماء أخف وزناً من الهواء ولهذا ينخفض الوزن ويقل الضغط كلما زادت كمية بخار الماء في الهواء وذلك بسبب الحرارة، ولذا فنحن نشعر بالاختناق التدريجي كلما ارتفعنا عن سطح البحر إلى عنان السماء، حيث يصبح التنفس صعباً بسبب نقص الضغط الجوي ونقص كميات الأكسجين التي تستقبلها الرئتان، حتى يضيق الصدر كما جاء في الآية الكريمة: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام:١٢٥]. بل ويمكن أن يختنق الإنسان عندما يرتفع إلى ٥ , ١٠ كم.

فالدم يندفع من أجسامنا لو خف الضغط عليه، لهذا يصاب الطيارون بما يسمى (دوار الجبال) وهو تأثير فسيولوجي يصاب به الإنسان إذا صعد إلى ارتفاع كبير سواء كان الصعود في طائرة أو تسلق الجبال. حيث يشعر الشخص بضيق في التنفس واضطراب في حركات التنفس وفي النبض وفقدان لحظي من الوعي وتصلّب في الأطراف وانعدام في الوزن، وعمى لحظي مفاجئ. فمن أخبر محمداً ﷺ بهذه الحقيقة العلمية، إنه الله لا إله إلا هو الحكيم الخبير.

١٠- الرطوبة (بخار الماء):

قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر:٢٢] .

فائدة بخار الماء (الرطوبة):

١- قيامه بدور الوسيط في نقل الحرارة من سطح الأرض (التبخر) وإليها (التكاثف) في دورة مستمرة وهي الدورة المائية.

٢- يؤدي بخار الماء الموجود في الهواء الجوي دوراً مهماً في مناخ سطح الأرض وبخاصة دورة الماء.

٣- توصيل بخار الماء الموجود في الهواء الجوي لدرجة رطوبة الهواء التي يتوقف عليها شكل التكاثف وكميته والشكل الإنتاجي.

التكاثف: تحول بخار الماء الموجود في الهواء الجوي إلى قطرات مائية على أثر وصول الهواء إلى نقطة الندى، أي: أنه عكس التبخر. وينتج التكاثف من تبريد الهواء المحمل ببخار الماء.

ومن أشكال التكاثف: الندى، الضباب، السحاب، المطر، وعند درجة التجمد تأخذ الأشكال التالية: الصقيع، البرد، الثلج.

أهم العوامل المؤثرة في التكاثف وما ينتج عنه:

رطوبة الهواء نفسه من حيث مقدارها ونسبته، ومدى انخفاضها الذي يطرأ على درجة الحرارة.

طرق تبريد الهواء (التكاثف):

١- الإشعاع الحراري: يحدث عند التمدد الفجائي للهواء الصاعد بسبب استمرار الضغط كلما ارتفع الهواء إلى أعلى، حيث يصل إلى ربع قيمته على ارتفاع ١١ كم وإلى ١٪ على ارتفاع ٣٠ كم، وبخاصة في أثناء الليل الصافي وذلك بفقدان الحرارة من سطح الأرض وما عليها من أجسام بالإشعاع فيبرد الهواء الملاصق لها ويتكثف عليها بخار الماء العالق في الهواء.

٢- التوصيل الحراري: ويتم التوصيل من خلال حرارة طبقات الهواء السطحية إلى سطح الأرض البارد نسبياً، وذلك بمرور هواء دافئ مسبباً على سطح أبرد منه مثل اصطدام الرياح بأعالي الجبال الشاهقة، حيث تعمل على تبريد الرياح فتتكون السحب وينزل المطر (أمطار تضاريسية).

٣- المزج: اختلاط الهواء القادم من أقاليم دافئة إلى أخرى باردة، حيث تسري الحرارة من الجسم الساخن إلى البارد، ويعمل التوصيل.

٤- التبريد الذاتي: حيث يتم تبريد الهواء تلقائياً عند ارتفاعه إلى طبقات الجو (التروبوسفير) حيث تكون درجات الحرارة منخفضة إلى ٧٠ درجة تحت الصفر لأن الحرارة تقل بمعدل ٦ درجة/ كم ارتفاع. وكلما ارتفع الهواء إلى أعلى زاد انتشاره وقلت كثافته حتى تصل إلى ارتفاع ١٦٠ كم إلى جزء واحد من ألف مليون جزء من كثافة على سطح الأرض.

وقد أوضح العلماء أن المراد بكلمة (لواقح) هي نوى التكاثف بحسب قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر:٢٢] فقد أثبت العلم الحديث أنها عامل أساس يجب أن يتوفر ليحدث تكاثف وتكوين السحاب ونزول المطر، وهي أجسام صغيرة تنتشر في الهواء حيث يتجمع حولها ذرات الهواء المكثّف. وثبت أن أهم مصادرها أملاح البحار ومركبات الأكسجين الناتجة من مرور الأشعة فوق البنفسجية خلال الجو.

١١- السحاب:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ [النور:٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ ﴾ [الأعراف:٥٧].

السحاب: هو بخار الماء المتكثف في طبقات الجو العليا إلى ارتفاع ١٨ كم ولا بد لتكوينه من:

١- أن يكون الهواء محتوياً على أنوية (نوى) التكاثف المحمولة بالرياح (لواقح).

٢- ارتفاع الرطوبة.

٣- علاوة على تبريد الهواء، وتكوينه في طبقات الجو العليا بسبب:

أ- تصاعد تيارات هوائية بقوة مما يسبب التكاثف ثم السحب.

ب- تصاعد تيارات هوائية متوالية، الأمر الذي يحدث التكاثف تباعاً في طبقات، ولذا كانت السحب التي تتكون بهذه الطريقة تسمى بالسحب الطبقية.

ويقسم السحاب إلى نوعين:

السحب الطبقية: التي تصاحب انسياب طبقة الهواء بأكملها في اتجاه صاعد وهكذا تتألف السحب من قطرات مائية دقيقة.

وبعض السحب ينمو رأسياً بفعل التيارات الهوائية الصاعدة فتصبح ذات سمك كبير، وهذا النوع يسمى (السحب الركامية) التي تصاحب التيارات الهوائية الرأسية. ومن السحب الركامية تنزل الزخات، ومن الثانية يهطل المطر.

وقد أثبت التصوير الجوي أن السحب الركامية تبدأ مراحل تكوينها:

أ- عدة خلايا بسيطة (نتف) ثم تدفع بالرياح فيتجمع كل اثنين أو أكثر مع بعضها وقد تشكل خلية عملاقة كالجبل له قاعدة وارتفاع وعند القمة يكون البرد.

ب- وأثناء تكون أغلفة حبة البرد تهبط إلى قاعدة السحب الجبلية الدافئة نسبياً، فتفقد أغلفتها بالذوبان وينزل المطر، وتعاود حبات البرد الهبوط والنزول حتى تصبح في حجم جوزة الهند وصدق الله بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ [النور:٤٣].

وقد كشف العلم الحديث إنه لا بد أن يكون السحاب في شكل صلب ليسمح بتكوين الثلج، والمناطق العلوية منه ويسمح بتكوين الماء فوق البرد، وعندما تمطر السحاب يسمى (المزن) وهناك المزن البساطي، والمزن الركامي. وصدق الله بقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ [الواقعة:٦٩].

وفي الركام: يحدث البرق، والرعد، وتنزل الصواعق.

١٢- البرق:

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ [الروم:٢٤].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ [الرعد:١٢-١٣].

قال تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة:١٩-٢٠].

البرق: ينتج من التفريغات الكهربائية بين الأجزاء العليا للسحب الركامية والأجزاء السفلى.

إن السحابة مكونة من عدد من النقاط الكبيرة النامية المشحونة بالكهرباء السالبة، وعدد من النقط الصغير المشحونة بالكهرباء الموجبة، وبما أن النقط الكبيرة تهبط بسرعة أكبر من غيرها، فإنه سرعان ما تتمركز الشحنات السالبة قرب القاعدة والشحنات الموجبة قرب القمة، وتبقى بينهما منطقة فيها خليط من الشحنتين فيحدث الشحن بانقسام النقط النامية وكلما انقسمت نقطة الكهربية السالبة على تيارات الحمل الصاعدة، فتحمل هذه التيارات الشحنات السالبة إلى القمة وإلى المؤخرة، وتتركز الشحنات الموجبة في أسفل المقدّمة حيث تكثر النقط النامية، أما الوسط فهو خليط من الشحنتين يحملها تيار الحمل، وبذلك تصبح السحابة ذات قطبين مختلفين من طرفيها، وبما أن كل شحنتين مختلفتين في النوع ينجذبان ويميلان للاتحاد أحدهما بالآخر، فهذا الاتجاه يعبر عنه بالتفريغ الكهربائي.

والنظرية الحديثة تقول: إن الشحنات التي لا تلازم عمليات نمو المكونات الثلجية تتولد في مناطق السحب الركامية التي فوق الصفر المئوي ثم تتساقط بتأثير الجاذبية الأرضية. وقد دلت المشاهدة الفعلية داخل المعامل على أن المكونات الثلجية تظهر وتنمو بعمليات التكاثف فتكسب شحنات سالبة وأنه يمكن أن تحمل هذه الشحنات الهائلة مع المكونات النامية تساقطها إلى أسفل السحابة، بينما تنفصل شحنات أخرى موجبة بنفس المعدل بما يفسر ظاهرة حدوث التفريغ الكهربي.

ويصاحب هذه التفريغات انطلاق شرارات باهرة الضوء. فالبرق هو شرارات كهربية تصحب التفريغات الكهربية بين سحابة وأخرى أو بين سحابة والأرض.

ونعني بكلمة (يكاد) في الآية: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [النور:٤٣] إلى أن الطيارين في صفحة السماء يسبب لهم البرق (العمى المؤقت) لا سيما في المناطق الحارة الرطبة، حيث تبلغ ومضات البرق في الدقيقة الواحدة أربعين ومضة، فإن مدة الإصابة بالعمى هي مدة وجيزة لا تتعدى بضع الدقائق من الزمن والضمير في (برقه) يرجع إلى البرد حيث يقوم بالتوصيل بين الشحنات المختلفة فيحدث تفريغاً كهربائياً هائلاً، وهكذا نسب سبحانه البرق إلى البرد، وهذا إعجاز علمي جديد، حيث الربط بين البرد وحدوث البرق داخل المزن الركامي.

وقد ثبت علمياً أن جميع السحب مشحونة كهربائياً وتبلغ الشحنات أقاصها في السحب الركامية العاصفة.

١٣- الرعد:

ينتج عن التسخين الشديد المفاجئ الذي يحدثه البرق في منطقة انبعاثه حيث يتمدد الهواء فجأة ويتمزق فيحدث الرعد.

والرعد: هو ذلك الصوت المرتفع المدوي، أو هو عملية طبيعية بسبب سلسلة الانعكاسات التي تحدث من قواعد السحب ومن المرتفعات من حولها لصوت الرعد الأصلي ليعوض خلخلة الهواء في هذا المكان.

وقد يحدث في بعض العواصف أن يتكرر حدوث البرق داخل السحابة الواحدة ٤٠ مرة في الدقيقة، أو بين سحابتين متجاورتين، أما إذا حدث التفريغ الكهربائي بين السحابة وأي جسم آخر مرتفع على سطح الأرض أو الأجسام القابلة للتوصيل الكهربائي فإنه يسمى صاعقة. ويقرر العلم الحديث أن صوت الرعد يدفع إلى الخوف والرجاء والتعظيم لقدرة الخالق، مما جعل صوت الرعد تسبيحاً للحمد، والملائكة أيضاً تسبح من خوفه ومن عظمته، وهذا إعجاز القرآن ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٢-١٣].

١٤- الصواعق:

قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:١٣].

قال تعالى: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣].

قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة:١٩].

نظراً لأن سماع صوت الرعد يتأخر عن رؤية البرق بمعدل خمس ثوانٍ لكل ميل ومن هنا يمكن قياس بُعد السحابة.

أي أن الصواعق ظاهرة تصاحب البرق والرعد والسحاب في بعض الأحيان وهي ذات أثر فعال قاتل في النفس، ولذا كان الرسول ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك».

وقد قرر العلم الحديث أنه إذا أصيب شخص بمس من صاعقة وجبت المبادرة إلى إجراء التنفس الصناعي له مدة لا تقل عن ساعة، فقد تعود إليه الحياة من جديد إلا أنها في عمومها مدمرة يرسلها الله نقمة وعذاباً ينتقم بها ممن يشاء. وقد أشار الشيخ النجار في كتابه «قصص الأنبياء» أن تدمير قوم صالح ﷺ كان بالصاعقة المعبر عنها تارة (بالرجفة) وتارة بالصيحة وتارة بالطاغية.

وأشار أن الصاعقة هي استفراغ كهربائي بين شحنتين مختلفتين إيجاباً وسلباً.

١٥- الأمواج:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [يونس:٢٢].

قال تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [هود:٤٢].

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان:٣٢].

قال تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ [النور:٤٠].

يتكون في البحار والمحيطات ثلاث أنواع من الأمواج:

١- **سطحية**: وتنشأ بدفع الرياح والأمواج، وأمواج المد والجزر نتيجة لجاذبية القمر.

٢- **عميقة**: تحدث في الأعماق السحيقة في المحيطات والبحار.

٣- **المظلمة**: مثل المحيط الهادي أكبر المحيطات عمقاً وهنا نتأمل دقة التعبير القرآني ﴿ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ وليس أي بحر.

كما يتجلى لفظة بمعرفة الأنواع الثلاثة للأمواج ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ﴾ كثيف معتم بسبب عمليات التبخر المستمر.

ومن خلال صور المركبة الفضائية يتضح أن صور قاع المحيط أثبتت حقيقة علمية وهي أن الأمواج والتيارات في قاع المحيطات هي أكبر وأضخم من أمواج السطح وهي أمواج عاتية وتسير بسرعة كسرعة الطائرات، وتنتج من خلال هذه زلزلة في قاع المحيطات أو انهيار كتل من جوانب المحيط، وقد لا يحس بها راكب السفينة في عرض البحر ولكنها تكون مدمرة قرب الساحل.

فحين تصطدم الأمواج بالسواحل تحطم المباني والأرصفة وغير ذلك من المنشآت الساحلية وذلك راجع إلى اتساع المجال الذي يعبر عنه بطول الامتداد وكلما كبر امتداد الأمواج زاد ارتفاعها.

وامتداد الأمواج في المحيطات التي ترفعها رياح تصل سرعتها إلى سرعة العواصف فالموج الذي يرتفع عادة على ٢٥ قدماً قد يرتفع عادة إلى ٣٠ قدماً والمسافة بين الموجة السحيقة والأخرى المجاورة لها في الأعماق قد تبلغ ٣-٤ قدم.

والأمواج إلى جانب ذلك عامل من عوامل النحت إلى جوانب العوامل الأخرى مثل الرواسب، وكذلك المياه والضغوط الهيدروليكية فهي تحطم السواحل وتنحت في تكوينها وتعمل على تآكلها، وتتكون الكهوف والمغارات البحرية وتنتزع كميات كبيرة من رمال الشواطئ.

والأغرب من ذلك هو تواجد أنهار بحرية ذات ملوحة وحرارة قد تصل إلى درجة التجمد، وتتحرك هذه الأنهار في أعماق البحار وبشكل معاكس للتيارات التي تسير فوقها وهذا ما وجد تحت مسمى (تيار الخليج)، وأغرب مثال على وجود تيارين

بحريين في مكان واحد أحدهما فوق الآخر هو ما يوجد بالقرب من منطقة جبل طارق عند التقاء البحر المتوسط مع المحيط الأطلنطي بمنطقة فاصلة عرضها ١٥ كم.

وقد توصل العلم الحديث إلى أن تدفق مياه الأنهار أو الخلجان في البحار يتم بمعرفة الخليج أو نقطة المصب فتدخل مياه الخليج أو النهر إلى البحر فتضيع في مائه كما تصنع الطائرة النفاثة في الهواء الجوي خطاً من الدخان ولكنه في الماء يكون خطاً أو شريطاً في المياه مع عدم امتزاجها..

ومن الملاحظ أن تيار الماء المتدفق من مصب النهر في البحر أو من فتحة الخليج من البحر أو المحيط يزيح الصخور التي تعترض طريقه ويقذف بها عند منطقة المصب، والاختلاط التي تتميز بخصائص مختلفة عن غيرها في لون الماء أو نوعيات الكائنات الحية التي تنمو فيها، وكأنها برزخ يحيط بها ويفصلها عما عداها من مناطق البحر أو النهر.

والبرزخ هو الفاصل والحاجز وهو ما نسميه (بمنطقة اللسان) مثل رأس اللسان في رأس البَر، حيث يندفع خط من الماء الحلو العذب ويشق طريقه وسط مياه البحر دون أن تختلط، وهو نوع ثابت يختلف في خواصه عن البحر المالح ويختلف في خواصه عن البحر العذب، ولولا هذا الحاجز لأصبحت مياه الأنهار مع مرور السنين مالحة واستحالت الحياة على وجه الأرض.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان:٥٣] أي مكاناً مستوراً تعيش فيه كائنات مائية لا تتبعه، وهذا ينطبق على الحاجز الذي وصفه بين البحرين، فإذا كان الحاجز مطلوباً في الحالة السابقة بين النهر والبحر فلماذا هو كائن بين بحرين مالحين كما في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن:١٩-٢٠].

الله وضع ما بين البحرين المالح والعذب حاجزين:

١- حاجز من نوع ثالث من المياه.

٢- الحجر المحجور وهو مصب الأنهار فإذن هما لا يلتقيان فكلمة اللقاء تعني القرب الشديد وهذا ما لم يحدث بين بحرين مالحين.

وهذا الإعجاز الذي جاد به القرآن منذ ١٤ قرناً لم يكتشفه العلم إلا عام ١٩٤٢، حيث عرف قانوناً ضابطاً للسوائل، وهو قانون الغشاء السطحي الذي يحول دون اختلاط الماء العذب والمالح والذي يفصل بين سائلين فلا يختلطان إنما يرجع إلى اختلاف تجاذب الجزئيات لكل منهما بحيث يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله وعندئذ توجد غشاوة مرنة على سطح كل نوع من الحياة، ففي منطقة الخليج تندفع الأنهار الجوفية العذبة قرب البحرين وقطر دون أن يختلطا، وأيضاً عند ملتقى نهر الكينج والجومونا في مدينة (الله آباد).

١٦- حركة الأرض – الليل والنهار والفصول الأربعة:

قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس:٣٧-٤٠].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:١٩٠].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦].

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ ﴾ [إبراهيم:٣٣-٣٤].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾ [الإسراء:١٢].

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ ﴾ [يونس:٦٧].

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان:٤٧].

إن تعاقب الليل والنهار وتعاقب النهار والليل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، وفيما خلق الله في السموات والأرض من عجائب لدلالات وحجج وأعلام لقوم يتقون الله فيخافون ويخلصون العبادة له.

أثبت العلم الحديث أن الأرض رغم سكونها الظاهري تدور حول نفسها كل ٢٤ ساعة أي في حركة يومية مغزلية بسرعة (١,٤٤ ميل/ ساعة) فيتولد عن ذلك الليل والنهار وتعاقبهما، لأن الشمس لا تضيء إلا النصف المقابل لها من الأرض فقط فيكون عند أهل هذا النصف نهاراً، وعند أهل النصف الآخر ليلاً.

وبيان هذا أن الأرض بدورانها حول نفسها من المغرب إلى المشرق تجعل كل نقطة من نقاط سطحها تمر على التعاقب، أما الشمس والقمر أو أي كوكب فيخيل لنا أن الكواكب هي التي تنتقل في السماء فتشرق وتغرب مع أننا نحن الذين ننتقل بانتقال الأرض.

ويقرر العلم الحديث أن طول كل من الليل والنهار يختلف باستمرار على مدار السنة إلا عند خط الاستواء فإن الليل مساوٍ للنهار على الدوام حيث يطول الليل في الشتاء. ويقصر النهار والعكس صحيح في الصيف، وفي بلادنا نشعر بالفصول الأربعة ظاهرة واضحة لنا.

ويرجع العلماء حدوث الفصول الأربعة لفعل عوامل ثلاثة:

١- دوران الأرض حول الشمس.

٢- دوران الأرض حول نفسها.

٣- ميل محور الأرض بزاوية مقدارها ٥ ,٢٣° مما يؤدي إلى اختلاف طول اليوم واختلاف فصل السنة، كما تختلف درجات الحرارة على سطح الأرض هي ٨٨٠° (سلزيوس) في الشتاء عند القطب وأعلاها (٥٨° سلزيوس) في الصيف عند خط الاستواء. ولا شك أن هذا الاختلاف في التوقيت يرجع إلى دوران الأرض حول الشمس مرة كل عام بسرعة ٦٧٠٠٠ ميل/ ساعة في حركة مدارية منتجة الفصول الأربعة وهي الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء.

ويطلق عليها العلماء (الحركة الانتقالية) وهي عبارة عن دوران الأرض حول الشمس من المغرب إلى المشرق ٣٦٥ يوماً، ٥ ساعات، ٤٨ دقيقة، ٥٠ ثانية، أي ٣٦٥ يوماً وربع يوم تقريباً، وهذه المدة المعبر عنها (بالنسبة الشمسية) وتقطع الأرض في اليوم أثناء حركتها السنوية ما يزيد عن ٥ , ٠ مليون من الفراسخ مما يجعل الليل يطول أو يقصر بحسب تعامد الشمس على المكان أو ميلها عنه، فالأرض تدور حول محورها المائل عن مداره بمقدار ٥ ,٢٣° وانطلاقها مع الشمس في فلكها حول مركز مجرة سكة التبانة بسرعة ٤٩٧٠٠٠ ميل/ ساعة وجريانها مع الشمس في فضاء المجرة بسرعة ٤٣٠٠٠ ساعة بل وانطلاقها مع مجرتين في إطار تمدد الكون.

ورغم هذه الحركات الخمس للأرض فإننا مستقرون فوقها لا تتناثر أشلاؤنا أثناء ذلك وما ذلك إلا بتسخيرها من قِبَل الله سبحانه وتعالى، فالأرض كالدابة الذلول.

إن اختلاف مواعيد الصلاة وأيضاً الإفطار في شهر رمضان من يوم لآخر في المكان الواحد لدليل على إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل والرحلة السنوية للأرض حول الشمس مع ميل المحور الشمسي بسبب اختلاف في طول اليوم وطول النهار.

فالشمس في كل لحظة في غروب وشروق وزوال وضحى ومعنى ذلك هو انتقال لفظ الجلالة الله أكبر في الأذان حول الكرة الأرضية، وطوافه حولها بلا انقطاع طوال الأربع وعشرين ساعة وإلى يوم الساعة.

وعلى هذا فإن المشرقين يمثل أقصى بُعد بين موضعي الأرض في فلكها حول الشمس كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ [الزخرف:٣٨].

كما أشار القرآن بالذات إلى منطقتين وصل إليهما ذو القرنين حيث أطلق على الأرض المظلمة مغرب الشمس، إشارة إلى ليلها الطويل، والأخرى المضيئة (مطلع الشمس) إشارة إلى نهارها الطويل، كما في قوله تعالى على الترتيب: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [الكهف:٨٦] أي بئر مظلمة ذات طين مبلول إشارة إلى الليل الطويل، وأما قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ [الكهف:٩٠] فيشير للنهار الطويل على خلاف ما تعود عليه في بلاده.

ويحدد البعض موقع رحلة ذي القرنين أنها كانت في الغرب بجزيرة الأطلنتس في الجانب الغربي من الكرة الأرضية، حيث كان خروجه من مصر وقت الغروب، حيث أدرك الشمس وقت الظهيرة ولقد وجدها مستمرة في غروبها فوق المحيط الأطلسي، وهذا يظهر أن الجزيرة المقصودة تقع بين خطي عرض ٤٠-٦٠ جرينش وبين خطي عرض ٢٠-٣٠ شمال خط الاستواء بالقرب من مدار السرطان إن لم تكن عليه.

وهذا دليل على كروية الأرض ودورانها التي جاء بها القرآن بأسلوب معجز علمياً وبيانياً يخاطب الجميع قدر عقولهم وزمانهم، فلم يشأ أن ينص على دوران الأرض مباشرة، لأن الإيمان بدوران الأرض أعصى من الإيمان بكرويتها، والدوران حركة وقد تعود الناس الشعور بالحركة، وعندما قيل لهم في القرن ١٦ إن الأرض تتحرك سارعوا إلى التكذيب وإعدام (كوبرنيكس) من جانب الكنيسة.

قال تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ ﴾ [الزمر:٥] والتكوير هو لف شيء على آخر في اتجاه مستدير كما في اللغة، ويؤيد هذا المعنى تكرار فعل (يكور) في الآية تكراراً بليغاً واستخدام المجاز المرسل لغوياً باستخدام لوازم الليل والنهار.

وهي على الترتيب: الظلام والنور، فالظلام ذلك الرداء الأسود جدير بأن يصور الله بها نفوس وحال الكافرين المشركين والمنافقين ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم:١].

وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [لقمان:٢٩] وتكرار الفعل (يولج) فيها والإيلاج لغوياً إدخال شيء في آخر ما يحيط به ويساويه كإيلاج

الخيط في ثقب الإبرة. أي: يدخل الليل في النهار ويدخل النهار في الليل، وما ذلك إلا بسبب دوران الأرض.

قال تعالى: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ [الرعد:٣] والإغشاء معناه التغطية ودوران الأرض مغزلياً حول محورها يؤدي إلى إغشاء أي: تغطية الظلام لمكان النهار وتغطية النور لمكان الليل نتيجة الدوران المغزلي للأرض منذ تكوينها في البداية منذ ٤,٥ مليار سنة، حيث كان التعاقب (حثيثاً) الذي اكتشف بالإشعاع الذري أن النهار آنذاك كان ٤ ساعات فقط، ويقال معنى الحث: الإعجال الذي ثبت أنه يتباطأ مع مرور الزمن بدليل حذف كلمة (حثيثاً) الذي اكتشف بالإشعاع الذري والساعات الذرية في القرن العشرين لدرجة أن بعض العلماء يتوقعون حالياً توقف حركة الأرض عن الدوران المغزلي في المستقبل، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص:٧١-٧٢].

ويشير القرآن إلى هذه الظاهرة باحتمال سكون الظل واحتمال توقف تبادل الليل والنهار: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾ [الفرقان:٤٥] واستدراكاً لهذا الوضع الشاذ، ماذا لو وقفت الأرض عن دورانها؟ فأصبح نصفها المواجه للشمس نهاراً دائماً والبعيد ليلاً دائماً، أليس من رحمته قوله في ذلك: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص:٧٣] وهذا الدوران العكسي بعد التوقف المذكور قرآنياً والمتوقع علمياً سيؤدي إلى طلوع الشمس من مغربها تصديقاً للحديث الشريف «لا تقوم الساعة

حتى تطلع الشمس من مغربها» وشرح لقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧] ليصبح للشمس مشرقان ومغربان.

قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٤] تؤكد حركة الأرض اليومية والسنوية، فالتقليب حركة تدل على إحلال أحدهما على الآخر بالسريان والإدبار كما في القسم الإلهي ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:٤-٥] وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر:٣٣] وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير:١٧].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧] والسلخ أصلاً معناه فصل الجلد عن اللحم، والمعنى نسلخ من حركات الليل نور النهار، والنهار طارئ موجود في قشرة الغلاف الجوي اللامس لسطح الأرض حيث تتوافر ذرات الهواء التي تحدث التشتت لضوء الشمس فيتجلى النهار ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل:٢] وقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر:٣٤] وبهذا فإن الظلام بالنسبة للنور كجسد الشاة بالنسبة لجلدها كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس:٤] وتكون الحركة هي المشرط الذي يفصل الضوء من جسم الأرض الكروي.

وهذه عملية مقدرة، فلو انخفضت سرعة الأرض إلى ٢٠٠ ميل في الساعة بدلاً من ١٠٠٠ ميل مثلاً لصار طول النهار ١٢ ساعة أي تصبح الظلمة نحو عشرة أضعاف الظلمة الحالية، لذلك كان من فضل الله أن يكون الليل والنهار في تداخل مستمر: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران:٢٧] ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [المزمل:٢٠] فهو المقدر العليم لساعات الليل

وساعات النهار ونقصانها فلا الحياة كلها ليل مظلم أو نهار مضيء بل إن الله جلّت قدرته سلخ النهار من الليل، وهذا يشهد على عظمته وقدرته.

١٧- سقف الأرض وبناء السماء:

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٢].

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ [الطور:٥].

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ [لقمان:١٠].

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ﴾ [الرعد:٢].

السماء لغةً: اسم كل ما علانا وارتفع فوق رؤوسنا، تبدأ بغلاف الأرض الجوي فالفضاء الكوني الذي تسبح فيه أجرام السماء إلى ما شاء الله.

جعل الله السماء فوق رؤوسنا سقفاً محفوظاً تحتفظ به الأرض بقوة جاذبيتها فلا يتسرب إلى الفضاء الكوني، لأن من صفات الغازات وخصائصها أنها تندفع بقوة إلى الفراغ الذي تتعرض له وتتعادل القوتان فيظل السقف مرفوعاً محفوظاً بلا عمد من الانقلاب والتسرب وتشير الآية ٢٣ من سورة الأنبياء إلى (القبة الزرقاء) تلك الظاهرة التي نراها فوق رؤوسنا في أثناء النهار التي تحدث في غلاف الأرض الجوي بسبب تشتت أو تناثر أشعة الشمس الزرقاء فيه بوفرة وغزارة دون سائر الأشعة الأخرى، وبخاصة من الطبقات السفلى الذي ترسله الشمس ضمن حزمة الضوء الشمسية التي تحمل اللون الأزرق والأحمر والأصفر، والأخضر والبنفسجي والبرتقالي والبني، وهي ألوان الطيف التي نشاهدها في قوس قزح ولكن أغزرها على الإطلاق هو اللون الأزرق. أما القبة التي تبدو لنا ليلاً مرصعة بالنجوم صورة ظاهرية لا تمثل الحقيقة والواقع.

وقد أثبت العلم أن السماء في معناها العلمي الواقعي هي كل ما يحيط بالأرض من جميع أقطارها ابتداءً من الغلاف الجوي الذي يرتفع بنحو ٣٠٠ كم فوق سطح الأرض وكأنه يجرف الهواء حول الكرة الأرضية وبعده يوجد فراغ كوني تسبح فيه الملايين من الأجرام السماوية وفي أعماقه السحيقة وهي تتجاذب فيما بينها وتتحرك في تماسك واتزان في طبقة بعد طبقة وكأنها البنيان المحكم وكأنها السقف المرفوع المبني فوق الأرض إلى علو ألف كم بقوة اندفاع الهواء إلى خضم الفضاء الكوني المحيط به، وعلى هذا النحو يتم رفع الهواء أو سقف الأرض بغير عمد ترونها. كما أن هذا السقف محفوظ لأن الأرض تمسكه بقبضتها (الجاذبية)، إذ تتعادل قوة اندفاع الهواء إلى الفضاء الكوني مع قوة جذب الأرض له فيظل محفوظاً فوق الأرض.

إن هذا السقف يحتوي على بخار الماء تثير به الرياح السحب، ثم تدأب على تغذيتها به ويحدث التكاثف لكي تجود السماء بالمطر الذي هو مصدر المياه العذبة على الأرض كلها الذي هو غير مخزون ولكنه دورة بين السماء والأرض، لأن الماء اختزن في الأرض آماداً طويلة يذيب أملاح قشرتها ويصير مالحاً كالبحار والمحيطات.

ولو أن سقف الأرض كان صلباً لأصبح أهل الأرض داخل شيء أشبه بالصندوق المقفل لا يرون الشمس والقمر والنجوم، ولا الكون الفسيح، ومعنى ذلك أن يتحول بخار الأرض ومحيطاتها إلى جليد دائم، فحرارة الشمس وضياؤها هما سر الحياة على الأرض وعلة بقائها يافعة مزدهرة.

ولولا سقف الأرض لتبخرت كل قطرة ماء على سطحها وفقدت في خضم الفضاء الفسيح، وصارت الأرض عالماً ميتاً كما هو الحال على القمر الذي لا يوجد له غلاف مائي. كما تعمل نسبة الأزون فيه (٤/ ٥ الهواء) على إمكان إطفاء أي حريق يشب على الأرض.

كما يحتفظ بالأكسجين الذي نستنشقه، وفيه غاز الذي يدخل في البناء الضوئي.

وفيه يحدث ضوء النهار تشتت أشعة الشمس، وهي تنتشر في باقي جسم الغلاف الجوي المظلم، كما يحمينا من الأشعة الكونية الآتية من الشمس، حيث معظم أشعتها فوق البنفسجية تقتل الخلايا الحية.

وقد ثبت أن أكاسيد الشهب التي تحترق في أعالي جو الأرض تترسب رويداً إلى أسفل وتكون أجود أنواع نوى التكاثف اللازمة لنزول المطر.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ [الغاشية:١٧-١٨]. وهو الرؤية والإبصار ويكون الحديث من الخالق للعباد معجزاً في خلقه حيث رفعها بغير عمد ترونها، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [غافر:٦٤] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [البقرة:٢٢].

ولفظ البناء والرفع بغير عمد مرئية. إن تأثير قوى التجاذب تأثير طاقة الحركة ويكون مضاداً له – ووفق هذه المعادلة كانت مواقع النجوم والأجرام السماوية ثابتة تضمن عدم السقوط والتصادم والاضطراب مع بعضها البعض في الأفلاك إلا بإذنه. قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج:٦٥] فميزان الله ترجمته المعادلة قوى التجاذب = طاقة الحركة، ولا شك أن الجاذبية الأرضية التي تجذب الأجسام المادية الموجودة عليها لتثبيتها وهي خاضعة لقوة جبارة هي قوة جذب الشمس لها وما يقابلها من قوة تعادلها تماماً في الفضاء هي قوة الطرد المركزية وهي مساوية لها في المقدار ومضادة لها في الاتجاه.

وهذه الجاذبية من أهم الأعمدة والدعامات التي تثبت الأجرام في الفضاء وتمنع السموات أن تقع على الأرض.

والأرض في دوراها حول الشمس تقع تحت جاذبيتها لها وما يعادلها من طرف آخر من قوة الطرد المركزية، أليست هذه الجاذبية للشمس أعمدة غير مرئية.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات:٤٧] الاتساع في اللغة ضد الضيق وفعل (موسعون) فعل مستمر.

فقد أُثبت علمياً أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم المتصل اللانهائي وهنالك حقيقة علمية عرفت في القرن العشرين تقول إن الكرة السماوية ليست ثابتة، وأن الكون له خواص كخواص فقاعة الصابون حين ينفخها الطفل، وأنه متسمر في النمو والاتساع لا يتوقف.

هذه الحقيقة العلمية ذكرها القرآن منذ أكثر من ١٤ قرناً، فالكون ليس متجمداً إنما يتسع كل لحظة حتى إنه بُعَيْد ألف وثلاثمائة مليون سنة تصير المساحة الكونية ضعفين لما هو عليه الآن.

وتؤكد الأرصاد الفلكية وجود عشر مجرات أخرى قريبة من السبع فيصل عدد المجرات إلى ١٧ مجرة تسمى المجموعة المحلية، وهناك البلايين من المجرات بعد ذلك وبهذا تتعدد السموات والأرضون.

إن القبة الزرقاء والغلاف الجوي الذي يعلو الأرض ويلامسها عند الأفق ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [النحل:٧٩] والعلماء يفسرون بأنها الكرة الكونية التي تجمع كل الأفلاك والنجوم في عالمنا المادي الذي يملؤه وسط غير مادي هو الأثير.

١٨- الضــوء :

قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [النور:٣٥].

المقصود بالآية سقوط ضوء على جسم يعكسه (مثل الزجاج) ويعطيه بريق الدر تماماً مثل الكوكب الذي يعكس إلينا أشعة الشمس، وقوانين الفيزياء تؤكد أن النور لا يُرى إلا بنور أقوى منه، وإذا كان النور الإلهي الذي تتناهى عنده الأنوار فكيف يرى مجرداً للعين؟ .

ويأتي دور الشمس في معرفة التوقيت عن طريق حركة الشمس الظاهرية أي موقع الشمس من الأرض ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ [الإسراء:٧٨] ونظراً لدوران الأرض حول محورها فإن الأماكن التي تقع على نفس خط الطول يكون توقيتها المحلي واحداً وينطلق صوت الأذان للصلاة في جميع المآذن في لحظة واحدة.

أما الشفق فهو الضوء الخافت الذي يكون على وشك اللمعان قبل شروق الشمس. وأما ظاهرة النور والضياء فانظر إلى الدقة في القرآن وبخاصة الدقة العلمية بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا ﴾ [يونس:٥].

وفي آيات أخرى سمى القرآن الشمس وضياءها الذاتي بالسراج الوهاج بما يلفت النظر في أن هناك تفرقة توحي بوجود فرق بين طبيعة الشمس وطبيعة القمر.

فالقمر جسم معتم يعكس كل ما ينصب عليه من أشعة الشمس التي هي في الأصل مصدر الضوء والحرارة ولهذا لم يذكر القرآن لفظ الضوء إلا إذا كان صادراً

من مصدر الحرارة كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٣٥]، قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة:١٧]، وقوله تعالى: ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ ﴾ [البقرة:٢٠] فترى أنه تعالى قال عن الضوء الحسي في ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ ﴾ أي كلما أضاءت بالنار، وقال في الآية الأخرى كلما أضاء البرق لهم، فالضوء يصحبه دائماً حرارة ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ ﴾ [النور:٣٥] أي يقرب زيتها في درجة الإضاء ولو لم تمسسه نار لصفائه الشديد فالشمس ضياؤها سراج وهاج، لأنه متقد بلهب فهو ضياء ذاتي كما يحدث في النار والبرق.

إن القرآن استعمل لفظ الضياء أو أحد مشتقاتها للضوء الحسي الذاتي، واستعمل دائماً لفظ النور للضوء الحسي المكتسب والمنعكس من سطوح الأجسام المظلمة بذاتها وجعل تعالى (النور) هو الضد والمقابل للظلمات لأن الضوء المنعكس من سطوح الأجسام المظلمة هو الذي يبدو ظلماتها دون الضوء الذي لا يقع عليها ولا ينعكس منها ولو كان قريباً منها، كما أطلق تعالى لفظ (الضياء) مجازاً على رسالته المنزلة منه على الرسل قبل تبليغها للناس، على حين أطلق عليها لفظ (النور) مجازاً بعد تبليغها للناس وبذلك يظهر إعجاز القرآن في التمييز بين النور الضياء.

لقد كان القرآن أول من أشار إلى أن الضوء هي تلك الظاهرة التي تؤثر في أعصاب العين فتسبب إحساساً بالبصر، علماً بأن العرب عندما نزل عليهم القرآن لم يكونوا يفرقون بين الضياء والنور أو بين الكواكب والنجوم.

١٩- الشمس والقمر:

قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان:٦١].

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس:٥].

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح:١٦].

قال تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ:١٢-١٣].

قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ [النازعات:٢٧-٣٢].

السراج هو الشمس: والمقصود بالشمس والمجموعة الشمسية (الكواكب الكبار) والشمس حسب (نظرية السديم) حيث بينت انفصال من الشمس الأولى والكواكب الأخرى ومنها الأرض.

الشمس والتي كانت دخاناً واحداً، أي ركناً في سديم حلزوني واحد ثم تراكمت وتكثفت وبردت لتعلن عن ميلاد كوكب جديد هو الأرض بمعنى أن الأرض قد انفتقت عن الشمس ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت١١] ومعنى ذلك أن الأرض عندما بردت تحولت من الغاز إلى السائل بعد انفصالها من الدخان، وقد كانت في حالة السيولة تدور حول نفسها وحول الشمس فأصبحت بيضاوية أو كمثرية الشكل.

وواضح أن تلك الأجرام السماوية وهي ملتهبة - عند انفصالها - لا تشعر بليل أو نهار ورغم أنها تدور حول محورها أمام الشمس فهي نفسها مضيئة ولكن إذا بردت تباعاً أصبحت ملائمة لاستقبال الحياة، فالترتيب الوارد في الآيات الكريمة له دلالته وله معانيه السامية وفيه الإعجاز العلمي لفظاً ومعنىً وتنسيقاً.

ولقد لفتت الشمس منذ القدم أنظار الناس حتى عبدها بعضهم وجاء الإسلام واستنكر ذلك ﴿ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ [فصلت:٣٧].

العلم الحديث يكشف لنا ماهية الشمس، فهي كرة هائلة من الغازات المتوهجة يتألف معظمها من الهيدروجين والغازات المنطلقة الملتهبة منها بالجزء الأسفل حيث ترتفع حرارتها، بسبب وجود مجالات مغناطيسية تنتج جسيمات سريعة الحركة تصطدم بالشمس العادية فتحيل هذه المنطقة من الشمس إلى متوهجات شمسية.

ويرجع سبب تغير الطقس والمناخ على سطح الأرض إلى محور دوران الأرض حول نفسها على مسار دورانها حول الشمس بزاوية مقدارها ٥ ,٢٣° وهذا يجعل شدة الطاقة الساقطة على سطح الأرض تتغير من فصل إلى فصل.

قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس:٣٨-٤٠].

يتغير اتجاه الشمس على سطح الأرض من منطقة إلى أخرى، فنجد أنه في فصل الخريف والربيع تكون الشمس متعامدة على خط الاستواء، وفي فصل الصيف

تكون الشمس متعامدة على مدار السرطان وأخيراً في فصل الشتاء تكون متعامدة على مدار الجدي.

وتبعد الشمس عن الأرض بنحو ٩٣ مليون ميل، وليس لذلك تأثير على تغير الطقس والمناخ على سطح الأرض، لأنه ثبت علمياً بأن فصل الصيف يبدأ عندما تكون الأرض أبعد ما يمكن من الشمس، أما في فصل الشتاء فيبدأ علمياً عندما تكون الأرض أقرب ما يمكن من الشمس وهذا بالنسبة للنصف الشمالي.

والشمس هي الجرم الأعظم الذي يظهر في السماء نهاراً، وهي الجرم الأهم للحياة على الأرض، فهي مصدر كل الطاقات وهي مصدر الحياة للكائنات الحية بضوئها الباعث على الحرارة.

وفي كل ثانية تطلق الشمس من الطاقة ما يعادل كتلة قدرها ٤٤٤٤ ألف طن أي نحو ٢٥٠ مليون طن في الدقيقة الواحدة.

وضوء الشمس قوي جداً وهو يأتي من طبقة غازات ساخنة على سطح الشمس تسمى (فوتوسفير) الطبقة المرئية السفلى يليها الطبقة الملونة الوسطى (كروموسفير) يليها طبقة الأصيل العليا وهي طبقة بيضاء وتسمى الإكليل (كرونا).

وللشمس مجال مغناطيسي معاكس لذلك الذي للأرض لأضعف كثيراً منه وبرغم ذلك تسيطر بقوة جاذبيتها على الكواكب التي تدور حولها.

هذه هي الشمس مصدر الإشعاع، ورد ذكرها في القرآن في كثير من الآيات (٣٢ آية) بأل التعريف (المعرفة) وقد ورد ذكرها مرة واحدة (شمس) حيث جاء في قوله تعالى: ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٣].

ويعتقد أن هناك علاقة بين ظاهرة الطقس على الأرض ونشاط تلك البقع الشمسية الذي إذا عرف فإنه يساعد التنبؤ بالطقس وكذلك تظهر مناظر براقة للشفق القطبي (أوروا).

٢٠- المجموعة الشمسية (الكواكب):

قال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴾ [الصافات:٦-٧].

قال تعالى: وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ ﴾ [الملك:٥].

قال تعالى: ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ ﴾ [النور:٣٥].

قال تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف:٤].

وبما أن الزينة ليست صفة أصلية للأجسام ومحلها دائماً سطوح الأجسام ولا تتناول باطنها ولم يقل بالكواكب كما قال بالنجم فيستدل من ذلك أن هذه الكواكب الذي هو زينتها ليس من ذاتها وليس جزءاً منها بل عارض عليها، أي هو ضوء مكتسب ومعكوس. ووصف ضوء الزجاج الساطع المعكوس منها والشبيه بضوء الكواكب الدرية بقوله بعد ذلك المتلألئ (نور على نور) فيبين أن سطوع الضوءين سببه أن كلاً منهما أنوار بعضها فوق بعض، فأثبت بذلك أن ضوء الكواكب الدرية نور أي ضوء مكتسب ومعكوس عليها.

بيّن القرآن أن القمر ليس من نوع الكواكب في نشأته فأشار بذلك مقرراً أن النيرات المظلمة بذاتها في السماء نوعان: الأول هو الكواكب، والثاني: هو قمر الأرض وما يوجد مثله.

والقمر من تخصيص معنى النور كتلة مظلمة وضوءه مكتسب ومعكوس منه، وقد أثبت العلم أن الكواكب السيّارة أجرام سماوية غير ملتهبة ما عدا الشمس المتوهجة، وهي تعكس ضوء الشمس الساقط عليها كما تعكس المرايا الضوء ولكن بدرجات متفاوتة تتوقف على طبيعة سطحها وتراكيب أغلفتها الجوية فتبدو للناظرين مضيئة وهذا ما يخالف الاعتقاد الذي كان سائداً إلى عهد قريب بأن للكواكب إضاءة ذاتية فقد ثبت أنها لا تشع ضوءاً ولا حرارة من نفسها.

يبلغ قطر المجموعة الشمسية خمس ساعات ضوئية، وأصغر هذه الكواكب من المجموعة الشمسية هو عطارد والزهرة والأرض والمريخ، وهي مؤلفة من مواد متشابهة.

قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴾ [التكوير:١٥-١٦] فالخنس هي التي تختفي بضوء الشمس، وقيل الخنس بمعنى بقر الوحش من خنس الأنف والكنس قيل التسعة إذ إنها تكنس في جريها إلى أبراجها.

ويوم القيامة النجوم تتكور وتنكدر والأجرام المضيئة بذاتها ملتهبة، على حين أن الكواكب تنتشر فحسب، وهذا يرجح أنها أجرام مظلمة جامدة.

٢١- النجوم:

قال تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦].

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴾ [النجم:٤٩].

النجوم: برغم ظهورها للعين نقاطاً ضوئية لامعة في السماء إلا أنها شموس مثل شمسنا.

وتظهر هكذا لبُعدها عنا بمسافات كبيرة، حيث إن أقرب نجم إلينا يبعد مسافة تزيد عن ٤ سنوات ضوئية وهو نجم الشعرى اليمانية يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر وهي نجمة أكبر من الشمس أكثر من خمسمائة مرة ونورها خمسون ضعفاً لنور الشمس وهي ميل في الدقيقة.

والنجوم في نظر العلم أجسام متوهجة تشع ضوءاً وحرارة تتميّز بخمس خصائص: (السطوع، اللون، درجة الحرارة، الطيف، الحجم) وعددها لا يقع تحت حصر، أكبرها الشعرى اليمانية وثلاث من بنات نعش تسمى (مايا – والكترا – السيون).

والشمس تتحرك بالنسبة للنجوم المحيطة بها بمعدل ١٢ ميلاً/ ثانية متجهة نحو (المستقر) الذي يقع في كوكبه الجاثي حوالي ١٠ إلى الجنوب الغربي من النجم اللامع المسمى (النسر) مصداقاً قوله ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس:٣٨].

وانتهت نظريات العلماء: إلى أن النجم يتكون من سحب وهذه بدورها مكونة من غاز الهيدروجين بنسبة كبيرة، تتجمع هذه الغازات بدورها وتتركز وتتآلف ثم تنضغط وتدور على هيئة سحابة كثيفة حول محور ثابت بسرعة قد تصل إلى عشرة آلاف ميل في الساعة الواحدة.

وبازدياد جاذبية مركز السحابة تزداد الكثافة شيئاً فشيئاً ويتولد من داخلها حرارة عالية داخل النجم الحديث فتزداد جاذبية أجزائه بالتدريج مع ازدياد سرعة دوران وازدياد سُمْك انحنائه.

وقسم العلماء دور حياة أي نجم إلى: ميلاد، شباب، شيخوخة، موت. وهذه النظرية تؤكد أن كل نجم سيصل حتماً إلى مرحلة الشيخوخة التي عندها لا يمكن

للنجم توليد الطاقة من الاندماج النووي، فينطفئ نوره تبعاً لذلك تدريجياً حتى يموت، جاء بذلك القرآن ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴾ [التكوير:٢] وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴾ [المرسلات:٨] فهاتان الآيتان تؤكدان أن جميع النجوم حتى الشمس سوف تتوقف قبل يوم القيامة.

ويقول العلم: إن النجم نوعان:

أ- برّاق.

ب- فوق البرّاق.

والأخير يبدو أكثر إضاءة وأعظم التهاباً وأعنف دوراناً وتدميراً، حتى إنه قيل إن أصل الأرض هو الشمس اصطدم بها نجم هائل فوق البراق قديماً وكانت الأرض إحدى القطع المتناثرة في أحشاء ذلك النجم فوق البراق وهي ما نسميها نظرية إيفون. ويدلك على صحتها ارتفاع درجة حرارة باطن الأرض وما تخرجه من حمم بركانية. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام:٩٧] وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النحل:١٦] ما يؤكد أهمية النجوم في حياتنا ليلاً، فالإنسان كان ولا يزال يهتدي بالنجوم في البر والبحر ليعرف مكانه وزمانه.

ومن عجائب الأمور أن حساب الوقت بالنجوم مسألة مهمة لمن يمارسها من البحارة ورجال القوافل ورجال البادية.

ومن الحقائق العلمية: أن النجوم التي تقع في القطب ترسم أقواساً في مساراتها وتكمل الدائرة لتعود إلى موطنها الأصلي والزمن الذي تستغرقه النجوم لإكمال الدائرة ٢٤ ساعة إلا أربع دقائق.

ومن حيث معرفة المكان فإن الأرض إذا أكملت دورتها، فإن النجوم تمر مختلفة في الفصول المختلفة من السنة وكل مجموعة لها شكل معين في السماء تسمى كوكبة.

ولأهمية النجوم في حياة البشر:

فقد وردت في سورة النحل الآية ١٦ قال تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾.

قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم:١].

قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ [الرحمن:٦].

قال تعالى: ﴿ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ [الطارق:٣].

وردت لفظ (النجوم) في تسع آيات في تسع سور.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام:٩٧].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٥٤].

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [النحل:١٢].

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [الحج:١٨].

قال تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴾ [الصافات:٨٨].

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور:٤٩].

قال تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الواقعة:٧٥].

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ [المرسلات:٨].

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ [التكوير:٢].

فالنجوم أعظم شأناً من الكواكب، ومواقعها ذات أهمية عظمى في بناء السماوات وتماسكها بأربع قوى: قوتان مألوفتان هما: جاذبية القوى الهابطة والكهرومغناطيسية القوى الرافعة ثم القوتان النوويتان الأخريان واللتان يقتصر تأثيرهما داخل قلب الذرة وإحداهما شديدة والأخرى ضعيفة وهي جميعها أعمدة غير مرئية.

إن وصف الله تعالى للنجم بالطارق، والثاقب في آية واحدة يدل على أن النجوم أجرام نارية مضيئة بذاتها وخاصة العملاق منها، وهي هداية للناس للأمكنة والأزمنة. ومما يؤكد أن ضياءها من ذاتها، ووصفها بالطارق أي بالتحرك ليلاً ونهاراً في السماء وإنها ترى ساكنة وأن بُعدها سحيق عن الأرض مما يؤكد أن سكونها ظاهري فقط لذلك جاء القسم بمواقع النجوم.

٢٢- المذنبات:

قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ [التكوير:١٥-١٦].

المذنبات: هي أجرام سماوية من أفراد المجموعة الشمسية، سبب حركتها هو جذب الشمس لها: تسبح في الفضاء في مسارات مستطيلة جداً حولها، لذلك فهي تختفي عن الأنظار مدة طويلة جداً ثم تعاود بعدها الاقتراب من الشمس فيراها أهل الأرض.

وهذا الاختفاء قد يطول عشرات السنين كأنما هي تخنس فيها وهكذا يسميها القرآن (بالخنس) ويقسم بها تماماً كما يقسم بالشمس والقمر والأرض ونحوها.

وهي تختلف عن الكواكب من عدة وجوه، حيث إن المذنبات المرئية لها رأس وذيل، وعندما يتحرك مذنب متجهاً نحو الشمس يكون الذيل خلف الرأس ولكن عندما يتحرك مذنب إلى كوكب آخر أو نجم آخر يكون الذيل بعيداً عن الشمس.

ومادة المذنب رقيقة جداً ويتكون الذيل والطرف الخارجي لرأسه من دقائق غازية صغيرة، أما في وسط الرأس، فالمادة أكثف وربما تكون من أجسام صلبة ذات مسافات بيّنة كبيرة.

وعندما يعود المذنب مقترباً من الشمس والأرض تدفع الشمس وتضغط على مكونات الذيل من أتربة وبلورات ثلجية وغازات بعيداً عنها فيستطيل الذيل حتى يبلغ طوله ملايين الكيلومترات.

وفي كل سنة ترصد المراصد الفلكية ما لا يقل على مذنبين جديدين في المتوسط، بالإضافة إلى نحو خمسة مذنبات قديمة سبق رصدها، وتكون ملايين المذنبات قشرة تفلق عن بعد المجموعة الشمسية وتقع في أعماق الفضاء الكوني على نحو سنتين من الشمس ومن ثم الأرض.

وكان أول مذنب درس علمياً هو مذنب (هالي) الذي تم رصده عام ١٧٨٢ ويبلغ طوله ١٠٠ مليون وفترة دورانه زهاء ٧٦ سنة.

وقد شوهد عام ١٧٥٩ وعام ١٩١٠ ودخلت الأرض في ذيله وظن الناس أن ذلك هو نهاية العالم إلا أنه لم يحدث شيء لخفة مكونات غازات الذيل ويرى هذا المذهب كل ٧٦ سنة حيث شوهد عام ١٩٨٦ وبإذن الله سيظهر في عام ٢٠٦٢ والله أعلم بكل شيء.

٢٣- الشهب والنيازك:

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن:٨-٩].

قال تعالى: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ٨-١٠].

قال تعالى: ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر:١٧-١٨].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:٥].

الشهاب: هو الشهاب الثاقب الذي يراه الناس، حيث يقذف الجن به عندما يحاولون استراق السمع في السماء ويطردون من السماء بالقذف بالشهب من كل جانب والشهاب علمياً: هو تلك الشعلة المضيئة من النار المتقدة.

لقد وردت الآيات بالشهب لإهلاك الشياطين الجن في أربع سور، وأما الخاصة بالحاصب عذاب شياطين الإنس في تسع سور.

قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [العنكبوت:٤٠].

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ [هود:٨٢-٨٣].

قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر:٧٣-٧٤].

قال تعالى: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الذاريات:٣٣-٣٤].

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر:٣٣-٣٤].

قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ [الفيل:٣-٥].

قال تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ [سبأ:٩].

قال تعالى: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء:٩٢].

قال تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج:٦٥].

الحاصب: صغير الحجارة.

والحجارة من سجيل فقد أهلك بها قوم لوط وأصحاب الفيل.

ويقول العلم إن الشهب عبارة عن قطع غازية معدنية وربما تكون في حجم حبات الرمل تظهر في سماء الليل تبهر الأنظار في شكل أسراب على هيئة ومضات من الضوء تنساب في خط أو مجموعة خطوط طويلة في أعالي جو الأرض.

وتتركب الشهب من حبيبات من المادة وتحترق إلى أكاسيد بسبب الحرارات العالية التي تتولد فيها عند احتكاكها بالغلاف الجوي إلى حد البياض تتفتت وقد يحترق الجسم الساقط كلياً فلا يصل منه شيء للأرض وقد يبقى منه شيء يسقط على الأرض ويرتطم وتسمى عندئذ نيزكاً.

الشهب الساقطة على الأرض أنواع ثلاثة: حديدية، وصخرية، صخرية يختلط فيها الحديد. أما النيازك أو الأحجار السماوية فهي نادرة وغالباً ما تتفتت إلى مساحيق قبل وصولها إلى سطح الأرض، بينما هي في الأصل كتل سماوية من حجر جرانيتي متفاوت في الحجم ما بين الحبة الصغيرة كحبة الرمل والحجر الضخم كالجبال يزن عشرات الآلاف من الأطنان.

والكسف هي النيازك التي تسقط على الأرض، والله قادر على أن يفعل ما يشاء والذي يقع على الأرض من السماء هو النيازك وهي نادرة جداً.

٢٤- ظاهرة القمر وعدد السنين:

قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان:٦١].

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح:١٦].

قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ [الشمس:١-٢].

قال تعالى: ﴿ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ۝١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴾ [النبأ:١٢-١٣].

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا ﴾ [يونس:٥].

قد ثبت علمياً أن القمر لا تأثير له على الطقس أو المناخ.

وهذه الآيات تؤكد أن الشمس ذات ضياء يشبه السراج الوهاج فهي إذاً من النجوم وطبيعتها أنها كتلة ملتهبة مثل لهب السراج متقدة ومضيئة.

بينما جعل تعالى القمر ذا نور، فهو إذاً كتلة مظلمة وضوءه مكتسب من الشمس ومعكوس منه.

وبهذا فالقمر يأتي في المرتبة التالية للشمس سطوعاً ولمعاناً، فهو بارد ينير كالمرآة حيث يعكس جزءاً من ضوء الشمس ٧٪ الساقط عليه فهو أضعف من ضوء الشمس. والقمر هو أقرب الأجرام السماوية من الأرض حيث يبعد عنها بمقدار ٣٨٤٤٠٣ كم أي حوالي ربع مليون ميل.

ويدور القمر في مدار بيضاوي حول الأرض مرة كل ٢٩,٥٥٣٢٩ يوماً هي قوام الشهر القمري بسرعة مدارية قدرها ٢٢٧٨ ميلاً/ الساعة، أي أسرع من الطائرات النفاثة، ويدور حول نفسه في المدة نفسها ومن ذلك يمكن معرفة الشهور وحساب الزمن.

وتعتبر الشهور القمرية من أقدم التقاويم وأضبطها ثم حدثت الأشهر الشمسية الذي يختلف اليوم فيه باختلاف فصول السنة الأربعة.

وجعل الله سبحانه للقمر منازل على أبعاد مكانية مقدرة وأشكال متوالية بترتيب تصاعدي في النصف الأول من الشهر، ثم بترتيب تنازلي في النصف الثاني

من الشهر، وهذا التنظيم ثابت لا يضطرب ولا ينحرف فالشمس في حركتها ونظامها والقمر في حركته ونظامه لا يطغى أحد على الآخر.

كما يعمل القمر على تثبيت طول اليوم على الأرض على مرّ الزمن، وذلك بتثبيت دوران الأرض حول محورها أمام الشمس.

٢٥- المد والجزر:

حركتان هامتان كظاهرة لازمة لتنظيف سواحل البحار حيث تزيل الفضلات وتغسل الشواطئ مرتين يومياً، علاوة على أهيمتها لجامعي القواقع من الصيادين عندما يكون المد منخفضاً، أو لتحريك طواحين صغيرة لإنتاج الكهرباء، لكنه للأسف يعمل على تآكل الشواطئ باستمرار.

٢٦- كسوف الشمس وخسوف القمر:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٥].

قال تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير:١].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف:١٧].

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [القيامة٧-٩].

يكون شعاع الشمس وقت الكسوف متفاوتاً على حسب تفاوت بُعد اتجاه الأشعة من موضعها من الجسم الحامل، فالظل ناتج بطبيعة الحامل من حيلولة جسم من شعاع الشمس وبين المكان الذي يقع عليه الشعاع وهو مقدر بكيفية الجسم على حسب اتجاه ذلك الجسم.

ويقول العلم: يحدث الكسوف إذا توسط القمر بين الشمس والأرض ووقع جزء من سطح الأرض في منطقة ظل القمر حينئذ لا يرى الناس الذين يعيشون في هذا الجزء، لا يرون الشمس، ويسمى الكسوف كلياً ويصبح الجو مظلماً ظلمة تامة.

بينما يراه سكان الأرض الذين يعيشون في منطقة شبه الظل كسوفاً جزئياً حيث يرون جزءاً من الشمس فقط.

وإذا لم يصل مخروط ظل القمر إلى الأرض يحدث (كسوفاً حلقياً) إذ لا يصل الضوء إلا من أجزاء قريبة من حافة الشمس فقط، ولا يعتبر وقوع الكسوف إلا عندما يكون القمر في المحاق ويحدث الكسوف الكلي كل ٢٠٠ سنة وقد رصدت الظاهرة في حوالي ٢٤٠٠ سنة ق.م.

أما خسوف القمر، فسببه وقوع ظل الأرض على القمر (فيظلم ظلمة تامة لأن القمر يستمد نوره من الشمس فقط).

أما إذا وقع جزء من القمر في منطقة الظلام وجزء منه في منطقة الظل فإن الخسوف يكون حلقياً.

ولولا ميل مستوى فلك الأرض لوقع ظل الأرض على القمر وخسفه في كل منتصف شهر قمري، فالخسوف يحصل متى توسطت الأرض بين الشمس والقمر حيث تحجب أشعة الشمس عنه، ولا يتيسر ذلك إلا عندما يكون القمر بدراً، وقد سبق القرآن العلم من ذلك بحوالي ١٤ قرناً.

فالكسوف والخسوف ظواهر فلكية منتظمة ودورية، يتكرران بنفس الشروط بعد تمام فترة زمنية تسمى بالساروس، ومن هنا يمكن التنبؤ بزمن حدوثه ولا صحة للخرافات.

٢٧- السراب:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ [النور:٣٩].

وهو نوع من خداع البصر حيث تكثر مشاهدته بالسهول والوديان الحارة، وفي البحار الدافئة والخلجان وحتى حقول الثلج الفسيحة والمنبسطة (السراب البسيط) أما السراب الهائل فيشاهد قريباً من المياه الباردة وتحت الأفق الظهر وترى فيه المرئيات البعيدة كما لو كانت منعكسة على سطح الماء.

ويقول العلم الحديث: إنه انكسار ضوء النهار، وذلك لأن طبقات الهواء مختلفة الكثافة فإذا سقطت أشعة الشمس في طبقة لأخرى واخترقت طبقات الهواء المختلفة تنكسر مبتعدة عن العمود لأنها تنفذ إلى سطح أقل في الكثافة وتزداد زاوية السقوط باستمرار حتى تكبر عن الزاوية الحرجة فتنعكس الأشعة انعكاساً كلياً.

قد يرى المسافر صور الأشجار أو الأجرام السماوية نتيجة الانعكاس الكلي أثناء سفره في الصحراء.

٢٨- السلالات البشرية:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات:١٣].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ﴾ [النساء:١].

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ ﴾ [الأنعام:٩٨].

قال تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا ﴾ [الأعراف:١٨٩].

من ذرية آدم ﷺ، تكونت كل السلالات البشرية الموجودة الآن باختلاف أشكالها وألوانها، وقد نتج ذلك الاختلاف لتعرض الإنسان لتغيرات بيولوجية في أثناء عملية التكيف مع البيئات الجديدة والمتغيرة.

والسلالات التي تعيش منعزلة عن بعضها بسبب العوامل الجغرافية أو لأسباب اجتماعية أو ثقافية عرضة للتغير ببطء شديد في شكلها الجسمي بعكس الجماعات التي تتصل بغيرها.

والسلالة البشرية: هي مجموعة من الناس تختلف أساساً عن مجموعة أخرى وذلك بسبب تكرار واحد أو أكثر من الجينات التي تحتويها.

وتكون السلالة نتيجة عملية التطور حيث يكون هناك تغير في الجينات إما بالاختلاط أو الانحراف الوراثي.

وقد اكتشف العلماء أخيراً عدم صلاحية نظرية داروين، فالإنسان لم يكن أصله قرداً في يوم من الأيام فهما نوعان مختلفان من خلق الله سبحانه ولا يمكنهما أن يتبادلا الجنيات الوراثية بينهما أو التهجين.

كما وجد العلماء أنه لا يختلف وزن الجزء الأمامي من المخ وهو مركز الذكاء والتفكير بالنسبة لحجم المخ بين الرجل والمرأة وبين السود والبيض.

فجميع الأجناس البشرية الحالية تنتمي إلى نوع الإنسان العاقل وتجمعها طبقات بيولوجية واحدة بما في ذلك مستوى الذكاء والقدرة على التفكير ما جعلها أكثر الكائنات مقدرة على استئناس البيئة الطبيعية والاستخلاف والتكيف والتعمير.

٢٩- وعلّم آدم الأسماء كلها:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠-٣٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٨-٢٩].

كانت الملائكة تتكلم لغة راقية وبالتالي كانوا يعرفون أسماء الأشياء كلها. فاللغة ليست الأسماء التي عُلِّمها آدم ﷺ وكانت الملائكة تجهلها وآدم عُلِّم الأسماء بالتفصيل.

إن عبارة الأسماء كلها تعني كل شيء حتى أسماء الحروف أي أن الكتابة التي عُلِّمها كانت هجائية وليست تصويرية. فالكتابة الأسماء كلها هي ما عُلّمه آدم ﷺ وهي ما كانت تجهله الملائكة.

٣٠- اللؤلؤ والمرجان:

قال تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن:١٩-٢٢].

البحران هنا: هما البحر الملح، وهو مجموعة البحار الملحة المحيطة والداخلية والبحر العذب وهي مجموعة المياه العذبة التي تجري في الأنهار والموجودة في البحيرات العذبة. والمياه الجوية المتغلغلة في طبقة القشرة الأرضية وطبقة الرداء التي تحتها، بل وفي الطبقة الهوائية أيضاً بشكل بخار أو غيوم.

كانت الدنيا كلها تجهل أن البحر العذب يخرج منه اللؤلؤ وحتى في عصرنا هذا عصر العلم، وهم نادرون جداً الذين يعرفون أن البحر العذب يخرج منه اللؤلؤ. وكان أول اكتشاف للؤلؤ الخارج من البحر العذب، هو في مغارة في جبال الألب البحرية في جنوب فرنسا.

ومن المعروف منطقياً، أنه في مثل هذه الحالة، أي عندما يكون اللؤلؤ يخرج من كليهما والمرجان من أحدهما، والمرجان بلا شك ينسب في الماء المالح.

٣١- البنان (البصمة):

قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة:٣-٤].

هذه الحقيقة نادى بها القرآن في القرن السابع الميلادي ولم يكتشفها الطب الشرعي إلا في القرن التاسع عشر حيث أثبت أن لكل إنسان بصمات وهي خطوط دقيقة منقوشة في أطراف أصابعه لا يتشابه فيها اثنان، ولا تتغير بالمرض أو بمراحل العمر وتستعين بها أجهزة الأمن في تعقب المجرمين والاستدلال على مرضى الأعصاب وفقد الذاكرة، وهذا السر العجيب في أطراف الأصابع تشير الآية إلى أن الله يعيد تشكيل الأصابع يوم القيامة، وينقش عليها تلك الخيوط الدقيقة التي كانت تميّز شخصية صاحبها في الدنيا أي أن إعادة الخلق تكون بإعادة دقائق ما كان للإنسان.

والبصمة أدق ما توصل إليه العلم الحديث، هو أن بصمات الأشخاص وحدها هي الفارق الدقيق المميّز بين إنسان وآخر ويعتمد عليه (علم الجريمة) في كشف الجرائم ومن هنا سر الإعجاز العلمي في الآية.

٣٢- الذرة:

قال تعالى: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الرعد:٣].

حتى منتصف القرن التاسع عشر كان السائد أن الذرة هي الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ، إلى أن أدت الكشوف في علم الطبيعة إلى القول بإمكان أن تنشطر الذرة ذاتياً أو بوسائل أخرى، وسبق القرآن إلى ذلك حين أشار بإجمال إلى أن الذرة منها ما هو أكبر وأصغر، والذرة هي وحدة البناء في كل الأكوان، من إنسان وحيوان وطير ونبات وجماد وشمس وقمر ونجوم، وتنشطر النواة في الذرة فتنفجر الذرة التالية لها وهكذا تتولد طاقة هائلة قد توجه للشر أو للخير.

٣٣- السالب والموجب:

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر:٩].

وهي الرياح التي ترفع الذرات المكثفة – من بخار الماء وذرات الغبار في الجو إلى مناطق أعلى باردة تجمع سحباً وهذا هو معنى الإثارة أي الظهور بكل سحاب ونسب الإثارة للريح لأن عملية حمل أو نقل البخار إلى الطبقات العليا الباردة أما السوق إلى الله لأن له قوانينه التي يعلمها الله وحده ولم يصل إليها علمنا، والآية ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾

[الحجر:٢٢] توضيح إلى أن (لواقح) معناه ليس لتلقيح النباتات وإنما عن ماء ينزل من السماء، فالمهم أن السحب حين تتجمع يتفرق السالب منها بعضه عن بعض وتقوم الريح بتزويج السحب السالبة للموجبة، تقترب بعضها على بعض فتحتك فتتولد شرارة كهربائية هي البرق، وفي دقة يقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ [النور:٤٣] نعم تأليف السالب مع الموجب.

٣٤- التوازن البيئي:

قال تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ [الرحمن:١-٢٤].

وهذه الآيات تشير إلى ما توصل إليه علماء الأوليات من أن لكل بيئة نظامها التوازني من نبات وإنسان وحيوان وطير وماء وجبال.

٣٥- النسبية:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج:٤٧] تشير الآية إلى النظرية النسبية التي اكتشفها العالم الألماني أينشتين والتي غيرت كثيراً

من مفاهيم وآراء علمية وثبت بها أن لا زمان مطلق ولا مكان مطلق بل هي نسبيات، فهي نظرية تقوم على الرياضيات المعقدة والمعادلات الصعبة وترتكز نظرية النسبية أساساً على الحركة فكلما زادت الحركة أبطأ الزمن، إن الأرض تدور حول نفسها أمام الشمس في ٢٤ ساعة مرة واحدة وحول الشمس مرة واحدة في ٣٦٥ يوماً بينما نصف دورة عطارد وهو أقرب الكواكب للشمس تساوي ٨٨ يوماً ويدور حول الشمس مرة واحدة كل عامين، فسبحان من يتلاشى عنده الزمن ويتناهى، وعن يوم القيامة، يقول سبحانه مؤكداً النسبية ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات:٤٦].

٣٦- قانون التوازن:

قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٤] الله هيئ السماء والأرض وجعلهما بتدبيره الذي يربط بينهما مسخرين لخدمة الكائن الحي على سطح الأرض، وذلك بدوران الأرض حول نفسها بسرعة معينة حول الشمس فلو زادت سرعة الدوران عما هي لتناثرت الأرض وتطايرت وتطاير من عليها من حيوان وإنسان ولو أبطأت لهلكت الكائنات من الحرارة والبرودة، ولو كان الهواء المحيط بالأرض أعلى قليلاً مما هو لأحرقت الشهب التي تحترق الآن بالفضاء الخارجي، لأحرقت الأرض ومن عليها ولو هبط الهواء قريباً من الأرض لزاد الضغط الجوي ولعجز الإنسان والكائنات الحية، ويقول تعالى: ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ [الزخرف:١٠] فمعروف أن الأرض مرت بتطورات كثيرة من صخرية إلى تربة صالحة للزراعة ذات قشرات بنسبة معينة ولولا حكمة الله وقدرته لما صلحت الأرض للحياة منها وجود البحار والمحيطات تمتص التفاعلات الكيميائية.

٣٧- قانون التناسق:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩]. يشير إلى آلاف ما تشهد من قوانين التناسق العلمي وما بين الكائنات من ضوابط النسبية فبحساب دقيق من الخالق حدد سبحانه الأبعاد بين الشمس والقمر والنجوم والأرض، وجعل الأرض بيضاوية ولو كانت على غير هذا الشكل لكان في حركتها ما يسبب الفيضانات وتهدم الجبال والمساكن. ولو كان طول الإنسان مثلاً ثلاثة أمتار لما خضع لقانون الجاذبية ولكان في طوله إهلاكه، ولو أن ما في الجو من ثاني أكسيد الكربون لا يتغذى عليه النبات لاحتراق الإنسان أو اختنق ومعه الكائنات.

كما أن الإنسان ذي الوزن المحدد نجد أن البنكرياس يفرز قدراً مناسباً لهذا الوزن من هرمون الكولسترول فإذا زاد وزن الجسم زادت خلاياه وأصبح الكولسترول أقل من حاجته ومن هنا تكون الإصابة بالسكر.

وقوله سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون:١٨] فنزوله بقدر يعني الكثرة تغرق الأرض والقلة تذهب بدداً في السماء، فشاءت الحكمة أن ينزل من الماء المقدور ما يظل على سطح الأرض ما يشاء الله له أن يتسرب من خلال شقوق القشرة وفي باطن التربة وتجاويف الصخور تخزنه، وفي هذا دليل على صلة ما بين المياه الجوفية والمياه السطحية.

٣٨- الحديد:

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد:٢٥].

فالحديد والأرض كانا جزءين من الشمس فانفصلا عنها ومن هنا دقة التعبير القرآن ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ وللحديد منافع واستخدامات للكائنات الحية من نبات

وحيوان وإنسان، فهو يكون عنصر الكلوروفيل الذي يساعد النبات على التمثيل الضوئي، وهو عنصر لازم لبناء الخلايا في الحيوان والإنسان ومنه أدوات الطب والجراحة وعربات القطار وأدوات الزراعة، إذا هو ينزل من السماء بالمطر إلى الأرض.

٣٩- الأشعة غير المرئية:

قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة:٣٨-٣٩] إشارة إلى حقيقة علمية كشف عنها العلم وهي أن في الكون طاقات غير مرئية تفوق طاقات البترول والفحم والشمس والذرة، ومنها الأشعة الكونية والأشعة السينية والأشعة فوق البنفسجية والأشعة تحت الحمراء والأشعة الراديوية وأشعة جاما.

٤٠- المادة لا تفنى ولا تستحدث:

قال سبحانه: ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه:٥٥].

إن العلم الحديث انتهى إلى أن المادة لا تفنى ولا تستحدث ولهذا فصوتنا حين نطلقه من الفضاء يحتبس فيه ويمكن أن نعيده بالتسجيل على أسطوانات وأشرطة، وكذلك صورتنا الضوئية مع أصواتها يمكن إعادتها كما هو حادث في التلفاز، إن المادة حبيسة صندوق هو هذا الكون، فالحيوان والنبات والجماد يبعث منه، ويخلق الله الإنسان ليفنى بعدئذ متفتتاً كما تتفتت بقية الموجودات وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ [ق:٤].

٤١- الكُمون:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس:٨٠].

حقيقة علمية تعرَّف عليها علماء الأرصاد الجيولوجيون، حين قالوا حديثاً بأن على الأرض منذ حوالي ٢٥٠ مليون سنة مستنقعات بها طحالب غزيرة وأن أوراق الشجر على ضفاف تلك المستنقعات كان يتراكم طبقة فوق طبقة، وتأتي أوراق الشجر فتغطي الطبقات الأولى ويتعفن وهكذا دواليك، ثم تجيء مياه الأنهار بالطمي فيكسو كل تلك الطبقات، وهكذا على مر العصور تتكون طبقات من الفحم في باطن الأرض، وإلى مثل هذه الحقيقة أيضاً يشير قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ [الواقعة:٧١-٧٢].

٤٢- قانون الجاذبية:

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد:٢].

فالسماء مشدودة لعمد غير مرئية لنا وهي قانون الجاذبية فكل ما في الكون مشدود بعضه إلى بعض بقوة وإحكام وفي وحدة وجودية مشدود بقانون الجاذبية، كل شيء على الأرض ينجذب إليها وهذا ما كشفه نيوتن في القرن ١٧، والهواء منجذب إلى الأرض وإلا لانفك منها. والقمر منجذب على الأرض ولهذا يدور حولها، والشمس ومجموعة أفلاكها منجذب بعضه إلى بعض بهذا القانون، وعلى الأرض موجود قانون الجذب ولولاه لفاضت البحار والأنهار ولكن مياه كل منها محبوس فيها بحكم قانون الجاذبية، ولولا هذا القانون لطار عن الأرض كل ما على الأرض، لولا هذا القانون لانفرط كل ما في الكون ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ [فاطر:٤١] وقوله سبحانه ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج:٦٥].

٤٣- التلوث:

يقول علماء الطبيعة الآن: إن ثمة تغيرات مناخية خطيرة ستنتج من قطع أشجار الغابات وتلوث المياه والأجواء بالغازات السامة، وإن إلقاء النفايات الذرية

في أعماق البحار ينتج عنه قتل جميع الأحياء المائية الشاهد في هذا كله أن لله حكمته في تنسيق الطبيعة وتوزيع أدوارها بين جبال وبحار وهواء، وجعل كل ذلك متاعاً للإنسان والحيوان، ولكن الحضارة المادية الحالية التي وجهت العلم للشر وللإيذاء أفسدت جمال الطبيعة وملأت أجواءها بالسموم والميكروبات.

٤٤- الشفع والوتر:

قال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:١-٥].

بعيداً عن حقائق علوم الذرة التي تفسر بها هذه الآية وذلك أن كل نواة فيها إلكترون سالب ونيترون موجب، وأن وزن البروتون يعادل تقريباً وزن النيترون لأن وزن الإلكترون من الضآلة بحيث لا يحسب حسابه. وهناك حقيقة رياضية إجمالية وهي أن كل معدود لا يخلو من أن يكون شفعاً أي زوجياً أو وتراً أي فردياً.

٤٥- الظلمة والضياء:

قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧-٣٢].

أ- أغطش ليلها: نسب الإغطاش وهو الكلمة الكثيفة إلى السماء، نعم إن رواد الفضاء قد كشفوا أن في النهار وخارج نطاق الكرة الأرضية يكون الفضاء ليلاً مظلماً وتبدو الشمس كرة بيضاء تحيطها الظلمة، كما تبدو منها النجوم تلمع في الظلمة، لماذا؟ لأن الضوء لا يُرى إلا إذا انعكس على ظهر المرئي وساعد على تثبته الغلاف الهوائي المحيط بالكرة الأرضية.

ب- **الأرض بعد ذلك دحاها**: رأى رواد الفضاء انبعاج الأرض عند خط الاستواء ودحوها عند القطبين وكلمة (دحية) عن العرب يعني بيضة فدحاها يعني جعلها بيضاوية.

ج- **الجبال أرساها**: الجبال النارية تحت غازات مذابة سائلة أكثف من سطح الجبال ومن هنا امتداد جذورها في تلك الغازات، أما الجبال الرسوبية فقد تكونت طبقاتها من الرمال فوق البحار على مدى العصور وامتدت جذورها إلى أعماق سحيقة فهي بها راسية.

٤٦- إحياء الأرض الهامدة:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥] والأرض الهامدة هي الميتة الجرداء ينزل الماء فيتسرب بين جنبات القشرة الأرضية يحرك سكونها وتتسع المسافة بين الجنبات ويختلط بالعناصر الويمائية من التربة فتبتل قشرة الأرض وتتغذى بها الشجرة وفي هذا اهتزاز وحركة وحين تتشقق النواة وتمتد منها الجذور رقيقة وعلى السطح أولاً ثم تتعمق وتنتشر في باطن الأرض ففي هذا اهتزاز حركي ونماء، وتكبر الشجرة بأغصانها وأوراقها وثمارها وفي هذا اهتزاز ونماء.

٤٧- الأرض الهامدة:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥] حقيقة علمية جيولوجية دقيقة فالأرض ساكنة ثابتة فإذا ابتل طينها بالماء تمدد إلى أعلى واهتز وتحرك أسفله بجذور النبات وشعيراتها.

٤٨- نقص أطراف الأرض:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء:٤٤] فأثبتت البحوث الجيولوجية أنه منذ قديم حين انفصلت الأرض عن الشمس وهي تتناقص من أطرافها كما ثبت ذلك القطر الواصل بين قطبيها.

٤٩- تصدع الأرض:

قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ [الطارق:١٠-١٢] فالرجع هو الماء الذي تصاعد بخاراً من الأرض فكوَّن سحباً يتمدد وتسقط مطراً، والأرض ذات الصدع هي تشقق النبات أو تتصدع مما في باطنها من بترول وغاز ومعادن مصهورة.

٥٠- حركة الأرض:

قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر:٥].

فالصاعد إلى الفضاء ليرى الأرض مضيئة يجدها من قطبيها كروية هذا من حيث المنظر العام فإذا نظر إلى تتابع الليل والنهار على الكرة الأرضية، يجد أن نصف الكرة المضيء إذا جاء الليل يلفه الظلام بينما النصف المظلم يلفه النهار في هيئة كروية. قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥] والأرض بها منخفضات هي المحيطات والبحار، والتوازن حركتها السريعة وهي تدور في الفضاء لا بد من مرتفعات هي الجبال وإلا بدت كمرآة وضعت في كف مشلول.

٥١- عمارة الأرض:

قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحجر:١٩].

إن الأرض وحدها من بين الكواكب السيارة التي تصلح للحياة ينمو عليها النبات ويعيش الحيوان ويعمرها الإنسان. إن الكواكب الأخرى قد تبعد من الشمس أكثر من بُعد الأرض عنها أو تقترب من الشمس بأكثر من اقتراب الأرض منها، وبعضها كعطارد والزهرة يواجه نصفها الشمس كالقمر فيكون حاراً وهذا النصف حرارته لا تتيح الحياة فيه بينما النصف الآخر شديد البرودة هذا إلى كثافة أجواء تلك الكواكب.

ومعروف أن الإنسان يتنفس نسبة معينة من الأكسجين بينما النبات يخرج نسبة معينة من الأكسجين فالتوازن بين الأمرين جعل الأرض صالحة لحياة النبات والإنسان.

٥٢- إرضاع الأبناء:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة:٢٣٣].

ثبت أن لبن الأم بتعقيمه الطبيعي الإلهي يقوي جسم الطفل ويقيه كثيراً من الأمراض التي يعاني منها كثير من أطفال اليوم الذين يرضعون اللبن الصناعي ولا تتوفر له وسائل التعقيم الكافية ولا فيه عناصر التغذية الإلهية المتوفرة في لبن الأم ولهذا شاهدنا اليوم كثيراً من الأمراض الحساسية والمعدة والقولون مما لم يكن يشكو منه الطفل الرضيع للبن الأم، ثم إن إرضاع الأم لوليدها يجعل الأم النفساء أن يعود ثديها من حالة الاحتقان إلى وضعه الطبيعي وكذلك يستقر رحمها.

ومن الناحية النفسية فإن التصاق الابن والأم وهو على صدرها يبعث تياراً عاطفياً يسري من الأم إلى الرضيع ومن الرضيع إلى الأم ومنها إلى الأب في دورة حنان وحب ورحمة.

٥٣- الدم:

قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١].

لقد أدت مكتشفات عصرنا الميكروسكوبات والأجهزة وعلم التشريح إلى الوقوف على معجزات الله سبحانه وتعالى في خلق الكائنات، ونشير هنا إلى عنصر واحد في الجسم الإنساني وهو الدم. إنه سائل الحياة في الجسم الإنساني وهو السائل الوحيد بين أجهزة الجسم الإنساني يمتد من القلب إلى أقصى أجزاء الجسم حاملاً ملايين الخلايا التي تصلح الخدوش وتقتل البكتيريا، وتدفع بالغذاء إلى خلايا الجسم وتطرد النفايات عن طريق الجلد.

٥٤- إرادة البطن والجوع:

قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ ﴾ [الأعراف:٣١].

يمثل نموذج التحضُّر الاقتصادي حيث لا تتضخم شهوة البطن في الإنسان، بل الإنسان يمتلك إرادة البطن، فأي طعام يكفيه، وأي طعام يلذ له وفق دستور المسلم الذي حدده الرسول ﷺ في قوله: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع». وفق تعاليم الإسلام كل شيء مبذول للناس لا يطلب الناس منه إلا ما هو ضروري بلا خزن ولا احتكار.

٥٥- العدة:

قال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ ﴾ [البقرة:٢٢٨] أي ثلاث حيضات، وإذا كان وضع الحامل لجنينها يزيل الشك في حمل جديد كما ينبه سبحانه: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴾ [الطلاق:٤] أما في حال الشك،

فإن الأطباء يقولون إن الحمل عادة مؤذن بانقطاع الحيض ولكن يحدث أحياناً أن تحيض الحامل بعد حملها مرة وقد تحيض مرة ثانية، ولكن أبداً لم يحدث أنها تحيض للمرة الثالثة ومن هنا فتحديد القرآن للحيضات أو للطهرات بثلاث إيذان ببراءة الرحم من أي حمل أو جنين، كشف عن هذه الحقائق الطب المعاصر.

٥٦- الطب الوقائي

قال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ [الأعراف:٣١] وهذه الكلمات الموجزة يحدد القرآن دستور الطب الوقائي فالعلماء يرون أن كل أمراض المعدة التي تصيب الكبد والكلى والبنكرياس تؤثر على القلب وهو هذه المضخة الكابسة التي يمتص الدم من هنا لتضخه هناك. وكلما كان وزن الجسم خفيفاً كان جهد القلب أقل فيصبح الجسم والأمراض الباطنية في معظمها ناتجة عن الإفراط في الأكل أو الشرب مما يسبب السمنة وأمراض السكر والروماتيزم وضغط الدم وحصى الكلى والنقرس... إلخ. ولو اعتدل الناس في الأكل وفي الشرب لصحت أبدانهم.

٥٧- رائحة الإنسان بصمة له:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف:٩٤].

فمن مكتشفات العلم المعاصر أن لكل إنسان رائحة خاصة به هي بصمة له تماماً كبصمة الأصابع، وأفاد الطب الشرعي في أوساط الشرطة هذه الحقيقة فترسل للكلاب وهي ذات حاسة شم قوية تشم الرائحة التي خلّفها من ورائه مرتكب الجريمة لتتعرف عليه بعدئذ من رائحته لو عرض وسط آخرين غيره.

يعقوب عليه السلام منحه الله هذه الكرامة في أن تعرّف على ريح ابنه.

٥٨- التقلّب في الرقاد:

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٨].

ولقد لبث أهل الكهف كما قص علينا القرآن في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، وعلماء الطب يقولون إن الرقاد إذا استمر على جنب واحد تنتج عنه القروح وانسداد في الدورة الدموية والضغط على أعصاب القدمين، ولمنع هذا الضرر يستحب في الرقاد التقلّب على الجانبين وهذا ما فعله الله سبحانه وتعالى بأهل الكهف الذي أراد الله بعثهم للحياة.

٥٩- علم الأغذية:

قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢].

كل ما ورد في القرآن من ذكر لمطاعم فيه فوائد للإنسان تحقق منها علم الأغذية الحاضر فمثلاً السمك غذاء بروتيني غني باليود والفسفور ومواد أخرى.

واليقطين هو القرع وهو غذاء سهل الهضم يصفه أطباء الأمراض الباطنية لمرضى القرحة ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات:١٤٦] وغيرها.

قال تعالى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾ [البقرة:٦٨-٦٩].

إن أفضلية البروتينات من لحم وطيور وأسماك ولبن على البروتينات من حبوب تكمن في النوع فغرام واحد من اللحم أفضل من غرام من البقول نوعاً.

٦٠- الخمر:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠] حرّم الخالق الخمر وكشف العلم الحديث أن الخمر لها آثار سيئة على الكبد فتصيبه بالتليف، وتسبب أمراض القلب وتسمم الخمائر المعوية فيضطرب الجهاز الهضمي ويتسمم الجسم، هذا إلى ضعف بنية الجسم وتعرضه للأمراض لعدم أهليته لمقاومة الميكروبات. هذا والخمر تضعف الذاكرة وتشوش العقل فيضطرب التفكير، ولها آثارها التدميرية على النسل الناتج عن أب وأم مدمنين للخمر.

٦١- الروح:

قال تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء:٨٥] حاول الفلاسفة منذ القديم إلى اليوم كشف ماهية الروح وخمّنوا من أين جاءت وكيف تحل في الجسم؟ وإلى أين تستقر؟ دون أن يصلوا في تخميناتهم إلى شيء علمي معه دليل يقنع العقل وتطمئن إليه النفس. وثبت أن أمر الروح مما استأثر الله بعلمه ولن يصل البشر فيه إلى شيء وهذا الحكم حاسم إعجازه العلمي في قصور المعرفة البشرية لغاية اليوم وغداً وبعد ما شاء الله أن يصل العقل البشري لماهية الروح. أو أن يقتحم سراً من أسرار الله سبحانه وتعالى جلّ في علاه وستظل كل الأسئلة المطروحة حول الروح بلا جواب.

٦٢- الجهاز البشري:

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١].

دارس الطب يجد في كل جزء من أجزاء الجسم البشري ما يشير إلى عظمة الخالق ودقة صنعه في اللسان والأذن، والبصر، واللمس، والجلد في الجهاز العصبي،

وفي كيمياء الجهاز الهضمي وفي الدم، إن أي خلل أو مرض يصيب الجسم إنما يشير إلى عظمة الخالق الذي أحكم خلق هذا الجهاز البشري بقوانين دقيقة تضبطه وتعمل بوحي القدرة الإلهية.

٦٣- السمع:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤] تلك الحاسة عند البدوي أو ساكن الغابات أقوى منها عند الحضري حيث الضجة تؤثر على قوة السمع.

ومن عجيب ما نجده في القرآن، إشارته سبحانه إلى فرق بين الاستماع المجرد والمركز فيه والسماع.

والسمع باب من الجوانب الرحبة في البحث القرآني، فالشيطان مدخله عن طريق السمع ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:٥] وفي وصف المشركين قال: ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ [المائدة:٤١] وعن الصوت الخفي قال سبحانه: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه:٧] وفي إنكاره الصوت الجهير قال سبحانه: ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان:١٩].

وفي الإحساس السمعي تعبير عن الإحساس النفسي ويقول سبحانه عن المنافقين الجبناء: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ ﴾ [المنافقون:٤].

٦٤- الإعجاز النفسي (الجريمة):

الجريمة ما يقترفه الجاني من جرم في حق نفسه وأسرته ومجتمعه. وقد وردت (مادة) الجريمة في القرآن الكريم أكثر من ستين مرة ولم ترد بلفظها ولا مرة واحدة

من هذه الألفاظ عرض القرآن لأوصاف المجرمين وحالاتهم وأعمالهم والإجرام كما بصورة القرآن ذو ظاهرتين:

١- **الإجرام الفردي**: وهو الذي يتحدث به المجرم عن ذاته، ويراد به كل جنس المجرم أنى كان جرمه.

كقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ⑪ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ [المعارج:١١-١٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٤].

٢- **الإجرام الجماعي**: وهو الذي يتحدث به القرآن عن الجماعات المجرمة في مقارفتها الجريمة ومعايشتها كقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩].

صفات المجرمين في الدنيا:

١- الافتراء على الله وتكذيب آياته.

٢- التكذيب باليوم الآخر وهو يوم القيامة.

٣- النهم والإفراط بالأكل والشرب كالبهائم.

صفات المجرمين في الآخرة:

١- سيماهم في وجوههم (سواد الوجه وزرقة العيون).

٢- تنكيس الرؤوس، إقراراً بالذنوب. وتيقناً بالعذاب.

٣- الخرس وعدم النطق.

٤- الكذب والجهل الشديد لوقائع الأمور.

٥- لا لتميزهم ولا تكريمهم.

٦- الإشفاق مما في كتبهم.

٧- عدم الاستبشار واليأس والقنوط.

٨- يحشرون زرقاً.

مشخصات الجريمة:

١- القتل المتعمد:

أولاً: قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء:٣٣] فقد حددت الآية عدة معالم لحالة القتل:

أ- عدم جواز قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

ب- من قتل مظلوماً فلوليه الحق بالقصاص.

ج- الاكتفاء في المقاصة الشرعية عن الإسراف.

ثانياً: حدد معالم جواز القتل وحرمته مع الإرشاد الموحي.

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [المائدة:٣٢].

وجوب القتل في مواضع:

أ- الكفر بعد الإيمان، الارتداد.

ب- الزنا بعد الإحصان.

ج- الفساد في الأرض كالعصابات المسلحة وقطّاع الطرق.

د- القصاص.

عالج القرآن ظاهرة القتل المتعمد نفسياً في عدة ملامح تحذيرية وترغيبية وإصلاحية:

١- حذر من قتل الأولاد خشية الفقر بأن ربط الرزق بالله: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأنعام:١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ [الإسراء:٣١].

٢- الإنكار الشديد بصيغة الاستفهام: قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨-٩].

٣- الوعيد المرعب بالخلود في النار وغضب الله تعالى ولعنه: قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

٤- الثناء المطلق والوعد الجميل مع الوعيد باعتبار الذين يتصنعون بعدم القتل من عباد الرحمن: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨].

٥- التسفيه والخسران: فيما قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٤٠].

٢- السرقة:

قد حدد القرآن حكم السرقة، باعتبارها من الجرائم التي يعاقب عليها بقطع اليد بنص قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٨].

٣- الزنا:

وهو جريمة يقاربها من لا عائلة له يحافظ على شرفها ولا زوجة يصون حرمتها، ولا بنت يغار عليها قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

وعالج القرآن ظاهرة الزنا وشدد عليها عقاباً بقوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٢].

الزواج حاجة يحتاج إليها الإنسان البالغ كالاحتياج إلى الأكل والشرب بالضبط ولا حياء في الدين.

٦٥- النفاذ من أقطار الأرض أو السماء:

قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن:٣٣-٣٥].

وتشير هذه الآية في وضوح إلى أن الإنسان إذا أوتي السلطان وهو القوة مع العلم الذي يكتشف به أسرار الكون رغم أنه تمكن بواسطة سلطان العلم أن

يتخلص من قبضة جذب الأرض فيسبح عبر الفضاء الخارجي فلن يستطعوا النفاد إلى أقطار السماء إلا إذا أراد الله سبحانه.

٦٦- خلق الإنسان:

قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق:٥-٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات:٢٠-٢٣].

حسم القرآن قضية خلق الإنسان من سلالة من طين، أي خلق من تراب ثم بعد ذلك جعل الخلق يتكون من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب في الإنسان يحمل المنويات إلى رحم المرأة فيلتقي بالبويضة فتنمو في الرحم، نطفة ثم تكبر فتصير علقة، فتكون مضغة يخلق الله العظام، ويكسوها اللحم ثم يتكون الإنسان الكامل في عقله وصفاته وأعضائه، وما فيه من خلايا فتكون الأجهزة والحواس عنده من مليارات الخلايا.

الخلق الآخر الذي يقف الإنسان عنده فيقول: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤].

٦٧- الزنا:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

إن الزنا فاحشة، أي عمل شنيع يؤدي إلى ضياع وفساد الأسر والبيوت من الناحية الاجتماعية ومن الناحية العلمية يؤدي إلى الأمراض الفتاكة ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ ومن أمثال الأمراض مرض الزهري، ودودة الزنا (أفعى الزنا) هي جرثومة تتسلل إلى الجسم خفية، وتتركز في الشرايين وتتوزع على البدن، وتبقى كامنة إلى حين نشاطها فتعطب العصب البصري وتحل الدمار بالدماغ وتسبب التشوهات في الجنين فيولد بكبد معطوب أو طحال ضخمة ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ [النحل:٣٤].

٦٨- الأنعام:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل:٦٦].

تحول الإبل الغذاء المهضوم (الفرث) إلى لبن سائغ للشاربين ويحتوي على كل المواد اللازمة للنمو من الدهنيات والبروتينات والسكريات والأملاح المعدنية والفيتامينات والفسفوريات والماء، والإعجاز في تركيب الحليب وإخراجه أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ [لقمان:١١].

٦٩- الجلد:

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ﴾ [النساء:٥٦].

وقال تعالى: ﴿مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الزمر:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [فصلت:٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾ [فصلت:٢١].

ما هو سر الجلد وهل له علاقة بالألم؟

إن الجلد آلة الإحساس بالحر وبالبرد وهو الذي ينقل الإحساس من العالم الخارجي. وعلى سطح الجلد جسيمات مختصة بأنماط الحس المختلف للحر والبرد والألم والمفاصل والأوتار والضغط واللمس وغيرها. وهناك ٣-٥ ملايين جهاز حساس للألم و ٢٠٠٠٠٠ جهاز حساس للحر و ٥٠٠٠٠٠ جهاز حساس للمس والضغط وهناك ٧٦ عصباً تسيطر على سمات الإحساس في الجسد البشري.

إن الجلد يرسل نبضات عصبية كالتلغراف وفي ألياف لا يتجاوز قطرها (١/٤٠٠٠) من البوصة وفي سرعة (٢٠٠) ميل أو أكثر في الساعة هذا للبرد والحر. أما اللمس فهو أدق وهو للألم أعجب وأعقد وفي سرعة هائلة. فإن الجلد باللمس يميز الورقة من القماش، والحس العميق للألم ينقل إلى الدماغ أخبار العضلات والمفاصل والعظام والأوتار، ومن هنا ندري لماذا نوه سبحانه وتعالى بالجلد في العذاب لأنه موضع الإحساس، ويقشعر جلد الإنسان من الخوف والألم ويلين عند الراحة الاطمئنان.

٧٠- الأذن بين السمع والتفكير:

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴾ [القصص:٧١]. ختم الله سبحانه الآية

بالدعوة إلى استعمال آلة السمع بدل أن يقول: (أفلا تفكرون) ذلك لأن الإنسان في الليل ينام ولا يعي ما حوله ولا يدركه ولا يراه ولكن حاسة السمع أكثر الحواس تيقظاً عند النائم فأي حركة يسمعها تحدث فإن السمع هو الذي يلتقطها فتشعر بقية الحواس بها، لكن في النهار يختم الله قوله ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص:٧٢].

٧١- البصر:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص:٧٢]، لأن البصر هي الحاسة التي تدل الإنسان وتقوده فيه، ولكن حاسة السمع أكثر أهمية للإنسان.

والبصر من أغلى الحواس عند الإنسان وبها يدرك الصور والألوان ولكن الإحساس بها يتم في المخ حيث تبدأ عملية مقارنة بين الصورة المرئية وما اختزن في المخ من صور لتحكم بأن هذه الصورة للأم أو لصديق، ومن العجيب تلك الصورة البصرية في القرآن حيث يكثر الله عدد المسلمين في وقعة بدر في نظر الكافرين بينما يقلل عدد الكافرين في نظر المسلمين.

وللعيون لغة يعبر بها عن الأحاسيس: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ [يوسف:٨٤].

قال تعالى: ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾ [الأحزاب:١٩].

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾ [النور:٣٩].

العيون ترى الرؤى في المنام.

٧٢- اليـد:

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ [ص:٧٥].

وقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾ [التوبة:١٤].

وقال تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾ [المائدة:٦].

أن اليد أداة هندسية معقدة وهي التي تبني الحضارة وتشكل الفن وتتحمل كثيراً من أعبائها اليومية وليس لها هذا المظهر الخارجي فحسب وهي تعبر أيضاً عن الحس الداخلي كالمعانقة والمصافحة واللكم والضرب (لغة الإحساس) كما أنه باليد يستعاض عن بعض الحواس كالبصر واللسان والسمع.

٧٣- البصر والسمع:

قال تعالى: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ ﴾ [الكهف:٢٦] البصر مفتوح المجال بينما السمع موقوت بلحظة السماع.

٧٤- حاسة السمع عند الطفل:

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨] وهنا حقيقة علمية معجزة توصل إليها العلم المعاصر، وهو أن السمع يسبق في وظيفته البصر ولهذا قدّم السمع هنا وتكرر تقديمه سبع عشرة مرة في القرآن، ولهذا نجد الطفل عند ولادته يسمع أولاً ولا يميّز الضوء ببصره إلا بعد خمسة عشر يوماً.

وقوله سبحانه: ﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴾ [الكهف:١١] لأن الحواس كلها عند النوم تقف عن أداء وظائفها ما عدا الأذن ولهذا ضرب الله

عليها في قصة الكهف أكثر من ثلاثمائة سنين فلما بعثهم ظنوا أنهم ناموا يوماً أو بعض اليوم.

٧٥- التوازن الأكل والشرب:

قال سبحانه: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف:٣١].

الآية تشير إلى ناحية اقتصادية هامة في حياة الأمم أن الإسراف في الأكل والشرب هما من مظاهر الترف وأن لهما أبعادهما السلوكية والاجتماعية الصحية، إن الجائع لا يختار مطعماً ومشرباً فكسرة الخبز تذهب عنه ألم الجوع وشربة ماء تغنيه، والذي يختار مطعمه ومشربه هو المترف التي سدت نفسه فيتغلب على ذلك بالمشهيات ويملأ بطنه عنوة، فأمامه عدة ألوان من الطعام يتخير من كل منها شيئاً لعل نفسه أن تقبل على الطعام.

٧٦- معادن في الإنسان:

يقول سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤] إشارة إلى أن أصل الخلق من الأرض وفي الجسم من معادن الأرض كالحديد والخارصين والماغنيسوم.

٧٧- الإبـل:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧] تشير إلى حقيقة الإعجاز العلمي للقرآن فقد خلق الله الإبل وكيف خلقها للحياة في الصحراء فجعل جسمه يبرد في الليل إلى ٩٥ درجة فهرنهيت، ويسخن بالنهار إلى ١٠٥ درجة فهرنهيت، وجعل على جسمه وبراً يصل إلى بعض بوصات لتمنع تسرب الماء من الجسم عن طريق العرق، والدسم كله مكتنز في السنام، والمواد النتروجينية بدل أن يخرجها تعيدها الإبل إلى المعدة لتساهم في تكوينها.

٧٨- الصوم:

قال تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:١٨٤] وقد أشار المتخصصون إلى أن في شهر رمضان تختفي كثير من الأمراض الباطنية مثل ضغط الدم وبعض أمراض القلب والزلال عند السيدات، كما أن مقاومة البشرة للأمراض تزداد بجفاف الماء من البشرة وفي الجلد، كما أن طبيباً أجنبياً هو أليكسيس كاريل يقول إن الخلايا الإنسانية تتجدد بالصوم ويقضي على البؤر الصديدية التي تفرز سمومها في الدم، وبالصوم تتفتت الحصوات.

٧٩- الصوم طبياً:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣].

فالصوم صلة بين العبد وربه وله معانٍ ووظائف دينية نفسية وخلقية واجتماعية، ولكن الفوائد الطبية تكشف في عصرنا فيقول أطباء الغرب: إن سموم الغذاء في الجسم تتحلل وقت الصوم فتذوب ويخف وزن الجسم وينشط الذهن وتستريح أجهزة الجسم وتتجدد خلاياه، وتنشط أجهزة الدفاع والمقاومة في الجسم ويسهل الهضم ويضبط وقت الأكل ويخف التوتر النفسي ويهدأ النوم ويخف ضغط الدم بعد عشرين يوم من الإفطار بعد الصوم، يعود للجسم وزنه وتكثر حيويته ويتجدد نشاط خلاياه، وأثبت هذه الحقائق قسم الصوم بالمعهد النفسي بموسكو.

٨٠- الميتة والدم ولحم الخنزير:

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة:٣].

أما تحريم الميتة فأن عدم إسالة دمها يساعد على نمو البكتيريا فيها، والحاملة لميكروبات الأمراض، كما أن الميتة نفسها قد تكون حاملة للأمراض المُعدية أو ماتت مسمومة بالمواد الكيماوية فتنقل عدواها أو سمومها إلى آكلها.

أما الدم فهو سريع الامتصاص لميكروبات الأمراض، وإذا ما تعرض للهواء تكثر فيه البكتيريا الحاملة لميكروبات الأمراض.

ولحم الخنزير يصيب آكله بدودة الخنزير الشريطية التي تكمل دورة حياتها في جسمه وتتحوطها في مخه فتصيبه بالجنون أو في عينيه فتصيبه بالعمى، والخنزير حامل لميكروبات أمراض كثيرة ينقلها إلى آكله، وكل هذه حقائق يكشف عنها الطب الوقائي.

٨١- الانفعال وأمراض العيون:

قال تعالى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ [يوسف:٨٤] ذهبت عينا سيدنا يعقوب عليه السلام من البكاء والحزن، والطب الحديث يعرف أن الانفعال وشدة البكاء، يزيد ضغط العين فتتكون مياه بيضاء، حتى إذا استوت ذهب البصر، وهذه الحال هي التي عاناها يعقوب عليه السلام .

٨٢- الغذاء في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:١-٣]: وفي ضوء علم الأدوية المعاصر وعلم الغذاء نجد التين والزيتون مذكورة في مصادرها العلمية فكلاهما غني بالفيتامينات، والتين يفيد في علاج بعض الأمراض مثل الحصى، الجهاز الهضمي، وأمراض التنفس الرئوي، أما الزيتون فيفيد في علاج أمراض الجهاز الهضمي والحصى، وأمراض البشرة وعلاج الشعر.

٨٣- الكروموزوم:

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان:٢].

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم:٢٢].

ففي ضوء علم الوراثة الحديث نجد الكروموزومات في نطفة الرجل تحمل خمسين في المائة من الصفات الوراثية وتحمل بويضة المرأة في كروموزوماتها خمسين في المائة من خصائصها الوراثية وتتكون من التقاء نطفة الرجل وبويضة المرأة خلية الجنين التي تنقسم إلى عشرات ومئات وآلاف وملايين وبلايين الخلايا التي تتكون منها أنسجة وأجهزة وأعضاء الإنسان حاملة خصائصه من لون الشعر والعينين والبشرة وسمة الوجه والجمال أو الدمامة، ما يميز كل إنسان عن الآخر مشيراً إلى عظمة الخالق.

٨٤- علم الأجنة:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٣].

بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن جاءت الكشوف الطبية الحديثة وعلم الأجنة والتشريح فلم تجد أدق ولا أوفى ولا أصدق ولا أشمل من التعبيرات القرآنية عن تطور الجنين بدءاً من الحديث عن آدم المخلوق من سلالة من طين ثم عقبه الذي جاء نطفاً وهو الماء الثقيل في قرار مكين أي الرحم.

٨٥- المخ:

قال تعالى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ١-٢] ويكفي العرض للمخ وهو خلية عصبية تتكون من عشرة بلايين خلية تكون كلها وحدة كهربية كيماوية هي مصدر الإحساس والشعور والتفكير ويتصل بأعضاء الجسم بخيوط تسمى الألياف العصبية، وترسل إليها الرسائل وتصدر الأحكام.

وهذه الخلية العصبية في المخ على شكل هرمي وهي معقدة تعقيداً كيماوياً وكهربياً شديداً.

٨٦- الصلاة وتمرينات الدماغ:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج:٧٧].

إلى جانب ما تحض عليه الآية من أمر بالصلاة والعبادة لله وحده وهي صلة بين العبد وربه فهي تتضمن حقائق علمية كشفها الطب الحديث وسجلها في أحدث دراسة، حيث تقول الدراسة: إن حركة السجود والركوع من أروع الممارسات العملية لتنشيط شرايين المخ، وتقوية جدران الحجر الدماغية، بتقلص وانقباض تلك الجدران تندفع الكتل الدموية في الشرايين المخية والغازات المذابة الحيوية في المراكز العصبية فتنشط الدورة الدموية في المخ، ويساعد ذلك على قوة القابليات الذهنية وضروب التفكير العميق، هذا إلى أن ما في الركوع والسجود والانتصاب والقيام وما يصاحب ذلك من سكون ما يساعد على قوة التركيز. والحصيلة قوة التفكير وعمقه، وتركيز، وقوة ذاكرة وجو عقلي يساعد على التأمل والإبداع الفكري.

٨٧- العسل:

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

أثبت الطب الحديث أن في العسل شفاء، منذ ثلاثين عاماً شاع في أميركا، أن العسل حامل للميكروبات تماماً كاللبن، وقام حديثاً عالِم أميركي بتعريض العسل

لكافة الجراثيم حين وجدها جميعاً تموت بالعسل، وقد أثبت أن العسل يعقم الجروح من التقيح والتلوث، وفائدة العسل لالتهابات الحنجرة والأنف، كما استدل على أن غالبية المعمرين ممن يأكلون العسل، وللعسل فوائد للقلب ولقروح المعدة والكبد والحمى والروماتزمية والتقيؤ والأمراض النفسية كالكآبة وضيق النفس.

٨٨- النحل:

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

فبإلهام من الله تنقسم جماعات النحل بتدبير ونظام وحكمة وعقل، فجماعة تقوم ببناء مساحات متساوية الأبعاد بين كل خلية وخلية والتي يبنيها مهندسو النحل على شكل سداسي، وتقوم جماعة أخرى باستكشاف غذاء النحل ثم تعود للخلية مهتدية بمعالم كالبيوت والشجر والشمس، يهتدون بحاسة فيهم وبرائحة تفرزها النحل في مقدّمة كل خلية فإذا كان مكان الغذاء قريباً رقصت جماعة المكتشفين رقصة دائرية، وإن كان الأمكنة بعيدة رقصت رقصة اهتزازية، وإن كان المكان بعيداً جداً تمهلت في رقصتها، وفي كل حالة ينطلق الشغالة مع جماعة المكتشفين لجمع الغذاء وحبوب اللقاح، وتقوم جماعة أخرى من النحل بتنظيف الخلايا من النحل الميت ومن الغبار وبسد الشقوق بمادة الراتنج.

٨٩- النمل:

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ ﴾ [النمل:١٨].

توصل علماء الحيوان إلى أن النمل خلق يشابه الإنسان في سلوكه فهو له لغة، ويبني البيوت ويشق الأنفاق ويدخر الطعام، وتفضي مثل هذه الأمور إلى نتائج شائقة تعطي أبعاداً عميقة للتفسير العلمي للقرآن السابق لكل الكشوف العلمية.

٩٠- الرطب:

قال تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ [مريم:٢٥].

يوجد في الرطب كامل العناصر من بروتينات ودهن وأملاح، كما أنه يروي العطش، وبهذا الرطب هرمون يمنع أمراض الحمى والنفاس ولذا جاء التعبير، ففي الرطب دواء وغذاء، فالحامل قبل الولادة تأخذ هرموناً أنثوياً يقوي انقباضات الرحم، وأكل الرطب يقوم بهذه المهمة كما أن الحامل تأخذ مليناً حتى لا تمسك البطن ويكون في ذلك ضرر الجنين وضرر على الأم فتضغط الرحم على الأمعاء، ثم إنه بعد الولادة يساعد أكل الرطب على طرد بقايا الدم من الرحم بسرعة لأن في بقائها به ما يعرض الأم لحمى النفاس، كما أنه يطرد نفايات ما في الأمعاء فلا تضار الأم، ويقلل من نسبة ضغط الدم لديها.

٩١- الكائنات الدقيقة:

قال تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس:٣٦].

إلى ما قبل عصرنا الحاضر كان العلماء يرون أن الأزواج على ما تراه حواسهم من إنسان وحيوان ونبات، وجماد إلى أن اخترعت الميكروسكوبات، فرأوا أشياء دقيقة لم تكن تراها أعينهم، ثم تطورت المكتشفات فاخترع الميكروسكوب

الإلكتروني الذي أرى عوالم خفية غاية في الدقة وهي عالم الفطريات، ورأى أن الزوجين ثمة خيوط بينهما تتكون بينهما أجنة الفطريات التي تحمل خصائص كل من الذكر والأنثى، وهذا ما أشار إليه قوله سبحانه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦].

أما بقية العوالم فإن لكل منها بروتين ذكر وأنثى أو سالب وموجب، ولو فرض ووضعنا بويضة أنثى إنسان وفيها ماء أي ذكر من كائن آخر فإنه لا يخصب البويضة لأن لكل كائن حي خلية بها حبات أو عقود أو كروموزومات أو أمشاج تحمل كل الخصائص التي ستورثها من بياض لون، وبياض شعر وطول قامة وهيئة.

٩٢- الإلهام:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

تشير الآية إلى قضية كونية اكتشفها العلماء المعاصرون وسموها قانون الهداية أو الإلهام فكل شيء في الكون يسمى قانون الإله الخالق الهداية أو الإلهام مثلاً: الحيوان المنوي يتجه واحد بعينه من بين مئات الألوف برائحة خاصة إلى بويضة للأنثى في انتظار وكأنهما على ميعاد.

وأنثى ثعابين الماء تغطس إلى أعماق الماء حيث تضع بيضها ثم تموت ولما يفقس البيض، يتجه الثعبان الوليد إلى الشاطئ.

وضع العلماء جهازاً يرصد نوم الطيور المهاجرة فوجدوا أنها تتناوب النوم لمدة خمسة عشرة دقيقة، تكون كافية لتجديد نشاطها وتسير وهي نائمة بصوت رفيقاتها اليقظات الطائرات.

٩٣- التمثيل الضوئي:

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ [الأنعام:٩٩].

أثبت علم النبات الحديث أن الخضر أو الخضرة أو الكلوروفيل، تشكل مادة ينمو بها النبات ويخرج الثمر فيمتص الضوء بواسطة النبات ويحوله إلى سكر وهو ما يعرف بظاهرة التمثيل الضوئي.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس:٨٠] وتشير الآية إلى حقيقة علمية تعرف بالتمثيل الضوئي، ففي كل وريقة شجر خلايا تمتص الضوء فتحول الماء وثاني أكسيد الكربون إلى مادة خضراء هي الكلوروفيل، فإذا جفت وأشعلت انطلقت الطاقة الكامنة فيها، أما إذا امتص أو أكل الحيوان وريقة الشجر ساعدت الطاقة الكامنة في وريقة الشجر على نمو خلايا الحيوان.

٩٤- بيت العنكبوت:

قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ ﴾ [العنكبوت:٤١].

والآية تؤكد ما وصلت إليه حقائق العلم في أن الكائنات الحية التي تغزل البيت هي أنثى العنكبوت ولهذا يقول سبحانه ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ ويحار الباحث في روعة البناء الهندسي لهذه الحشرة العنكبوت التي توجد في مقدمة جسمها ما يسمى بالغازلات تفرز سائلاً كيماوياً ما أن يلامس الهواء حتى يصبح نسيجاً من حرير. ومن عجب أنها تتخذ أيضاً فضلات من حرير وتقضي دراسة هذه الحشرة في علم الحيوان إلى الاطلاع على مزيد من أسرار صنع الخالق.

٩٥- الزوج الثنائي:

قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان:١٠] هذه الاثنينية تشير إلى ما يعرفه علماء البيولوجيا من أن الزهر في النبات يحمل حبوب اللقاح تذكيراً وتأنيثاً وأنه يقوم بالتلقيح الذاتي بواسطة الريح التي تحمل حبوب اللقاح إلى زهور أخرى.

٩٦- الأنعام:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾ [النحل:٦٦] أما المنافع الدنيوية العملية الظاهرة بأن الأنعام هي: البقر، والإبل والغنم والماعز تأكل لحومها وتشرب لبنها وتسقي الأرض وتحرث الزرع ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها مسكن ولباس إلى جانب أنها تنقلنا من بلد إلى آخر كما يستخلص من كبدها فيتامينات مختلفة (A,B,C) لتعالج نقصاً أو مرضاً عضوياً، إلى جانب أن أمعاء الماعز خيوط متينة للعمليات الجراحية، والإشارة هنا مجملة والتفصيل والتخصيص يتعلمه دارسي الطب والصيدلة.

٩٧- مجتمع الطير والحيوان:

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام:٣٨].

وتشير إلى حقائق علم الأحياء التي اكتشفت في عصرنا الحاضر، وهي أن لمجتمع الطير والحيوان معايير وأساليب ونظم حياة، فأنثى البط المعروف بالشهرمان تعرض نفسها للعدو دفاعاً عن صغارها وتتبنى الصغار أنثى غيرها، وهكذا، وهناك نوع من الطيور في غانا تبنى في الربيع بيوتها من أوراق الشجر وتزين داخله وخارجه بالزهور وكلما ذبلت بدلتها بغيرها.

وللطيور لغات فطائر النورس يطلق صفيراً للتنبيه أو الإنذار فتتجمع طيور النورس عند مكان الإنذار ثم تنطلق في تتابع طائرة بعيداً، والزرزور يسير خلف قائده في الجو وفي نظام بديع لا يتخلف فيه أحد عن الصف، وهناك فئران الحقول تدخر غذاءها بقطع جذور النبات الحاملة للبذور وتحملها للادخار في أحجارها.

٩٨- البدء والإعادة:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج:١٣].

تشير الآية إلى دورة الحياة فمياه البحار والمحيطات ملوحتها لا تصلح للإنسان والحيوان، فقضت حكمة الله أن تتبخر يومياً ملايين الأطنان من قطرات الماء لتتكاثف سحباً ثم تبرد وتسقط ماء تتغذى به الأرض والنبات والحيوان والإنسان، وكذلك للإنسان دورة للماء في جسمه فهو يلزمه يومياً لترين من الماء يأخذ منهما ما يحتاجه ويخرج الباقي على شكل عرق وبول، وكذلك ثاني أكسيد الكربون الذي يخرجه الإنسان مع تنفسه في الهواء ليتحد في النبات ليتحول إلى سكر يتغذى به النبات ويعود النبات للإنسان بالأكسجين، وهكذا قانون البدء والإعادة له عديد من المظاهر في الكون.

٩٩- الدخان:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت:١١].

وإلى عصرنا الحاضر كان علماء الفلك والكون حيارى في أصل مادة الكون حتى اهتدوا إلى أنه الدخان، وهي مادة سديمية مظلمة، ولم يعبر سبحانه بقوله (هباء) لأن الهباء ذرات صلبة، ولا (بخاراً) لأنه جسم متميع سائل، ولا (هواء) لأنه جسم غازي، فالدخان إذن هو مادة الكون الأولى التي تحدث العناصر الثلاثة.

١٠٠- طبقات الأرض:

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ [الرعد:٤].

تشير الآية إلى حقيقة علم طبقات الأرض فيقول متخصص في علم الطبقات، إن قطعة الأرض الواحدة تتكون من قطع بعضها جيري وبعضها رملي أو طيني أو ملحي مختلف الخصائص، وإن بدا للعين قطعة واحدة، بل وثمة حقيقة أخرى أن فاكهة من فصيلة واحدة كالليمون والبرتقال تمتص شعيرات جذوره الماء والغذاء من التربة ويحوله إلى ما يسمى بالتمثيل وهكذا، فالنبات مختلف الأنواع والخصائص والشكل والمذاق والرائحة والطعم وأن تجاوزت زراعتها.

إشارات علمية في الآيات القرآنية:

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم:٤٨] إشارة إلى البرق.

وقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر:٢٢] إشارة إلى تلقيح الرياح واختزان الماء المتجدد في باطن الأرض.

وقال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢] إشارة إلى البراكين والمواد الثقيلة والمعادن والبترول وغيرها.

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ ﴾ [إبراهيم:٣٣] إشارة إلى الطاقة الشمسية والمد والجزر.

وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ ﴾ [فاطر:٤١] إشارة إلى الجاذبية المكتشفة.

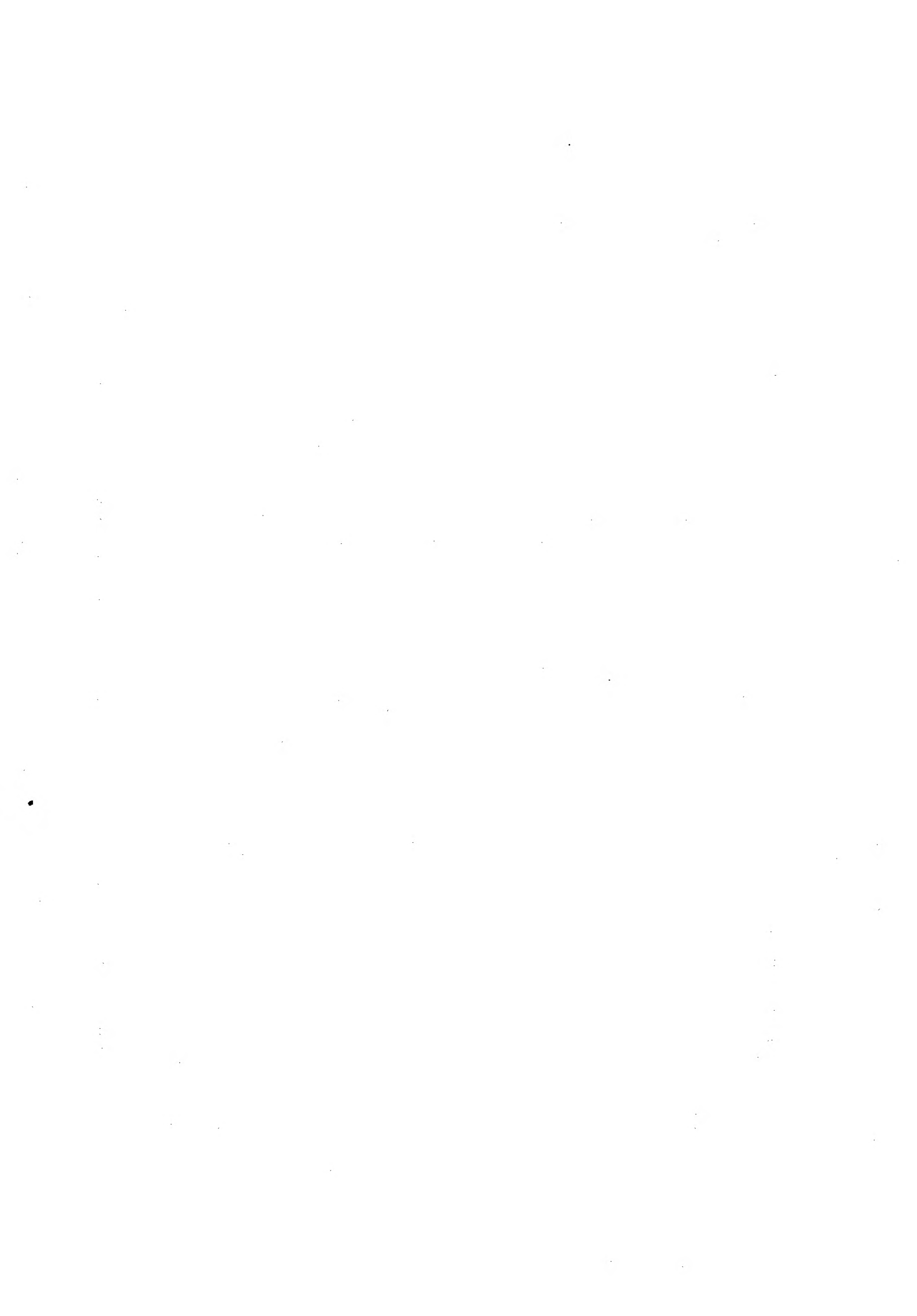
وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان:٤٥] إشارة إلى دوران الأرض وجريان الشمس وامتداد الظل.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل:٨٢] إشارة إلى العقل الإلكتروني وتطوره.



الباب الثاني

الإعجاز البلاغي في القرآن



علم المعاني

مفهومه:

إن أصل علم المعاني نظرية النظم التي وضعها عبدالقاهر الجرجاني، التي مفادها يقوم على تعليق الكلام بعضه على بعض. ويقول: إنه توخي معاني النحو.

ونظرية النظم لا بد لها من أمرين اثنين:

أ- المعنى: الذي نريد التحدث عنه.

ب- اللفظ الذي به نعبر عن هذا المعنى.

فإذا اختلف المعنى الذي نريد التعبير عنه، فلا بد أن يختلف اللفظ حتى وإن كانت مادته واحدة.

فإذن هناك: الصورة، والمعنى الذي نعبر عنه بهذه الصورة، مثال ذلك. خذ الجمل التالية: أتقرأ كتاب (الحيوان) للجاحظ؟ - لا ضجة في الغرفة المجاورة.

في هذه الأمثلة حينما يختلف المعنى تختلف الصورة لهذه الأمثلة، مع أن مادتها اللغوية واحدة. انظر عندما يتغير المعنى حين يرى راءٍ بأن كتاب «الحيوان» ليس حرياً بأن يُقرأ فيعبر عن هذا المعنى – وهو ينكر على قرائه – بقوله: أكتاب «الحيوان» للجاحظ تقرأ؟

وقد تؤلمني هذه الضجة التي أجدها في الغرفة التي أجلس فيها، والغرفة المجارة خالية من الضجيج، وعندما أعبر عن هذا المعنى أقول: لا في الغرفة المجاورة ضجة. هاتان الجملتان، مادة الكلام فيها واحدة لم تتغير، إنما الذي تغير هو

الصورة. صورة هذا الكلام فالجملة الأولى: أتقرأ كتاب «الحيوان» للجاحظ؟ صارت هكذا: أكتاب «الحيوان» للجاحظ تقرأ؟ والجملة الثانية: لا ضجة في الغرفة المجاورة. أصبحت: لا في الغرفة المجاورة ضجة. ولكن لماذا هذا التغير؟ السبب، المعنى، لقد تغير المعنى فتغيرت الصورة.

إذن ترتيب الألفاظ في النطق إنما هو ناشئ عن ترتيب المعاني في النفس، وهذا هو النظم.

ومن هنا ندرك السر في قوله تبارك وتعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢] وفي قوله تعالى يصف خمر الجنة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات:٤٧] ندرك السر الذي من أجله قدمت كلمة ريب على الجار والمجرور (فيه)، وأخرت كلمة (غول) عن الجار والمجرور (فيها) ذلك لأن قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، إنما هو نفي للريب عن القرآن دون التعرض لغيره من الكتب، وأما قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾؛ ففيه قصد لوصف خمر الدنيا وما فيها من الشرور والآثام.

وعلم المعاني في الحقيقة، إنما هو تطبيق عملي لنظرية النظم لعبدالقاهر الجرجاني.

فعلم المعاني: هو العلم الذي نؤدي به الكلام حتى يكون مطابقاً لمقتضى الحال من تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وفصل ووصل، وتعريف وتنكير، وقصر وإيجاز وإطناب.

والتعبير القرآني: هو تعبير فريد في علوه وسموه وأنه أعلى كلام وأرفعه، وأنه بهر العرب فلم يستطيعوا مداناته والإتيان بمثله مع أنه تحداهم أكثر من مرة.

ومن الثابت أن القرآن كان يأخذ العرب بروعته وبروعة بيانه ودقته، وأنهم لا يملكون أنفسهم عند سماعه لذلك سعوا إلى أن يحولوا بين القرآن وأسماع الناس، سعوا إلى أن لا يصل إلى الآذان لأنهم يعلمون أن مجرد وصوله إلى السمع يُحدث في النفس دوياً هائلاً وهزة عنيفة. واسمع قول الوليد بن المغيرة حين اجتمع إليه نفر من قريش ليجمعوا على رأي واحد يصدرون عنه يقولونه للناس. فقال بعضهم: شاعر وقال بعضهم: كاهن. وقال بعضهم: ساحر، فقال الوليد: «والله إن لقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه».

إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود، كل لفظة بل كل حرف فيه وضع وضعاً فنياً مقصوداً، ولم تراعِ في هذه الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل روعي في هذا الوضع التعبير القرآن كله.

لقد انتبه القدماء على أن السورة التي بدأت بالحروف المفردة (المقطّعة) بنيت على ذلك الحرف، فإن الكلمات القافية ترددت في سورة (ق) كثيراً، والكلمات الصادية ترددت في سورة (ص) كثيراً.

جاء في (ملاك التأويل) عن سبب بدء سورة لقمان بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ وسورة يوسف بـ ﴿ الٓر ﴾: أنه تكرر في سورة يونس من الكلام الواقع فيها الراء مائتا كلمة وعشرون، وأقرب السور إليها مما يليها بعدها من غير المفتتحة بالحروف المقطَّعة سورة النحل وهي أطول منها.

وليس هذا كل شيء في الإحصاء بل هناك شيء آخر وربما أشياء. لقد تبين أنه لم توضع الألفاظ عبثاً ولا من غير حساب، بل هي موضوعة وضعاً دقيقاً بحساب دقيق لقد تبين أن الألفاظ التالية تكررت بأعداد كما يلي:

اللفظة	العدد	اللفظة	العدد	اللفظة	العدد
الدنيا	١١٥ مرة	إيماناً	٨ مرات	الشهر	١٢ مرة
الآخرة	١١٥ مرة	كفراً	٨ مرات	اليوم	٣٦٥ مرة
الملائكة	٨٨ مرة	الكفر	١٧ مرة	الأيام	٣٠ مرة
الشياطين	٨٨ مرة	الإيمان	١٧ مرة	العيون	١٠ مرات
الموت	١٤٥ مرة	إبليس	١١ مرة		
الحياة	١٤٥ مرة	الاستعاذة	١١ مرة		
الصيف	٥ مرات	الكافرين	العدد نفسه		
الشتاء	٥ مرات	النار	العدد نفسه		
السيئات	١٦٧ مرة	قالوا	٣٣٢ مرة		
الصالحات	١٦٧ مرة	قل	٣٣٢ مرة		

إن لفظ (الشهر) تكررت ١٢ مرة بعدد شهور السنة، ولفظ (اليوم) تكررت ٣٦٥ بعدد أيام السنة. ولفظة (الأيام) تكررت ٣٠ مرة بعدد أيام الشهر [(١)].

إن القرآن الكريم له خصوصيات في استعمال الألفاظ، فقد اختص كثيراً في الألفاظ باستعمالات خاصة بما يدل على القصد الواضح في التعبير فمن ذلك:

استعمل (الرياح) حيث وردت في القرآن الكريم في الخير والرحمة، واستعمل (الريح) في الشر والعقوبات.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦٓ ﴾ [الأعراف:٥٧].

---

(١) الإعجاز العددي للقرآن الكريم، ج١، ص١٥، ٢١، ٥٨، ٧٠، ١٨٠.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [الروم:٤٦].

وقال تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف:٢٤].

وقال تعالى: ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٦].

ولم يستعمل (الريح) في الخير إلا في موطن واحد أعقبها بالشر وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [يونس:٢٢].

وكذلك كلمة (المطر) فإنك لا تجد القرآن يلفظ بها إلا في موضع الانتقام بخلاف كلمة (الغيث) الذي يذكره القرآن في الخير.

قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل:٥٨].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الشورى:٢٨].

كذلك كلمة (العيون) استخدمها لعين الماء بينما كلمة (الأعين) فهي جمع العين الباصرة ومثال ذلك:

قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر:٤٥] وقوله: ﴿فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات:٤١]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى ﴾ [الكهف:١٠١].

وكذلك كلمة (وصى) و(أوصى) فكل ما ورد فيه من (وصّى) بالتشديد فهو في الدين والأمور المعنوية وكل ما ورد من (أوصى) فهو في الأمور المادية.

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم:٣١].

وإذا نظرت إلى ضرب من ضروب التعبير القرآني وجدته وحدة متكاملة ليست فيها نبو ولا اختلاف.

وسندرس سويةً الإعجاز القرآني في جوانبه الأسلوبية والتعبيرية ضمن علم المعاني، علّنا نفتح أقفال القلوب ونوقد مصابيح النور لتحيا النفوس مع عبرات الذكر الحكيم.

الفصل الأول

التقديم والتأخير

تحدثنا عن نظرية النظم لعبدالقاهر الجرجاني وقلنا: إنه ترتيب الألفاظ في النّطق تبعاً لترتيب المعاني في النفس، ومن هنا فقد يكون الكلام واحداً في مادته وحروفه، ولكن تختلف صيغته وترتيب كلماته من متكلم لآخر، بل عند المتكلم الواحد، إذا اختلف المعنى في نفسه.

لهذا جاء في التنزيل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، كما جاء فيه كذلك ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ [الجاثية:٣٦] وجاء أيضاً ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] وجاء كذلك ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ [الروم:٤].

واستمع إلى هاتين الآيتين: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] ولم يقل: يحيي ربي ويميت ربي، والفرق كبير. فقوله: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ يفيد أنه لا محيي ولا مميت إلا الله، ولو قيل: يحيي ويميت ربي، لكان المعنى: إن الله قادر على الإحياء والإماتة، ولا مانع أن يقدر عليهما غيره، ولهذا قال ذلكم المجادل: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: أنا لا غيري، لأن النزاع ليس على قدرة الله على الإحياء والإماتة بل في تفرّد الله تبارك وتعالى بهما.

ويمكننا تقسيم أحوال التقديم والتأخير على قسمين:

١- تقديم اللفظ على عامله:

كتقديم المفعول على الفعل، والخبر على المبتدأ والحال على فعله وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما وهذا التقديم يفيد الاختصاص ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] فقد قدم المفعول به إياك على فعل العبادة وعلى فعل الاستعانة وسبب ذلك أن العبادة والاستعانة مختصان بالله وحده، فلا يعبد أحد غيره، ولا يستعان إلا به.

ومثل التقديم على فعل الاستعانة قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨] فقدم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص، وذلك لأن التوكل لا يكون إلا على الله والإنابة ليست إلا إليه وحده، ونحو قوله تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩] فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ (مفاتح الغيب) وذلك لاختصاصه سبحانه وتعالى بعلم الغيب، ألا ترى كيف أكد ذلك الاختصاص بأسلوب آخر وهو أسلوب القصر فقال: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾؟ .

وقد يكون هذا النوع لغرض آخر كالمدح والثناء والتعظيم والتحقير وغير ذلك من الأغراض، إلا أنها تفيد الاختصاص، ومن التقديم الذي يفيد الاختصاص قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:٨٤] فهذا ليس من باب التخصيص إذ ليس معناه أننا ما هدينا إلا نوحاً وإنما هو من باب المدح والثناء.

٢- تقديم اللفظ وتأخيره على غير العامل:

إن تقديم الألفاظ بعضها على بعض له أسباب عديدة يقتضيها المقام وسياق القول، وإن التقديم يكون للعناية والاهتمام، فما كانت به عنايتك أكبر قدمته في

الكلام، والعناية باللفظة لا تكون من حيث إنها لفظة معينة بل قد تكون العناية بحسب مقتضى الحال. فنرى القرآن يقدّم السماء على الأرض مرة ويقدّم الأرض على السماء مرة كل ذلك بحسب ما يقتضيه من القول وسياق التعبير.

١- إن القرآن الكريم يقدّم الألفاظ حسبما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام مؤرخاً بحسب القدم والأولية في الوجود، فيرتب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه. وهكذا مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] فخلق الجن قبل خلق الإنس. ونحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] لأن السِّنة وهي النعاس تسبق النوم.

٢- وكذلك تقديم السمع على البصر قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] وتقديم الصم وهم فاقدو السمع على العميان وهم فاقدو البصر. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣] والدليل على ذلك أن الله لم يبعث نبياً أصم ولكن قد يكون النبي أعمى كيعقوب عليه السلام فإنه عمي لفقد ولده.

ولتقديم السمع على البصر أسباب:

١- إن السمع بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر.

٢- فاقد البصر يستطيع الفهم بعكس فاقد السمع.

٣- الأعمى يبلّغ الرسالة والأصم لا يعيها.

٤- مدى السمع أقل من مدى الرؤية.

٥- السمع يدل على القرب لأن الذي يسمعك يكون قريباً بخلاف الذي يراك فإنه قد يكون بعيداً.

٣- ومن التقديم ، التقديم بحسب الرتبة قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم:١٠-١٢] تبدأ بالهماز (العيَّاب) الذي يعيب الناس وهذا لا يفتقر إلى مشي ولا حركة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهي المشي بالنميمة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو أنه يمنع الخير عن الآخرين، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد مما قبلها وهو الاعتداء، ثم ختمها بـ (أثيم) وهو وصف جامع لأنواع الشرور.

٤- ومن التقديم بحسب الكثرة والقلة، فقد يرتب المذكورات متدرجات من القلة إلى الكثرة حسبما يقتضيه المقام وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥] فكل طائفة أقل من التي بعدها فتدّرج من القلة إلى الكثرة، فالطائفون أقل من العاكفين لأن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة، والعكوف يكون في المساجد، والعاكفون أقل من الراكعين لأن الركوع أي: الصلاة تكون في كل أرض طاهرة، أما العكوف فلا يكون إلا في المساجد، والراكعون أقل من الساجدين، ذلك لأن لكل ركعة سجدتين ثم إن كل راكع لا بد أن يسجد وقد يكون سجود ليس له ركوع، كسجود التلاوة، وسجود الشكر فهنا تدرّج من القلة إلى الكثرة.

٥- ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة:٣٨] قدّم السارق على السارقة لأن السرقة في الذكور أكثر، وقدم الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢] لأن الزنى في الإناث أكثر[1].

---

(١) الإتقان، ٢/ ١٥.

ألا ترى أن قسماً من النساء يحترفن هذه الفعلة الفاحشة؟ وجاء في حاشية ابن المنير على الكشاف قوله: «وقدم الزانية على الزاني والسبب فيه، الكلام الأول في حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع[1]. ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليهما».

٦- ومن ذلك تقديم لفظ (الضر) على (النفع) بحسب ما يقتضيه السياق.

١- تقديم النفع على الضر بتقدّم ما يتضمن النفع. قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف:١٨٨] فقدّم النفع على الضرر وذلك لأنه تقدم لفظ تضمن معنى نفع، حيث تقدم لفظ الهداية على الضلال في قوله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ [الأعراف:١٧٨].

٢- تقديم الضر على النفع بتقدّم ما يتضمن الضر. قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [يونس:٤٩] فقدّم الضر على النفع لأنه أنسب بالغرض، لأنهم أظهروا استبطاء ما فيه مضرتهم وهو الوعيد، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٦-٤٨].

٧- ومن ذلك تقديم الرحمة والعذاب. فقد قيل: إنه حيث ذكر الرحمة والعذاب بدأ بذكر الرحمة. قال تعالى: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة:١٨]

---

(١) حاشية ابن المنير، ٢/ ٣٧٣-٣٧٤.

وقوله: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِ ﴾ [غافر: ٣]. وعلى هذا جاء قول النبي ﷺ حكاية عن الله تعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي».

وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع اقتضت الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب ترهيباً وزجراً ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴾ [العنكبوت:٢١]. إن السياق في سورة العنكبوت يقتضي تقديم العذاب على الرحمة.

٨- وقد يكون التقديم والتأخير على نمط آخر غير الذي ذكرناه من تقديم الضر على النفع أو العذاب على المغفرة وغيرهما من الخطوة العامة، فقد يقدّم لفظة في مكان ويؤخرها في مكان آخر حسبما يقتضيه السياق. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [الأنبياء:٣١] وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [نوح:١٩-٢٠] فقدم الفجاج على السبل في الآية الأولى. وأخرها عنها في آية نوح وذلك أن الفج في الأصل هو الطريق في الجبل أو بين الجبلين، فلما تقدّم في آية الأنبياء ذكر الرواسي وهي الجبال، قدم الفجاج لذلك، بخلاف آية سورة نوح فإنه لم يرد فيها ذكر للجبال فأخرها.

٩- تقديم القتل على الموت مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٌ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [آل عمران:١٥٧-١٥٨] فقدّم القتل على الموت في الآية الأولى وقدّم الموت على القتل في الآية التي تليها وسبب ذلك أنه لما ذكر في الآية الأولى ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهو الجهاد قدّم القتل إذ هو المناسب لأن الجهاد مظنة القتل، ثم هو الأفضل أيضاً، ولذا ختمها بقوله: ﴿لَمَغۡفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ ﴾ وهذا جزاء الشهيد ومن مات في سبيل الله.

ولما لم يقل في الثانية: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قدّم الموت على القتل لأنه الحالة الطبيعية في غير الجهاد، ثم ختمها بقوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ إذ الميت والمقتول كلاهما ليحشره الله إليه. شتان بين الخاتمتين.

١٠- قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة:٢٧] قدّم الأنعام على الناس، وقوله: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس:٣١-٣٢] فقدّم الناس على الأنعام، وذلك أنه لما تقدم ذكر الزرع في آية السجدة ناسب التقديم الأنعام بخلاف آية عبس، ألا ترى كيف ذكر طعام الإنسان من الحب والفواكه أولاً ثم ذكر طعام الأنعام بعده وهو الأب (التبن) فناسب تقديم الإنسان في قوله: (لكم) على الأنعام.

١١- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] وقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء:٣١] فتقدّم رزق الآباء في الآية الأولى على الأبناء، وفي الآية الثانية قدّم رزق الأبناء على الآباء، وذلك أن الكلام في الآية الأولى موجه إلى الفقراء دون الأغنياء فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم لأنهم يخشونه، فأوجبت البلاغة تقديم عِدتهم بالرزق تكميل العِدة برزق الأولاد. وفي الآية الثانية الخطاب لغير الفقراء وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر لا أنهم فقراء الحال، وذلك أنهم يخافون أن تسلبهم كلّف الأولاد ما بأيديهم من الغنى، فوجب تقديم الوعد برزق الأولاد فيأمنوا ما خافوا من الفقر فقال: (لا تقتلوهم فإنا نرزقهم وإياكم) أي إن الله جعل معهم رزقهم فهم لا يشاركونكم في رزقكم فلا تخشوا الفقر.

١٢- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ ﴾ [البقرة:٧] وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً ﴾ [الجاثية:٢٣].

فقدم القلوب على السمع في سورة البقرة، وقدم السمع على القلب في سورة الجاثية، ذلك لأنه في سورة البقرة ذكر القلوب المريضة فقال: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ ﴾ [البقرة:١٠] فقدم القلوب لذلك. في الجاثية ذكر الأسماع المعطلة فقال: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ ﴾ [الجاثية:٧-٨] فقدّم السمع، فوضع كل لفظة في المكان الذي يناسبها. ثم إن سورة البقرة ذكرت من أصناف الكافرين من هم أشد ضلالاً وكفراً ممن ذكرتهم آية الجاثية، فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة:٦-٧].

وجاء في سورة الجاثية قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣] فقد ذكر في سورة البقرة أن الإنذار وعدمه عليهم سواء وأنهم ميئوس من إيمانهم، ولم يقل في الجاثية ذلك، ثم كرر حرف الجر (على) في القلوب والأسماع في آية البقرة ما يفيد التوكيد على الختم، ولم يقل ذلك في الجاثية بل انتظم الأسماع والقلوب بحرف جر واحد.

ثم قال في سورة البقرة: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ ﴾ بالجملة الاسمية وهي تفيد الدوام والثبات، ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يسبق لهم أن أصروا وإنما هذا شأنهم فلا أمل في أبصارهم في يوم من الأيام.

في حين قال في سورة الجاثية: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث، ومعلوم أن الفعل (جعل) فعل ماضي، ومعنى ذلك: أن الغشاوة لم تكن قبل الجعل، يدلك على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣] مما يدل على أنه كان مبصراً قبل تردية. ثم ختم آية البقرة بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولم يقل مثل ذلك في سورة الجاثية، فدل على أن صفات الكفر في سورة البقرة أشد تمكناً فيهم.

ولذا قد ختم القلب على ما سواه لأنه هو الأهم، فإن القلب محل الهدى والضلال، وإذا ختم عليه فلا ينفع سمع ولا بصر، فكان تقديم القلب في سورة البقرة أولى وانسب، كما أن تقديم السمع في الجاثية أنسب.

١٣- ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل:٦٨] وقوله: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٨٣].

فقدّم (هذا) في الآية الأولى وأخّرها في الآية الثانية، ذلك أن ما قبل الأولى ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل:٦٧] وما قبل الثانية ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون:٨٢] فالجهة المنظور فيها هناك كونهم أنفسهم وآباؤهم تراباً، والجهة المنظور فيها هنا كونهم تراباً وعظاماً، ولا شبهة أن الأولى أدخل عندهم في تبعيد البعث، ذلك أن البلى في الحالة الأولى أكثر وأشد وذلك أنهم أصبحوا تراباً مع آبائهم، وأما الثانية فالبلى أقل وذلك أنهم تراب وعظام فلم يصبيهم ما أصاب الأولين من البلى، ولذا قدّم (هذا) في الآية الأولى لأنه أدعى إلى العجب والتبعيد.

١٤- ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل:١٤] وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر:١٢].

قدّم (مواخر) على الجار والمجرور في سورة النمل وقدّم (فيه) على مواخر في سورة (فاطر) وذلك أنه تقدّم الكلام في سورة النمل على وسائط النقل، فذكر الأنعام وإنها تحمل الأثقال، وذكر الخيل والبغال والحمير لتركبها زينة، ثم ذكر الفلك وهي واسطة نقل، فقدم المواخر لأنها من صفات الفلك وهذا التقديم مناسب في سياق وسائط النقل، أما في سورة فاطر فالكلام على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم. فلما كان الكلام على البحر قدم ضمير البحر على (المواخر) فانظر كيف أنه لما كان الكلام على وسائط النقل والفلك قدّم حالة الفلك ولما كان الكلام عن البحر ذكر ما يتعلق به.

١٥- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء:٨٩] وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف:٥٤] قدّم (للناس) على (في هذا القرآن) في سورة الإسراء وأخّرها في سورة الكهف، وذلك لأنه تقدّم الكلام في (الإسراء) على الإنسان ونعم الله عليه ورحمته به، فناسب ذلك تقديم الناس في سورة الإسراء. ولم يتقدم مثل ذلك في سورة الكهف.

ولو نظرنا إلى افتتاح السورتين فقد بدأ سورة الكهف بالكلام على الكتاب (القرآن) ثم ذكر أصحاب الكهف وذكر النبي موسى والرجل الصالح وذكر ذا القرنين وغيرهم من الناس. إذاً سورة الكهف بدأت بذكر القرآن ثم ذكر الناس فكان من المناسب أن يتقدّم ذكر القرآن على الناس وأما سورة الإسراء فقد بدأت الكلام على الناس ثم القرآن فكان من المناسب أن يتقدم ذكر الناس فيها على ذكر القرآن.

انظر إلى خاتمة الآيتين في سورة الإسراء ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء:٨٩] الكفور هو الجاحد، فناسب ذلك تقدّم ذكر النعمة والرحمة والفضل فقابل الشكر بالكفر.

أما سورة الكهف فقد ختمها بقوله ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤] لما ذكر قبلها وبعدها من المحاورات والجدل والمراء، ولم يرد لفظ الجدل ولا المحاورة في سورة الإسراء كلها.

١٦- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٧٢] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة:٢٠] فقدّم الأموال والأنفس على (في سبيل الله) في سورة الأنفال، وقدّم (في سبيل الله) على الأموال والأنفس في سورة التوبة، وذلك لأنه في سورة الأنفال تقدّم ذكر المال والفداء والغنيمة من مثل قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال:٦٧] وهو المال الذي فدى الأسرى به أنفسهم، وقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٨] أي: من الفداء. وقدم المال هنا لأن المال كان مطلوباً حتى عاتبهم الله في ذلك فطلب أن يبدؤوا بالتضحية به. وأما في سورة التوبة تقدّم ذكر الجهاد على الأموال والأنفس، وهو المناسب للجهاد، كما قدّم الأموال والأنفس هناك لأنه مناسب للأموال.

الفصل الثاني

الحـذف والذكـر

من مباحث الجملة التي عني بها علماء البلاغة الحذف، فمن الخصائص الأولى للعربية الإيجاز، وما دام الأمر كذلك، فإن كل كلمة أو جملة يمكن أن يفهم المعنى بدونها، لوجود قرائن تدل على الحذف حري بها أن تُحذف. فإن الحذف أمر لا مناص منه، فما بالك إذا كان الحذف مزية أخرى يزدان بها الكلام حسناً، ويجمل رونقاً، فذلك مما يؤكد الحذف.

مميزات الحذف:

١- كمال المعنى مع المحذوف من جهة.

٢- حكم بيانية وأغراض بلاغية تفهم من هذا الحذف من جهة أخرى.

الحذف هو الذي اقتصر عليه المتقدّمون، فذكروا أغراضه ومسوغاتها وميزاته.

والذكر: فلم يعرض له إلا المتأخرون من علماء البلاغة، ذلك لأن الذكر هو الأصل.

أولاً: الحذف:

نحن نحذف ما نحذف حينما نجد المحذوف لا يزيدنا شيئاً من حيث المعنى بل نجد فيه خفة، واختصاراً من حيث اللفظ، وفائدة ذات أثر بياني من حيث المعنى.

انظر كيف ذكر المسند في الآية الأولى كقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس:٧٨-٧٩] وقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء:٤٩-٥١].

لقد ذكر المسند في الآية الأولى ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ ﴾ وحذفه في الآية الثانية ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ ﴾ فلم يقل: يعيدكم أو يحييكم، وأنعم ثم أنعم على هذا النظم وتذوّق مواطن الإعجاز.

أنواع الحذف:

أولاً: حذف المسند إليه: المسند إليه ركن في الجملة بل هو أهم ركنيها، لذلك كان وجوده محتماً في الجملة، إنما يحذف إذا دلت قرينة على حذفه، ولولا القرينة لكان الحذف نقصاً وعيباً، ولا بد مع القرينة من محسنات ترجح الحذف على الذكر، وأهم هذه المحسنات والدواعي:

١- أن يكون مقام مدح أو ترحم أو ذم: كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود:١] وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١] فما وصف به الكتاب في الآيتين من أوصاف الخير يغني عن ذكر المسند إليه.

وقد يتفننون في القول، فيقطعون الصفة عن الموصوف، والصفة تتبع الموصوف في الإعراب، فإذا كان الموصوف منصوباً أو مجروراً ينبغي أن تأتي الصفة كذلك، لكننا أحياناً نجدهم يرفعونها تلويناً للكلام أو جلباً للسامع أو إمعاناً في المدح أو

الذم أو الترحّم. ومثال ذلك: (رحم الله صلاح الدين الذي توفي ولم يترك ثمناً لكفنه)، القائدُ (بالرفع)، أي: هو القائدُ.

٢- **عدم الفائدة من ذكر المسند إليه**: ويكثر في الأحوال التالية:

أ- إذا وقع المسند إليه في جواب استفهام كقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴾ [الهمزة:٤-٦] أي: الحطمة نار الله.

ب- إذا وقع بعد الفاء المقترنة بجواب الشرط، كقوله تعالى: ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ ﴾ [فصلت:٤٦] أي: فعمله لنفسه، وإساءته عليها.

ج- إذا وقع بعد القول وما اشتق منه، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان:٥] أي: قالوا: القرآن أساطير الأولين.

٣- **المبادرة**: من محسنات حذف المسند إليه ومرجحاته المبادرة، حتى لا تضيع الفرصة. من يرى حريقاً، فإنه يبادر، ويقول: حريق. كذلك الذين يترقبون رؤية الهلال للصوم أو الفطر، يقول الذي يراه: الهلال. أي هذا هو الهلال.

٤- **اتباع الاستعمال**: إن المثل عند العرب لا ينبغي تغيره بل ينطق به كما ورد عنهم. مثل (رمية من غير رامٍ) يضرب لمن يصل إلى الغرض بدون قصد منه إذ ليس من عادته ذلك، فالمسند إليه محذوف، أي: هذه الرمية.

٥- **سهولة الإنكار إذا دعت الحاجة**: إذا تحدث قوم عن شخص ما، يقول أحدهم: بخيل، دون اسمه، كأنه لا يريد أن يقع في مأزق هو في غنى عنه.

وكقوله تعالى: ﴿ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف:٣٥] أي: هذا بلاغ.

إذا كان المسند إليه (فاعلاً)، فهناك محسنات كثيرة لحذفه فمنها:

أ- ما يتصل باللفظ: المحافظة على السجع، كقولهم: من طابت سريرته حمدت سيرته.

ب- ما يتصل بالمعنى وهي كثيرة، مثل:

١- الإيجاز والاختصار، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل:١٢٦] فقد حذف الفاعل هنا، ولم يقل بما عاقبكم الناس به.

٢- أن يكون معلوماً للسامع، كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧] فإن الخالق تبارك وتعالى لا يماري فيه عاقل.

٣- قد يحذف للخوف منه: كقول المستضعفين: بيعت البلاد، ومرغت الجباة.

٤- وقد يحذف للخوف عليه: كقولنا: رُوِّعَ العدو، ونيل منه، ودُكَّ أحد حصونه (البناء للمجهول).

٥- وقد يحذف لأنه لا يتحقق غرض من الأغراض بذكره. كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]. فليس هناك غرض يتحقق من ذكر الفاعل، فأي ذاكر أو تالٍ يتأثر به المؤمنون به؟

٦- ومما يكاد يطرد في حذف المسند إليه توجيه المخاطب لنفس الحدث. ونجد هذا في مشاهد يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧٣].

فالمسند إليه حُذف، ذلك لأن الذي يريده القرآن أن يوجه الناس إلى الأحداث الجسام العِظام، دون أن يشغلوا بمن فعل هذه الأفعال.

أسرار الإعجاز القرآني في الحذف:

١- قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء:٤] وقوله في خطاب أهل الجنة: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا﴾ [الطور:١٩] ذكرت كلمة مريئاً بالآية الأولى وحذفت في الثانية. ذلك أن كثيراً مما يستلذه ويهنأ به الإنسان لا تحسن عاقبته، بل تكون عاقبته وخيمة، ألا ترى أن كثيراً من الناس يأكلون أطعمة مفضلة لديهم، إلا أنهم يعانون بعد ذلك مما يكون لها من مضاعفات، ولذا ذكرت كلمة مريئاً، كأنه يقول لهم: كلوا ما لذّ لكم وطاب، وما حسنت عاقبته، وهذا الخطاب للمؤمنين في هذه الدنيا ولما كان الخطاب في الآية الثانية في الآخرة، فلا يمكن أن يستلذ الإنسان شيئاً وتسوء عاقبته، وجدنا أن كلمة مريئاً لم تُذكر.

٢- قول الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة:٨٨] وقوله: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٧٢] ولكنها تركت هنا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والآية تتحدث عن الرسول ﷺ والذين معه وأولئك لا يكون جهادهم إلا في سبيل الله، فلا داعي ولا غرض من ذكرها هنا في الآية الأولى.

٣- قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢] وانظر لقول الله تعالى كيف أثبت لليهود علماً أولاً ﴿عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ ونفى عنهم ثانياً في قوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ فهم لم يستفيدوا من العلم شيئاً، فكان حرياً أن ينفى عنهم! .

وانظر كيف حذف المفعول، فلم يقل: (لو كانوا يعلمون الشرع، أو الحق) إذ ليس هذا المقصود بل المقصود أن يقال: إنهم ليسوا من أهل العلم فكأن الفعل نزل منزلة اللازم، وقد يكون الهدف التعميم، أي: لا يعلمون أي شيء.

٤- قول الله تعالى: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٣-٤٦]. لقد قال: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ ولم يقل: (يخشاني) لعله يكون من أهل التذكرة والخشية، وقال: ﴿لَا تَخَافَآۖ ﴾ ولم يقل: لا تخافا فرعون، أي: لا ينبغي أن يكون منكما الخوف، وقال: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ولم يقل: (أسمع ما يقوله لكم، وأرى ما يفعل) لأن الله تبارك وتعالى لا يفوته شيء ولا يخفى عليه شيء، فهو من شأنه أن يسمع بكل شيء ويرى كل شيء.

٥- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ [الحجرات:١] حذف مفعول (تقدموا) للتعميم.

٦- قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ [الكهف:٩٧]. قال: ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ ﴾ أي: يصعدوا عليه. فحذف التاء فقال: ﴿ٱسۡطَٰعُوٓاْ ﴾ والأصل (استطاعوا) ثم قال: ﴿ٱسۡتَطَٰعُواْ ﴾ بإبقاء التاء. وذلك أنه لما كان صعود السد الذي هو سبيله من قطع الحديد والنحاس أيسر من نقبه وأخف عملاً، خفف الفعل للعمل الخفيف، فحذف التاء، فقال ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ ﴾ وطوّل الفعل، فجاء بأطول بناء له للعمل الثقيل الطويل، فقال: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴾.

٧- قول الله تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾

[آل عمران:٥٢] وقوله: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١١] فحذف النون من (أنا) في الآية الأولى وأثبتها في الثانية، فقيل: (أننا) وسبب ذلك والله أعلم أن الآية الثانية ورد فيها من التفصيل فيما يجب الإيمان به، وذلك قوله: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ فجاء على أتم عبارة في المطلوب وأوفاها، ناسب ذلك (أننا) على أوفى الحالتين. ولما لم يقع الإفصاح بهذا التفصيل في الآية الأولى من سورة (آل عمران) حين قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ فلم يقع هنا (برسوله) إيجازاً للعلم به، وشهادة السياق ناسب هذا الإيجاز، كما ناسب الإتمام في الآية الثانية الإتمام فقيل: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ وجاء كل على ما يجب. يضاف إلى ذلك أنه في سورة المائدة قال: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ أي أن الله هو الذي أوحى إليهم وثبتهم، فناسب ذلك زيادة النون تأكيداً لأن النون قد تأتي في مقام التأكيد.

٨- من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل:١٢٧] وقوله: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النمل:٧٠].

حذف نون (تكن) في آية النحل وأبقاها في آية النمل، ذلك أن السياق مختلف في السورتين فالأولى نزلت حين مثّل المشركون بالمسلمين يوم أحد، فقد أوصاه ربنا بالصبر ثم نهاه أن يكون ضيق من مكرهم فقال لرسوله: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي: لا يكن في صدرك ضيق مهما قلّ. فحذف النون من الفعل إشارة إلى ضرورة حذف الضيق من النفس أصلاً. وهذا تطييب مناسب لضخامة الأمر وبالغ الحزن، وتخفيف لأمر الحدث وتهوينه على المخاطب، فخفف الفعل بالحذف إشارة إلى تخفيف الأمر وتهوينه على النفس.

أما في الآية الثانية من سورة النمل، فهي سياق المحاجة في المعاد، وهو مما لا يحتاج إلى مثل هذا التصبّر.

وقد قيل بأن حذف النون من الفعل (تكن) يأتي لأمور عدة منها:

١- تسلية الرسول ﷺ لأن الحزن على الفعل كان كبيراً.

٢- تثبيتاً للرسول ﷺ.

٣- تنبيهاً على صغر مبدأ الشيء وحقارته ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ [القيامة:٣٧].

٩- قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف:١٩٥] وقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود:٥٥] فقد حذف الياء واجتزأ بالكسرة في الأعراف وإن لم تكن ياء المتكلّم من الحروف. فقال: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ وذكرها في سورة هود ﴿فَكِيدُونِي﴾ إن الاجتزاء بالكسرة عن الياء يختلف عن ذكر الياء، ففي كل مقام ذكر الياء فيه يكون المقام مقام إطالة وتفصيل في الكلام، بخلاف الاجتزاء بالكسرة فإن فيه اجتزاء في الكلام. إن المقام في سورة هود مقام تحدٍّ كبير ومواجهة، فأظهر نفسه زيادة في التحدّي، أو المتحدّي وطالب المواجهة لا بد أن يظهر نفسه وليس الأمر كذلك في سورة الأعراف فإنه ليس فيها هذا التحدّي، يدل على ذلك سياق كل من الآيتين. ففي سورة هود المقام دعوة النبي هود قومه إلى عبادة الله وحده وترك ما عداه، ونصح لهم بالتوبة والاستغفار ليرضى عنهم خالقهم ويزيدهم من فضله فرفضوا قوله وردوا عليه قائلين: ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:٥٣] فهم لم يكتفوا برد دعوته وعدم التصديق به بل قالوا له: إن بعض آلهتهم اعتراه بسوء مما جعله يتحداهم ويتحدى آلهتهم، فأشهد الله وأشهدهم على البراءة من آلهتهم، ثم دعاهم

جميعاً إلى كيدهم ثم لا يمهلونه إن استطاعوا، فزاد كلمة (جميعاً) زيادة في التحدّي رداً عليهم. فتم ذكر الياء زيادة في التحدّي.

ومن ناحية ثانية: إن التحدّي والمواجهة في سورة هود أطول وأكثر مما في سورة الأعراف فذكر الياء في سورة هود لأن الياء أطول من الكسرة، وحذف الضمير واجتزأ الكسرة في سورة الأعراف فناسب بين طول الكلمة والسياق، فجعل الكلمة الطويلة للسياق الطويل والكلمة المجتزأة للسياق المجتزأ، كما أنه ترد ياء الضمير في سورة هود في هذا الموطن مرات عديدة وليس الأمر كذلك في الأعراف ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾ و ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ﴾ و ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ و ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ و ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ و ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ ولم تظهر الياء في سورة الأعراف إلا مرة واحدة ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٩٦].

ثم انظر كيف قال في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فادخل (ثم) على الكيد و(الفاء) على الإنظار، وفي سورة هود بالعكس أدخل الفاء على الكيد و(ثم) على الإنظار، و(الفاء) تفيد التعقيب أما (ثم) فتفيد التراخي. فقد طلب منهم في سورة الأعراف عدم المهلة في الإنظار، وعدم الإنظار هو المناسب لسياق الأعراف، بخلاف سورة هود فإن سياقها في الإمهال في إيقاع العقوبات.

فقد بدأت الأعراف بذكر حلول العقوبات وهلاك الأمم، في حين ذكر في سورة هود تأخير العذاب إلى أجل وهو الإمهال.

وهكذا فأنت ترى أن سياق الأعراف هو عدم المهلة في الإنظار بخلاف السياق في سورة هود، ولذا كان الأليق أن يأتي بالفاء مع عدم الإنظار في الأعراف فيقول: ﴿فلا تنظرون﴾ وأن يأتي بـ (ثم) معه في سورة هود فيقول: ﴿ثم لا

تنظرون﴾ وهناك أمر فني آخر: وهو أنه حيث اجتمعت (ثم) و(الفاء) في الأعراف قدّم (ثم) على (الفاء)، وفي سورة هود العكس. فما أجمل هذا التناسق وما أجمل هذا الكلام.

١٠- قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف:٢٤] وقوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص:٢٢] فإنه حذف ياء الضمير واجتزأ بالكسرة في (الكهف) فقال: ﴿ يَهْدِيَنِ ﴾ وأبرز الضمير في القصص فقال: ﴿ يَهْدِيَنِي ﴾ وذلك أن المقام يستدعي إبراز ياء المتكلّم، لأنه مقام التجاء وخوف وخشية، والخوف يستدعي أن يلصق الإنسان بمن يحميه ويلقي بنفسه كلها عليه، ويستدعي أن يلتجئ إلى من ينصره، ويأخذ بيده بكل أحاسيسه ومشاعره التجاءً كاملاً. وهذا هو الموقف الأول. فقد خرج موسى خائفاً يترقب فاراً من بطش فرعون، فالتجأ إلى ربه التجاء الخائف الوجل طالباً منه أن يهديه سواء السبيل. ولذا أظهر الياء دلالة على كمال الالتجاء وإلقاء النفس كلها أمام خالقه بخلاف ما في الكهف فإنه ليس المقام كذلك فإنه قال: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف:٢٣-٢٤] فالفرق كبير بين المقامين، فمقام موسى في سورة القصص يستدعي إلقاء النفس كلها أمام ربه وخالقه، ولما كان الخائف الضعيف يطلب أولاً من يحميه ويلتجئ إليه قدّم (الرب) على فعل الهداية لأنه هو الملجأ فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص:٢٢] بخلاف ما في الكهف فإن المقام فيها مقام ذكر القول الحق فيما اختلفت فيه الأقوال، وبيان الأمر الصحيح فيما تباينت فيه الآراء، وهذا أمر

يحتاج إلى الهداية والرشد، فقدّم الهداية وهذا من دقيق الاستعمال. ثم لننظر من ناحية أخرى فإن ياء الضمير تكرر في (القصص) أكثر مما في سورة (الكهف) فناسب ذكر الياء القصص.

ثم إن لفظ الهداية تكرر في القصص (١٢) مرة، أما في الكهف فقد تردد (٥) مرات فزاد اللفظ في القصص لما زاد تردده، وهذا الأمر مراعى في القرآن الكريم. ألا ترى كيف قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىٓ ﴾ [الأعراف:١٧٨] بإثبات الياء. في حين قال في سورة الإسراء: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ﴾ [الإسراء:٩٧]. وفي سورة الكهف ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ ﴾ [الكهف:١٧] باجتزاء الكسرة فيهما، ذلك أن لفظ الهداية ترد في سورة الأعراف أكثر مما ترد في سورة الإسراء والكهف مجتمعتين، فقد ورد في الأعراف (١٧) مرة في حين ورد في الإسراء (٨) مرات والكهف (٦) مرات، فلما زادت ألفاظ الهداية في سورة الأعراف على ما في السورتين زاد لفظ (المهتدي) على ما في السورتين.

وقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الإسراء:٦٢] بالاجتزاء بالكسرة.

وقال: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [المنافقون:١٠] فذكر الياء، وذلك أنه تردد فعل التأخير مرتين في سورة (المنافقون) في حين ذكر مرة واحدة في سورة (الإسراء) فزاد في موطن الزيادة وحذف في موطن الاجتزاء.

ومن حُسْن الحذف في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧]. هذا علاوة على حذف الياء في مواطن أخرى متعددة من السورة وذلك نحو قول الله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [الكهف:٣٩] بحذف الياء في ﴿تَرَنِ ﴾ وقوله: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن

يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ [الكهف:٤٠] بحذف الياء من ﴿يُؤْتِيَنِ﴾. وهناك آيات كثيرة في سورة الكهف نكتفي بأخذ المفردات التي حصل فيها الحذف (تعلَمن، تعلمني) (نبغ، نبغي).

١١- وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ [البقرة:١٥٠] وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣] فذكر الياء في (اخشوني) في آية البقرة، وحذفها واجتزأ الكسرة في آيتي المائدة، وذلك أن السياق في البقرة يستدعي تحذير المسلمين من خشية الناس وعدم الالتفات إلى أراجيفهم، كما يستدعي توجيههم إلى مراقبة الله تعالى وخشيته أكثر بكثير مما في الموطن الآخر، وذلك أن السياق في البقرة في تبديل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في مكة، وقد أرجف اليهود والمنافقون بسبب هذا التغيير وأكثروا القول فيه، فاستدعى ذلك توجيه المسلمين إلى عدم الالتفات إلى أقوال أعداء الله وخشيتهم، وإنما عليهم أن يخشوا الله وحده، فأبرز الضمير العائد إلى الله فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ في حين كان سياق الآية الثانية يختلف عن ذلك، فهو يدور على ذكر المحرمات من الأطعمة، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة:٣] ثم جاءت الآية. فالكفار يائسون من محاربة الإسلام بعد أن أظهره الله وأعلى كلمته، فالمحاربة في الموقف الأول ومظنة خشية الناس أكبر، بخلاف آية المائدة التي أنزلت بعد أن أظهر الله دينه.

وترى في سياق آية البقرة وما فيها من خصومة ومحاجة ومحاربة يستدعي جانباً كبيراً من الخشية، فأظهر الله نفسه طلباً لمراقبته وخشيته وعدم الاكتراث بأقوال المرجفين، لقد أطال القول في سورة البقرة، فكان هذا مناسباً أن يطيل بذكر الضمير وهو المناسب لإطالة السياق بخلاف آية المائدة، فقد أبرز الضمير الياء في سياق سورة البقرة أكثر مما

في الموطن في سورة المائدة، مثل قوله: (فلا تخشوهم واخشوني، ولأتم نعمتي عليكم، فاذكروني أذكركم واشكروا لي)، فتناسب كل ذلك ذكر الياء في آية البقرة.

١٢- ومن قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ [الصافات:١٧٤-١٧٥] وقوله: ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ [الصافات:١٧٨-١٧٩] فذكر الضمير في: (أبصرهم) الأولى وحذفه في الثانية فقال: (وأبصر). وسبب ذلك أن الأولى كانت بسبب نزول العذاب بهم يوم بدر وما حلّ بهم من قتل وأسر، فلما تضمنت المعركة ما تضمنت من قتل صناديد قريش وأسرهم وشفاء صدور المؤمنين قال: ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾. وأما الثانية فكانت في يوم فتح مكة وليس فيه قتل ولا أسر وإنما هو هداية ورحمة، ثم إن فتح مكة كان فتحاً لجزيرة العرب ولذا أطلق لفظ ﴿وَأَبْصِرْ﴾ لأنه ليس مختصاً بأهل مكة كما كان في بدر فلما كانت وقعة بدر خاصة بأهل مكة وقد حلّ عليهم العذاب وحدهم فقال: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾، ولما كان الفتح ليس فيه قتل جماعة ولا أسر وكان أثره عاماً أطلق فقال: ﴿وَأَبْصِرْ﴾ .

كما أن الآية الأولى تحدّثت عن نزول العذاب بهم يوم بدر قتلاً وأسراً وهزيمةً ورعباً فلما تضمنت التشفّي بهم قيل له: ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ وأما يوم الفتح فإنه اقترن بالظهور عليهم والإنعام بتأمينهم والهداية إلى إيمانهم، فلم يكن وفقاً للتشفي بهم بل كان في استسلامهم لعينه قرة ولقلبه مسرة فقيل له: ﴿وَأَبْصِرْ﴾ .

١٣- ومن طريق الحذف في القرآن الكريم ذكر الاسم الموصول وحذفه في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [طه:٦] وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة:١١٦] ذلك بأنه حيث قصد التنصيص على الأفراد ذكر الموصول

والظرف، ألا ترى في قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس:٦٦] من نفي الشركاء الذين اتخذهم في الأرض وإلى المقصود في آية الكرسي: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [البقرة:٢٥٥] من إحاطة الملك فإنه إذا ذكر التنصيص على الأفراد ذكر اسم الموصول، مثل قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الزمر:٦٨] فهنا قصد التنصيص على كل فرد من أفراد السموات والأرض على وجه التخصيص فكرر (من)، ولكن قد يكون إعادة ذكر اسم الموصول لأنه يريد أن يخص أهل الأرض بذكر أمر من الأمور. ونلاحظ أن كل موطن كرر فيه (ما) أعقبه بالكلام عن أهل الأرض كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن:١] ويمضي في الكلام عن أهل الأرض.

ثانياً: الذكر:

١- ذكر المسند إليه.

٢- ذكر المسند.

٣- ذكر متعلقات الفعل.

١- ذكر المسند إليه:

أغراض ذكر المسند إليه:

أ- يذكر لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه: أنت تعلم أن المبتدأ مقدّم على الخبر، والمسند إليه في كثير من حالاته يكون مبتدأ، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النور:٣٥].

ب- **الحيطة في الأمر**: حتى تسد كل ثغرة على كل متأول كما يقول القاضي: هل أقر المتهم بما وجّه إليه؟ فيقال: المتهم أقر بكل ما وجه إليه. هل اعترف خالد بحقك؟ فتقول: خالد اعترف بحقي.

ج- **للتنبيه على غباوة السامع**: ويكثر عند إرادة التقرير، كأن يقول بعض الكسالى: هل قال الأستاذ: إن الامتحان بعد يومين؟ فتقول له: الأستاذ قال ذلك.

د- **لزيادة الإيضاح والتقرير**: لتأكيد اختصاصه بالمسند كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥] فإن اسم الإشارة – هو المسند إليه – ذكر أولاً في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وذكر ثانياً في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وهذا الذكر لزيادة الإيضاح والتقرير وليؤكد اختصاصه بالمسند، فهؤلاء الذين ثبتت لهم الهداية هم الذين ثبت لهم الفلاح، واختصوا به دون غيرهم.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:١-٢] فقد ذكر اسم الجلالة مرتين، ذكر أولاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وثانياً في قوله ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ وما ذلك إلا لتبيين أنه هو المعبود المقصود وحده لقضاء حوائج الناس.

هـ- **للتعظيم**: كقولنا: «محمد رسول الله ﷺ محمد سيد الخلق، محمد نبي الهدى».

و- **للإهانة والتحقير**: كما تقول: أبو رغال هو الذي سار مع أبرهة الحبشي دليلاً إلى مكة، أبو رغال أول خائن في هذه الأمة، أبو رغال ومن على شاكلته حري أن يرجم كل يوم.

ز- للتبرك: كما تقول: الله حسبي، الله وكيلي، الله وليي، الله سندي.

ح- للتلذذ: وذلك كثير في شعر الشعراء:

بـالله يـا ظبيـاتِ القـاعِ قُلـنَ لنـا ليلايَ منكُنَّ أم ليلى مـن البشر

ط- في مقام البسط: حيث تجمل إطالة القول كقوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:١٧] أدرك موسى ﷺ، أن هذا مقام يطيب فيه الحديث، ويحلو فيه التفصيل ولا يجمل فيه الإجمال. فقال: ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ [طه:١٨] وكان يمكن أن يقول: (عصا) ولم يكتف بذلك بل قال: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه:١٨] وهكذا تحسن إطالة الكلام مع ذوي الفضل، وأولي النهى، وأصحاب العلم والصلاح.

أسرار الإعجاز القرآني في الذكر والحذف:

١- قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ ﴾ [الأعراف:١٠١] وقوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ ﴾ [يونس:٧٤].

فحذف به من آية الأعراف بخلاف آية يونس وذلك أن الإطلاق هو سياق الأعراف، والتخصيص هو سياق سورة يونس، فقد جاء قبل آية الأعراف قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦] فأطلق التكذيب ولم يذكر بما كذبوا وهو نظير الإطلاق في الآية التي بعدها ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ ﴾ ولم يذكر بماذا كذبوا.

في حين في سياق سورة يونس سياق الذكر لا الإطلاق، فقد جاء قبل الآية المذكورة قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ [يونس:٧٣] وهو نظير الذكر في الآية التي بعدها ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ﴾ فانظر كيف قال في الأعراف: ﴿وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم﴾ وقال: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ فلم يذكر بماذا كذبوا. وانظر في سياق سورة يونس كقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ ثم قال بعدها: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ فذكر بماذا كذبوا في الموطنين فاستدعى كل سياق ما ورد من ذكر وحذف.

٢- ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:٤٦] وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٤٧].

قال مرة: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ ومرة أخرى ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ بزيادة الكاف، وهذه الزيادة إنما تكون لغرض توكيد الخطاب، وذلك كأن يكون المخاطب غافلاً أو يكون يوجب زيادة التنبيه وإنما فرق بين الخطابين والله أعلم:

١- أنه قال في الآية الأولى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فاحتاجوا بعد إلى زيادة في التنبيه والخطاب، ذلك أن فاقد السمع والبصر والمختوم على قلبه به حاجة إلى زيادة في الخطاب وتنبيه أكثر من السَّوي، فقال فيما بعد: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾.

٢- أن الآية الثانية أشد من الآية الأولى تنكيلاً وعذاباً، فإن عذاب الله الذي هو أشد من أخذ السمع والبصر فاحتاج الموقف إلى تنبيه أكثر وزيادة حذر وحيطة فجاء بكاف الخطاب.

وقد تقول: ولِمَ قال تعالى في سورة يونس ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:٥٠] ولم يقل: (أرأيتكم) كما قال في الآية في سورة الأنعام، فقد قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام:٤٠] والحقيقة أن الموقف والسياق غير متفق، فإنه لا ينبغي أن ينظر إلى الآيات مجردة بل تؤخذ في مواطنها، فإن اللغة ليست جملاً مفردة بل هي مواقف ومواطن، قد تصلح جملة في موطن ولا تصلح في موطن آخر.

أنت ترى أنه وصف في الآية الثانية من سورة الأنعام الذين كذبوا بآيات الله بالصم والبكم وأنهم في الظلمات فاحتاجوا إلى زيادة تنبيه وخطاب ليسمعوا وليعوا، وهذا شبيه بالموقف السابق. أما (أرأيتكم) فقد وقعت هذه اللفظة في سورة الأنعام في موضعين، فقد جمع فيها بين علامتي خطاب وهما التاء والكاف، والتاء اسم بخلاف الكاف، فإنها عند البصريين حرف يفيد الخطاب، والجمع بينهما يدل على أن ذلك تنبيهاً على مبناها عليه من مرتبة وهو ذكر الاستبعاد بالهلاك، وليس فيما سواها ما يدل على ذلك، فاكتفى بخطاب واحد. لهذا حُذفت الكاف في آية يونس لأنه لم يتقدم قبلها ذكر صمم ولا بكم يوجب تأكيد الخطاب وقد تقدم قبلها قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس:٣١] إلى ما بعدهن فحصل تحريكهم وتنبههم بما لم يبقَ بعد إلا التذكير بعذابهم.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التغابن:٩] وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الطلاق:١١] فقد زاد في التغابن قوله: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ دون سورة الطلاق وذلك أن آية التغابن خطاب للكافرين فدعاهم إلى الإيمان، أما آية الطلاق فهي خطاب للمؤمنين وقد دعاهم إلى التقوى. فكان ذكر تكفير السيئات مع الكافرين الذين هم في معصية مستديمة وسيئاتهم غير منقطعة أولى من ذكرها مع المؤمنين.

٤- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان:٧] وقوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية:٧-٨] فقد زاد في لقمان قوله: ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ ﴾ دون آية الجاثية وذلك أن آية الجاثية تقدّم فيها قوله الذي وصفه بسماع آيات الله لم يكن ليطابقه ذكر الوقر في الأذن لأنه قد ذكر سماعه الآيات، والوقر مانع من السماع فلم يناسب الإعلام بالسماع ذكر الوقر المانع منه. ولما لم يقع ذكر سماع الآيات في آية لقمان وتقدم ذكر المشار إليه بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ ﴾ [لقمان:٦] وهذه زيادة ناسبت ذكر زيادة الوقر، مع أنه لم يرد فيها ذكر سماعه الآيات كما ورد في آية الجاثية فإذاً وضح التلاؤم.

٥- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [المائدة:٩٢] وقوله: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟

﴿ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [التغابن:١٢] فزاد في الآية الأولى قوله: ﴿وَٱحۡذَرُواْ﴾ وقوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ مع اتحاد ما تضمنه الآيتان فيما سوى ذلك.

وسبب ذلك والله أعلم أن آية المائدة سبقها الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها من المحرمات وما تجره عليهم هذه الحرمات من شرور، فناسب ذلك ذكر هذه الزيادة لتأكيد التحذير. أما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعي هذا التأكيد ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١]. فلما لم يرد هنا نهي عن محرم فتأكد التحريم، لم ترد هنا زيادة لمعنى التأكيد ما ورد هناك فجاء كل على ما يجب ويناسب.

٦- زيادة الجار والمجرور كقوله تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا ۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح:١١] وقوله: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ۗ﴾ [المائدة:١٧]. فزاد ﴿لَكُم﴾ في آية الفتح ولم يذكر مثل ذلك في المائدة. والسبب أن الخطاب في سورة الفتح مختص بالمخلّفين من الإعراب فلما كان الخطاب مختصاً بهؤلاء زاد (لكم) لأن الخطاب موجه لهم.

أما سورة المائدة فالخطاب عام، وليس خاصاً بجماعة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا ۗ﴾ كيف عمّ أهل الأرض فلم يحسن أن يذكر (لكم) بل جاء الخطاب عاماً.

٧- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت:٢٢] وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم

بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى:٣١] زاد في آية العنكبوت: ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾ وذلك أن الكلام فيها في سياق تكذيب الأمم لرسلها بدءاً من نوح إلى إبراهيم إلى لوط إلى شعيب عليهم السلام، وما حاق بهذه الأمم من العذاب، بخلاف آية الشورى فإنها وردت في سياق ما يصيب الإنسان من مصائب. فلما كان الكلام في سورة العنكبوت في سياق تكذيب الأنبياء ومحاربة الرسل، ومعاقبة الله لهؤلاء الأقوام، كان من المناسب أن يزيد لهم في القول ويبسط لهم في التحدي ويخبرهم أنهم ضعفاء حتى لو بلغوا السماء وصعدوا فيها.

٨- الذكر والحذف مراعاة لواقع الحال: فيكون الكلام في غاية الدقة في التعبير عن الحقيقة كقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ [الحج:٤٢-٤٤]، فإنه قال: ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ ولم يقل (قوم موسى) كما قال في الأقوام الأخرى، وذلك لأن قوم موسى لم يكذبوه وإنما الذي كذبه فرعون وقومه. جاء في الكشاف[1]: فإن قلت: لم قيل: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ ولم يقل: (قوم موسى). قلت: لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل: وإنما كذبه غير قومه وهم القبط.

٩- ومن ذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾ [الصف:٦] وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ﴾ [الصف:٥] فإنه لم يقل في عيسى (وإذ قال عيسى لقومه) كما قال في

(١) الكشاف: ٢/ ٣٥٠.

موسى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ بل قال: (يا بني إسرائيل) وذلك أن عيسى ﷺ لم يكن له نسب فيهم فيكونوا قومه إذ لم يكن له فيهم أب بخلاف موسى ﷺ.

١٠- ومن ذلك ما ورد في قصة نوح ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف:٦٠] وقوله: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [الأعراف:٦٦] فقد زاد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على ملأ قوم هود دون ملأ قوم نوح، قيل: لأنه كان في أشراف قوم هود من آمن به، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن، فأخرج المؤمنين من أشراف قوم هود، لأن القائلين هم الذين كفروا منهم.

الفصل الثالث

التوكيد في القرآن الكريم

إذا كنتَ تدركِ من الذي تخاطبه شكاً، فيحسن أن تؤكد له الخبر، لتزيل ما في نفسه من شك، وتأكيد الخبر للشاك أمر مستحسن، أما تأكيده للمنكر فواجب وخير ما يرشدك في هذا المقام القرآن الكريم، وذلك حين يحدّثنا عن أصحاب القرية إذ جاءها رسل عيسى عليه السلام فيقول تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس:١٣-١٦] انظر كيف أكدوا لهم الخبر أولاً بـ (أن) والجملة الاسمية ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ ولكنهم أمعنوا بالتكذيب وأصروا عليه، وكذبوا الرسل، فزادوا في تأكيده، فقالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فجاؤوا بمؤكدين جديدين: الأول: القسم وهو مفهوم من قوله ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ والثاني اللام: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ .

إن التوكيد القرآني كله وحدة متكاملة وقد روعيت في ذلك جميع مواطنه فهو يؤكد في موطن ما مراعياً موطناً آخر قرب أو بعد، فتدرك أنه أكد في هذا الموطن بسبب اقتضى التوكيد ولم يؤكد في موطن آخر يبدو شبيهاً به بمؤكد واحد لسبب دعا إلى استعمال كل تعبير في موطنه المناسب له. وكذلك في اختيار المؤكدان فهو

يؤكد هنا بالنون المخففة مثلاً وفي موطن آخر بالنون الثقيلة وذلك بحسب منظور فني كامل متكامل في كل القرآن. فجاء التوكيد كله في القرآن كله لوحة فنية واحدة فيها من عجائب الفن ما يبهر الخلائق.

أدوات التأكيد:

وللتأكيد بالعربية أدوت وطرق لا بد من معرفتها، ليستعملها عند الخاصة وهذه الأدوات هي: (إن، لام الابتداء، ضمير الفصل، القسم، إما الشرطية، حرفا التنبيه (ألا و أما)، الحروف الزائدة، إن، أن، ما، من، الباء، قد للتحقيق، السين وسوف الداخلتان على فعل دال على وعد أو وعيد، تكرير النفي، إنما، نون التوكيد).

١- إنَّ :

وهي الأصل في التوكيد، لها معانٍ يستفاد منها غير التوكيد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج:٦٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]، وكثيراً ما يذكر معها لام الابتداء والقسم مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج:٦٥] وقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢] وأمثلة ذلك كثيرة منها:

أ- قوله تعالى يحدثنا عن الذين يظاهرون من نسائهم وقد كان ذلك من الأمور التي لا يرون بها بأساً، ولا يعدون فيها عيباً، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة:٢] وكانت هذه المؤكدات إن والجملة الاسمية واللام، من أجل أن يتجنبوا الظهار، كان المقام إذن يقتضي هذه المؤكدات جميعاً ثم أكدت الجملة الثانية ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ بياناً لعظم الذنب،

وهو الظهار، فهو يحتاج إلى كبير عفو، وكثير مغفرة، فجاءت الجملة الثانية مؤكدة بهذه المؤكدات وهي إن، والجملة الاسمية، واللام ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

ب- وهذا هو فرعون بعد أن جمع السحرة وكلهم أمل أن يحققوا مكاسب كثيرة وهم يعرفون صلف فرعون، أحبوا أن يستوثقوا لأنفسهم، فألقوا كلامهم مؤكداً بمؤكدات عدة ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف:١١٣] يرى فرعون أن لا ثقة متبادلة بينهم أن يؤكد لهم فقال: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف:١١٤] ولما قضى الله أمره، وألقى السحرة سجداً، وأصبح فرعون يغلي حقداً، ويتقطع غيظاً، يصوّر القرآن الكريم لنا نفسية فرعون حينما أرسل في المدائن حاشرين ليجمعوا أهلها حتى يخرجوا موسى ومن معه، وهو تصوير كراهية الخروج من مصر وعدم الرغبة. وبخاصة بعد أن عرفوا ما كان من أمر السحرة، فتقرأ هذه الآيات المشتملة على أنواع من التأكيد بأدواته وطرقه ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء:٥٤-٥٦].

ج- قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣-٧٤] فأنت ترى أنه لم يؤكد المغفرة بل قال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في حين قال ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٩٨-١٩٩] بتوكيد المغفرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وذلك أن المقام يقتضي أن يكون كل تعبير في موطنه وإيضاح أن المقام في سورة المائدة جاء في سياق التهديد للذين يقولون: إن الله ثالث ثلاثة وقد توعدهم بأنهم إن لم ينتهوا عن القول بذلك فسيسمهم عذاب أليم، ثم دعاهم إلى التوبة عن القول بذلك، إذن المقام مقام تهديد وتوعد وليس مقام توكيد المغفرة. وأحسب أن الفرق بين هذا المقام وما قبله واضح وبخاصة ما جاء في سورة البقرة حيث أكّد المغفرة، وكيف لا وقد أخبر الصادق المصدوق أن: «من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». إن أصحاب هذا المقام ذهبوا ليؤدوا فريضة الحج طلباً للمغفرة وأولئك إما في مقام معصية أو مقام كفر فأي المقامين أحق بتوكيد المغفرة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٨٢] المقام هنا مقام الإصلاح وحفظ الموصى من أن يقع في خبث أو إثم، أفترَى، أن الذي يسعى في هذا لا يستحق توكيد المغفرة، وأخيراً وازن بين المقامين اللذين مرّا مقام المعصية والكفر ومقام الإصلاح وحفظ الحقوق، ثم احكم أيها ينبغي أن يكون مقام توكيد المغفرة تجد الجواب بيِّناً شافياً.

د- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:٩٦] اقتضى كل ذلك التوكيد، إذ السياق كله مؤكد.

هـ- وفي قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام:١١١] ثم قال: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن

﴿ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:١١٦] إن السياق فيها في تكذيب الرسول ﷺ وعدم الإيمان به، فانظر كيف احتاج السياق إلى توكيد أنه على الحق وأنه عليه ألا يكون من الممترين، فأكد في الموطن الذي اقتضى ذاك بخلاف ما لا يقتضي ذاك.

و- كان المؤمنون يألمون حينما تصيبهم مصيبة أو حينما يسمعون من غيرهم ما يؤذيهم، فمقتضى هذا الحال أن يؤتى لهم بكلام مؤكد لتتوطن نفوسهم عليه، وليعرفوا أن هذه سنّة الله. فقال تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٦] أكد لهم بالقسم الذي دلت عليه اللام، وبنون التوكيد الثقيلة وإن.

٢- لام الابتداء:

كقوله تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الحشر:١٣] وقوله: ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ ﴾ [البقرة:٢٢١] ومثله قولك لمن تخاطب: لأنت حريٌّ بالتقدير، وأمثلة ذلك كثيرة منها:

أ- قوله تعالى: ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل:٢٩] وقوله: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر:٧٢] فقد أدخل اللام في آية النحل على (بئس) فقال: ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ وذلك أنه في سورة النحل وصف قوماً أشد كفراً وأكبر جرماً من المذكورين في سورة الزمر وذلك أنهم ضلوا وأضلوا غيرهم، وحملوا من أوزار الذين يضلونهم علاوة على أوزارهم هم فزاد عذابهم قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ

كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥] فناسب ذلك زيادة اللازم لتوكيد العذاب لهم بخلاف المذكورين في سورة الزمر، فإنه لم يصفهم بمثل هذا الوصف ومن ناحية ثانية أفاض في سورة النحل في وصف الكافرين ما لم يفضه في سورة الزمر، فناسب ذلك أيضاً ذكر اللام والزيادة في التوكيد، إذ كما زاد وبسط في الوصف زاد في التوكيد لأنه هو المناسب لمقام البسط والإفاضة.

ب- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل:٣٠] وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام:٣٢]. فأكد ذلك باللام في حين قال: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٩].

إن سياق سورتي الأنعام والنحل هو عن الدار الآخرة بخلاف سياق سورة الأعراف، فأنت ترى أن الكلام عن الدار الآخرة في سورة الأنعام، وليس الأمر كذلك في آيات الأعراف بل هو في العقوبات الدنيوية لبني إسرائيل. فلما كان الكلام في آيات الأنعام عن الدار الآخرة أكدها باللام، ولما كان الكلام في آيات الأعراف عن عقوبات الدنيا لم يؤكد (الدار الآخرة) باللام بل أكد سرعة العقاب لأنه عاجلهم في الدنيا.

ج- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ ﴾ [الأعراف:١٥٥] وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل:٩] فلم يذكر اللام في جواب لو في

الآية الأولى بخلاف الثانية وذلك لأن هداية الناس أصعب وأعسر من الهلاك، فإهلاك الألوف ممكن بوسائل التدمير ولكن هدايتهم عسيرة فجاء باللام لما هو شاق وعسير ونزعها مما هو أيسر.

د- ونحو قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف:١٠٠] وهذه نظيرة آية الإهلاك السابقة بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً﴾ [الزخرف:٦٠] فنزع اللام من الآية الأولى لأن فعلها أيسر من الآية الثانية، فأكد ما هو أعسر وأشق وإن لم يكن على الله شيء عسير.

٣- القسم:

وقد يكون بالواو كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥] وقد يكون القسم بالباء والتاء كذلك. ولا يختص القسم بالجملة الاسمية، فقد يدخل على الجملة الفعلية كقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥] وقوله سبحانه: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء:٥٧].

كقوله تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦] أكد لهم بالقسم الذي دلت عليه اللام وبنون التوكيد الثقيلة، وهذا كثير في كتاب الله تعالى. فإذا كان المؤمنون يألمون حينما تصيبهم مصيبة، أو حينما يسمعون من غيرهم ما يؤذيهم فمقتضى هذا الحال أن يؤتى لهم بكلام مؤكد لتتوطن نفوسهم عليه، وليعرفوا أن هذه سنّة الله.

وكقوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس:٩٤].

كذلك في سياق آية يونس فإنه يقتضي التوكيد، والتوكيد بالقسم (قد) بالإضافة إلى اللام في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فاقتضى كل ذلك التأكيد إذ السياق كله مؤكد.

٤- ضمير الفصل :

كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:٥] وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ ﴾ [الشورى:٩].

وضمير الفصل هذا إنما سمي ضميراً تحرزاً لأنه جاء على صورة ضمير، فالضمائر هي أسماء، وهو من المعارف لكن ضمير الفصل ليس اسماً وإنما هو حرف وسمي ضمير الفصل لأنه يفصل بين المبتدأ والخبر فهو يعرب ضمير فصل لا محل له من الإعراب. وهذا الضمير يفيد التأكيد، ويأتي للاختصاص، وأن ما بعده يكون خبراً لا صفة ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم ما يلي:

أ- قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت:٣٦] وقوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠] فأكد في سورة فصلت بضمير فصل، وعرّف السميع العليم بخلاف سورة الأعراف، فأنت ترى في سورة فصلت طلب أن يقابل السيئة بالحسنة وهذا أمر شاق على النفس، فإن عادة الناس أن يقابلوا السيئة بمثلها، فإذا أرادوا أن يحسنوا عفوا عن المسيء، أما أن يقابلوا السيئة بالحسنة فذلك أمر شاق

على الإنسان فإن الشيطان يحث على الانتصار للنفس والأخذ بالحق ويثبطه عن الإحسان إلى المسيء. أما في سورة الأعراف فقد أمر بالإعراض عن الجاهلين، وهو أيسر من الإحسان إلى من أساء إليك، لذا أكّد وعرّف في سورة فصلت فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وترك ذلك في سورة الأعراف، فوضع كل تعبير في المكان الذي يقتضيه.

ب- ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠] نلاحظ التشابه بين الآيتين إلا في وجود ضمير الفصل في آية الحج ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وخلوها منه في آية لقمان ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك، فآية الحج واقعة في سياق الصراع مع أهل الباطل ومجاهدتهم أشق أنواع الجهاد. ويبدأ الصراع بعد ذكر الأمم السابقة وتكذيبهم لرسلهم، فكان من نتائج الصراع، الهجرة من الديار والأرض، القتل والموت، فهنا أنصار الباطل ساعون لإطفاء نور الله معاجزون معاندون. ولا تجد مثل هذا في سورة (لقمان) وإنما هو عرض لأصحاب الباطل من وجه آخر ليس فيه هذا الصراع. لهذا فإن السياق مع أهل الباطل مختلف، فهم في الصورة الأولى من سورة الحج ساعون معاجزون مصارعون معاندون متمكنون في الأرض نتيجة هجرة المؤمنين أو قتلهم، فاحتاج الأمر إلى زيادة تثبيت المؤمنين وعدم افتتانهم بسلطة أصحاب الباطل وتمكّنهم من رقاب الناس فإن للسلطان فتنة ورهبة. فاقتضى السياق توكيد أن ما هم عليه هو الباطل، وأما الآية الثانية ففي سياق الجدل العقلي والمحاجّة بين الفريقين، وليس

فيها ذكر لصولة الباطل وبطشه. فلم يقتض السياق ما اقتضاه في الآية الأولى من التوكيد، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنه لما تقدّم في سورة الحج ذكر ما يدعون من دون الله من المعبودات الباطلة، ولم يتقدم مثل ذكر ذلك في سورة (لقمان).

ج- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠] قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢] فقد جاء بضمير الفصل ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ دون الآية الأولى وذلك لجملة أسباب منها:

١- أنه ذكر في الآية الثانية زيادة عن الجنات ما هو أكبر منها، ألا وهو رضوان الله تعالى وقال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبر من الجنات وملذاتها ونعيمها، فلما زاد ذلك زاد في توكيد الفوز، ثم انظر كيف عدل عن قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فجاء في الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتي هي أقوى من الفعلية وأكد فناسب كل ذلك توكيد القدر وعظمه.

٢- أنه زاد على الجنات ذكر المساكن الطيبة في جنات عدن، فقد ذكر الجنة وذكر علاوة على ذلك المساكن الطيبة فناسب ذلك أن يزيد في توكيد الفوز.

٣- أنه ذكر (من) من الآية الثانية دون الأولى فقال: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وقال في الآية الأولى ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ومعنى (من)

هنا الابتداء أي أن الأنهار تتفجر من تحتها وهذه الحالة أكمل من الحالة الأولى فإنه قال: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فإنه ذكر أن الأنهار تجري من تحتها، وليس بدء الجريان منها، فناسب كلُّ ذلك زيادة ضمير الفصل لتوكيد الفوز وعظمته، فسبحان الله العظيم، لاحظ أنه ذكر الجنات في القرآن بقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بذكر (من) إلا في هذا الموطن فقال: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قيل: وسبب ذلك أنه حيث ورد ذكر الجنات وردت (من) معها كان الكلام عاماً لعموم المؤمنين الذين فيهم الأنبياء والرسل وغيرهم، ففيهم من هو أعلى منزلة من المذكورين في آية (السابقين) أما آية (السابقين) فهي مخصوصة بهم فناسب ذلك أن يزيد (من) لأن فيهم من هو أعلى منهم.

٥- أمّا الشرطية:

كقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ﴾ [البقرة:٢٦] فجاء هنا التأكيد بـ (أمّا الشرطية) لتأكيد الحق في علمهم. وينبغي أن نتنبه إلى الفرق بين (أَمَّا) بالفتح و(إمَّا) بالكسر مثل قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد:٤] فإن (إمَّا) بالكسر ليست من أدوات التوكيد.

٦- حرفا التنبيه (ألا) و(أما):

وهما (ألا) و (أما) وقد كثر الأول في كتاب الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة:١٣] وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] فأنت ترى أن (ألا) تفيد تحقق ما بعدها، فالمنافقون الذين اتهموا المؤمنين

بالسفه تؤكد لنا الآية الكريمة أنهم الأحقون بهذا الوصف، والآية الثانية تؤكد أن الذين اتخذوا الله ولياً أو والاهم الله سبحانه وتعالى بعيدون عن أن ينالهم خوف أو حزن.

٧- الحروف الزائدة:

(من) الاستغراقية، (الباء) الواقعة في خبر ليس، (إن) الواقعة بعد النفي (أن) الواقعة بعد لما، ما:

أ- أن الواقعة بعد لما الظرفية كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف:٩٦].

ب- إن الواقعة بعد النفي كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف:١٧].

فقال في الآية الأولى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقال في الثانية ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والأولى مؤكدة ويدل على ذلك السياق فقد قال فيها:

١- وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه.

٢- وفي آذانهم وقراً.

٣- وذكر أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.

فأنت ترى درجة التكذيب أشد من الآية الثانية، لأن الصفات التي تستدعي قوة التكذيب والإنكار كانت من المكذبين الأولين أشد وأكثر، ولذلك أكد النفي فيها بـ (إن) بخلاف الثانية.

ومثال آخر: كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية:٢٤] وقوله: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون:٣٧].

فقال في الآية الأولى: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ ، وقال في الثانية ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴾ وواضح أن التكذيب في الآية الثانية أشد وأقوى من وجوه عدة:

١- فقد أسند التكذيب والإنكار في الآية الأولى إلى ضمير الكفرة ﴿ وَقَالُواْ ﴾ وأما الثانية فقد أسنده إلى الكفرة صراحة مضيفاً عليهم صفات تزيد في تكذيبه وإنكارهم.

٢- المجادلة في صدق الرسل: فقد ذكر هؤلاء الكفرة أن الرسل إنما هم بشر مثلهم يأكلون كما يأكل الناس ويشربون كما يشربون فلا ينبغي أن يطاعوا البتة.

٣- السخرية من الوعد بالحياة الأخرى ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون:٣٥].

٤- الاستبعاد المؤكد في قولهم: ﴿ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ [المؤمنون:٣٦].

٥- ثم ختموا تكذيبهم وإنكارهم بقولهم: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [المؤمنون:٣٨].

٨- (قد):

واعلم أن (قد) من الحروف التي لا تدخل إلا على الفعل، والنحويون يقسمونها إلى أربعة أقسام.

أ- فهي إن دخلت على الماضي تكون للتحقيق أو التقريب، فمثال التحقيق كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١] ومثال التقريب: قد قامت الصلاة.

ب- إن دخلت على المضارع تكون للتقليل، أو التكثير فمثال ذلك قد يجود الكريم.

ج- تكون قد للتأكيد بحسب رأي البلاغيين فهي تكون للتأكيد إذا قصد منها تحقيق الفعل الذي دخلت عليه. تأتي للتأكيد لجميع الأفعال إذا أفادت التحقيق ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف:٥].

د- تفيد التشكيك، ومثال ذلك: قد يجود البخيل.

٩- السين، وسوف:

وهما حرفان يدخلان على المضارع، فيمخضانه للاستقبال، أي: يصير الفعل مستقبلاً، إلا أن السين، تدل على الزمن القريب، ويسمونه التنفيس، و(سوف) تدل على الزمن البعيد ويسمونه التسويف، وتكونان للتأكيد إن دخلتا على مضارع فيه وعد أو وعيد، أي: إن دل الفعل على محبوب أو مكروه. كقوله سبحانه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

والذي يدل على ذلك السياق القرآني بقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف:٩٧-٩٨] يوسف عليه السلام دعا لهم بالمغفرة دون أن يسألوها منه، وأما أبوهم فلم يستغفر لهم مع طلبهم الاستغفار منه، وإنما وعدهم بالاستغفار فوعدهم بالاستغفار في

المستقبل ثم جاء بـ (سوف) لأنها أبعد في الاستقبال من السين مما يدل على عمق الأثر في نفسه.

١٠- نونا التوكيد:

ونعني بهما نون التوكيد الثقيلة المشددة المفتوحة، ونون التوكيد الخفيفة الساكنة غير المشددة، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف:٣٢] ووردت النون الخفيفة في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ [العلق:١٥].

أ- مثال ذلك كقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة:١٤٧] وقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران:٦٠].

فأكد الفعل (تكون) في سورة البقرة: ١٤٧، والأنعام: ١٤، ويونس: ٩٤، ٩٥، ١٠٥ دون آية آل عمران وذلك لأن المقام في سورة البقرة يقتضي التوكيد في كل مواطن أكد فيه الفعل دون الموطن الذي لم يؤكد فيه، فقد أكد في الآية الأولى لأن المقام فيها في تبديل القبلة وما صحب ذلك من إرجاف وأقاويل وإعلان حرب نفسية على المسلمين حتى ارتد بعض ضعاف الإيمان. ثم ذكر في سورة البقرة أن أهل الكتاب لن يتوجهوا إلى قبلة المسلمين مهما جئتهم بالآيات البينات والحجج الواضحة فقال مؤكداً بالقسم ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ ﴾ [البقرة:١٤٥] ثم قرر أن هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، فاحتاج كل ذلك إلى التوكيد فقال: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾. وأما آية آل عمران فليس الأمر كذلك، ففي آيات البقرة من الإرجاف والفتنة ما ليس في آية آل عمران، فاحتاج المقام في البقرة إلى التوكيد بخلاف آل عمران.

ومثال آخر: قال تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [يونس:٩٤-٩٥].

السياق في آية يونس يقتضي التوكيد فقد قال: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ وإزالة الشك تحتاج إلى التوكيد، ثم انظر إلى المؤكدات في السياق:

١- التوكيد بالقسم وقد في قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾.

٢- التوكيد بالنون في قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾.

٣- التوكيد بـ (إن) وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:٩٦] فاقتضى السياق كل ذلك التوكيد.

١١-أ- **تأكيد النفي بـ «لن»**: ورأى بعضهم أنها تفيد التأبيد كذلك[1] ومنه قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ [آل عمران:٩٢].

ب- **تأكيد النهي**: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [آل عمران:١٩٦].

---

(١) قال ابن هشام في «مغني اللبيب» ص٣٧٤: ولا تفيد «لن» توكيد النفي خلافاً للزمخشري في «كشافه»، ولا تأبيده خلافاً له في «أنموذجه» وكلاهما دعوى بلا دليل، قيل: ولو كانت للتأبيد لم يقيد منفيها باليوم في ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٦]، ولكان ذكر الأبد في ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ [البقرة:٩٥] تكراراً، والأصل عدمه. وانظر: «الجنى الداني في حروف المعاني» للحسن بن قاسم المرادي ص٢٧٠.

فقد أكد النهي في الآية بالنون وذلك لأن المقام يقتضي التوكيد إذ الآية في سياق ابتلاء المسلمين في أموالهم وأنفسهم، والأذى الكثير ينالهم من عدوهم الكافر يبطش بهم ويفتنهم عن دينهم وينال منهم حتى يبلغ به الأمر إلى أن يخرجهم من ديارهم.

١٢- التكرار بشقيه اللفظي والحرفي:

أ- **الحرفي**: تكرير النفي: كما تقول: لا، لا أرضى بالذل. لا، لا آكل طعاماً أنت تكرهه.

ب- **اللفظي**: تكرير اللفظ الذي يريد توكيده، وذلك حسبما يقتضيه موطن الكلام نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:٢٣] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء:٥٩].

فكرر لفظ الطاعة فقال: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ والملاحظ أن ما لم يتكرر فيه لفظ الطاعة مع الرسول فالسياق فيه لله وحده ولم يذكر فيه لفظ الرسول ولا أية إشارة إليه.

ومثال آخر نحو قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف:٤٥] وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [هود:١٩] فقد زاد لفظة (هم) للتوكيد في سورة هود وذلك لما زاد على الأولين، افتراء الكذب على الله.

فقد ذكر في سورة الأعراف من صفات الظالمين أنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، وذكرها في سورة هود وزاد عليها افتراء الكذب، فلما زاد في صفات

الضلال أكد فيهم الكفر بزيادة (هم) وزاد لهم في العذاب فقال: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وزاد في صفة الخسران فقال: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ ومثال آخر كقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران:١٨٤] وقوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر:٢٥] فذكر الباء مع الزبر والكتاب المنير في آية (فاطر)، ولم يذكرها في آية آل عمران ذلك أن هذا التكرار يفيد التوكيد، لأن السياق في سورة (فاطر) يقتضي هذا التأكيد إذ هو مقام الإنذار والدعوة والتبليغ، فلما كان مقام إنذار كرر الباء لأن هذه هي كتب الإنذار والدعوة والتبليغ، وليس المقام في آل عمران مقام تبليغ وإنذار بل هو كلام عام وذكر حوادث تاريخية معنية فلما لم يكن المقام كذلك لم يكرر الباء في وسائل الدعوة وكتبها إذ لا يقتضي المقام ذلك.

وما يقتضي التوكيد في سورة (فاطر)، قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ بصيغة المضارع فإن هذا مما يفيد استمرار التكذيب بخلاف ما في آل عمران فقد قال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فإن في آية (فاطر) استمراراً على التكذيب ما ليس في آية آل عمران، فاقتضى التوكيد.

وهناك جملة من الأسباب تفيد التوكيد في سورة (فاطر) منها:

١- بناء الفعل للمجهول في آية آل عمران ﴿كُذِّبَ﴾ في حين ذكر الفاعل في آية (فاطر) فقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢- قوله في (فاطر): ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ يذكر الفاعل ظاهراً في حين قال في (آل عمران) ﴿جَآءُو﴾ بالضمير، فالتفصيل في فاطر أكثر وأوضح.

٣- ذكر الباء مع كل معطوف في (فاطر) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ وحذفها من آل عمران، مما يدل على مقام التفصيل في (فاطر) ومقام الاختصار في (آل عمران).

٤- صيغة الفعل في (فاطر) أطول مما هي في (آل عمران) فقد قال في (فاطر): ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ في آل عمران ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ .

كل ذلك مما يدل على مقام الإطالة والتفصيل فدلّ على تكرار حرف الباء في (فاطر).

١٣- إنما:

كقولك: إنما الجشع الحرص، إنما السعادة الرضا، وهذه أداة قصر، تقصر الحديث عنها هنا.

١٤- التوكيد بـ (من) التي تفيد الاستغراق:

كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج:٧١] وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠].

فقال في آية الحج: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ﴾ وقال في آية الزخرف: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ فزاد (من) في آية الزخرف وذلك أن المقامين مختلفان، فالكلام في آية الحج على من يعبد غير الله، فقد ذكر أن هؤلاء عبدوا ما عبدوا من دون علم أو معرفة، والتمييز بين عبادة الله وغيره لا يحتاج إلى قدر كبير من العلم، فأقل قدر منه يكفي لمعرفة الطريق الصحيح، وأقل قدر من النظر يهدي إليه ويدل على ضرورة ترك عبادة غير الله.

وأما آية الزخرف فالكلام فيها يتعلق بالقدر، والكلام في القدر قد يحتاج إلى قدر كبير من العلم ورسوخ القدم في المعرفة، فحتى الذين اتفقوا على عبادة الله اختلفوا في القدر اختلافاً كبيراً حتى إنه أثر عن الرسول ﷺ أنه نهى عن الكلام في القدر، فاحتاج الموطن هنا على توكيد العلم بخلاف الموطن السابق، لذا قال: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فنفى عنهم أقل العلم وهم يخوضون في هذه المسألة الشائكة، ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ بخلاف الآية الأولى التي ختمها بما ليس له علاقة بالعلم بل قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ .

١٥- قد يأتي بألفاظ التوكيد المعروفة في المواطن التي تقتضي ذلك:

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣] وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩] فأكد الدين بلفظ (كل) في الأنفال بخلاف آية البقرة وذلك لأن القتال في سورة البقرة مع أهل مكة فحسب، أما الأنفال فمع جميع الكفار ولذا عمم.

وحصر القتال في سورة البقرة بصد العدوان فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠] فلما كان القتال محدداً لم يأتِ باللفظة الدالة على العموم بل قال: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ بخلاف ما في الأنفال فإنه لم يخصص القتال برد العدوان بل أطلقه فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٨-٣٩] فلما أطلقه في الأنفال وعممه جاء باللفظة الدالة على الشمول

وهي لفظة (كل)، أي: جميع، فأنت ترى أن لفظة (كل) في آية الأنفال اقتضاها المقام من ناحيتين:

أ- أن القتال في البقرة كان خاصاً بأهل مكة، وفي الأنفال كان عاماً مع أهل الكفر.

ب- أن القتال في البقرة كان مخصوصاً بصد العدوان، وفي الأنفال عام فناسب وضع (كل) في الأنفال دون البقرة.

١٦- التوكيد باختصاص حرف يدل على التوكيد دون نظيره، كاستعمال الهمزة، وهل واستعمال حروف النفي:

فهو يستعمل هل للتوكيد دون الهمزة، ويستعمل ما للتوكيد دون ليس، ويستعمل إن للتوكيد من دون (ما) وأمثلة ذلك كثيرة.

أ- قوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:٧٢] وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ﴾ [المائدة:٦٠] وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٢] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف:١٠٣] فاستعمل (الهمزة) و(هل) مع الفعل (نبأ) وعند النظر في الاستعمالين نرى أنه استعمل (هل) لما هو أقوى وآكد في الاستفهام. فأنت ترى أن سياق سورة المائدة أكثر قوة لا تجده فيما قبله، فذكر الكفار الذين اتخذوا الدين والصلاة والنداء هزواً ولعباً وقد وصفهم بالفسق وعدم العقل، وأنهم لعنهم الله وغضب عليهم ومسخ منهم قردة وخنازير وأنهم عبدوا الطواغيت. ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ويمضي في وصفهم بأقبح الوصف. أما باقي الآيات فاستعمل في الرد على الكفرة

المفترين فاستعمل (هل). فعندما تكون شدة التقريع واضحة في السياق يستعمل هل ولم يستعمل الهمزة.

١٧- التأكيد بـ (إن) واللام:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد:٢٥] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:٤٠] أكد قوته وعزته بـ (إن) واللام في سورة الحج دون آية الحديد وبسبب سياق كل من الآيتين فأنت ترى أن الكلام هو في سياق الإذن للمؤمنين بالجهاد وقتال الأعداء بعدما أخرجوا من ديارهم وقوتلوا ظلماً، وقد ذكر أن الله قادر على نصرهم وقد وعدهم بالنصر فقال مؤكداً ذاك: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ ولا شك أن النصر يحتاج إلى قوة فأكد قوته وعزته بـ (إن) واللام، وقد ناسب تأكيد النصر تأكيد القوة، وأما في سورة الحديد فإن السياق ليس في سياق الجهاد والقتال ولا سياق النصر في الحرب، بل في سياق نصر المؤمنين لدعوة الله، فالأولى نصره هو لجنوده المستضعفين فزاد في مقام التأكيد، والثانية في نصر المؤمنين لدعوته.

الفصل الرابع

التشابه والاختلاف

في القرآن الكريم آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى، ولا تختلف عنها إلا في مواطن ضئيلة كأن يكون الاختلاف في حرف أو كلمة، أو في نحو ذلك.

وإذا تأملت هذا التشابه والاختلاف وجدته أمراً مقصوداً في كل جزئية من جزئياته قائماً على أعلى درجات الفن والبلاغة والإعجاز، وكلما تأملت في ذلك ازددت عجباً وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا الإعجاز العظيم. وإليك أمثلة على ذلك.

أسرار الإعجاز القرآني في التشابه والاختلاف:

١- فمن ذلك استعمال لفظ (مكة) و (بكة) لأم القرى: جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٦] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الفتح:٢٤] استعمل في الآية الأولى لفظة بكة (بالباء) في حين استعمل لفظ مكة في الآية الثانية (بالميم) وهو الاسم المشهور لأم القرى.

وسبب إيرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ فجاء بالاسم بكة من لفظ (البك) الدال على الزحام لأنه في الحج

يبك الناس بعضهم بعضاً، أي: يزحم بعضهم بعضاً، وسميت (بكة) لأنهم يزدحمون فيها.

وليس السياق كذلك في آية الفتح فجاء بالاسم المشهور لها (مكة) فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه.

٢- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩] وقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٤].

فقال في آية النساء ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾ وفي آية الأحزاب ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ وذلك أن آية النساء وردت بعد قوله تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ فذكر أن الله لا يحب الجهر بالسوء، ولذا قال بعدها: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾ أي: إن تظهروا خيراً، وهو عكس الجهر بالسوء فالله سبحانه لا يحب السوء ولا الجهر به بخلاف الجهر بالخير.

وأما آية الأحزاب فالسياق يتعلق بعلم الله بالأشياء الخافية والظاهرة فقد قال فيها: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب:٥١]. وختم بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٤] ومعنى الآية إنه يستوي عنده السر والجهر، فناسب أن يقول: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ لا أن يقول: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾ هذا علاوة على مناسبة كلمة (شيء) الواقعة قبلها وبعدها فوضع كل لفظة في مكانها المناسب لها.

٣- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١] وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ

﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة:٢١٧].

فقد قال في الآية الأولى (أشد) وفي الآية الثانية (أكبر) وذلك لأن الكلام في الآية الثانية على كبيرات الأمور فقد مرّ فيها قوله: ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ فناسب ذكر (أكبر) فيها.

وليس السياق كذلك في الآية الأولى، وإنما هي سياق الشدة على الكافرين وهذه الشدة ظاهرة فناسب ذكر (أشد) فيها.

٤- ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [هود:٢٩] وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ [يونس:٧٢] وقوله: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:١٠٩].

وردت في غير هذا الموضع كلمة (أجر) بدل كلمة (مال) وسبب ذلك أنه في الموضع الذي وردت فيه كلمة مال وقعت بعدها كلمة (خزائن) «ولفظ المال بالخزائن أليق» فقد جاء على لسان نوح عليه السلام قوله: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ [هود:٣١] فناسب ذكر المال هنا بخلاف المواضع الأخرى.

٥- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل:٦٦] وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون:٢١] فقد قال في سورة النحل: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ وقال في آية المؤمنون: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا

﴿فِي بُطُونِهَا﴾ وسبب ذلك أن الكلام في آية النحل على إسقاء اللبن من بطون الأنعام، واللبن لا يخرج من جميع الأنعام بل يخرج من الإناث، وأما آية (المؤمنون) فالكلام عن منافع الأنعام من لبن وغيره، وقد قال بعد قوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:٢١].

وهذه المنافع تعم جميع الأنعام ذكورها وإناثها، صغارها وكبارها، فجاء بضمير القلة وهو ضمير الذكور للأنعام التي يستخلص منها اللبن، وهي أقل من عموم الأنعام، وجاء بضمير الكثرة وهو ضمير الإناث لعموم الأنعام، فلما كانت الأنعام في الآية الثانية أكثر جاء بالضمير الدال على الكثرة، وهذا جار وفق قاعدة التعبير في العربية التي تفيد أن المؤنث يؤتى به للدلالة على الكثرة بخلاف المذكر. وذلك في مواطن عدة كالضمير وأسماء الإشارة وغيرها. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ بتذكير الفعل قال: قوله: ﴿ ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ بتأنيث الفعل، فإن التذكير يدل على أن النسوة قلة بخلاف التأنيث وهذه قاعدة معروفة لا نريد أن نطيل شرحها.

٦- ومن ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٤] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٧] فقد قال في الآية الأولى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وقال في الآية الثانية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وسبب ذلك متصل بإنزال السكينة وازدياد المؤمنين إيماناً فقد قال قبلها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ﴾ [الفتح:٤] فهذا موضع علم وحكمة. فقال: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

وأما الآية الثانية فهي في موضع عذاب وعقوبات فقد جاءت بعد قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح:٦] فهذا موضع عزة وغلبة وحكم فقال: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

٧- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم:٣٧] وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزمر:٥٢] فقال في آية الروم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾ وفي آية الزمر ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ ﴾ وذلك أن ألفاظ الرؤية والنظر في سورة الروم أكثر مما في سورة الزمر، وألفاظ العلم في سورة الزمر أكثر مما في سورة الروم، فقد وردت ألفاظ الرؤية والنظر في الروم سبع مرات[(١)] وفي الزمر ٦ مرات[(٢)]، ووردت ألفاظ العلم في الزمر إحدى عشرة مرة[(٣)]، وفي الروم عشر مرات[(٤)]، فاستحقت الروم لفظ الرؤية والزمر لفظ العلم.

ثم انظر إلى طريقة أخرى في الإعجاز القرآني، فقد جاء بفاقدي البصر في سورة الروم فقال: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ ﴾ [الروم:٥٣] وجاء بفاقدي العلم في سورة الزمر فقال: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر:٦٤].

---

(١) انظر الآيات: (٩، ٢٤، ٣٧، ٤٢، ٤٨، ٥٠، ٥١).

(٢) انظر الآيات: (٢١، ٣٨، ٥٨، ٦٠، ٦٨، ٧٥).

(٣) انظر الآيات: (٧، ٩ مرتين، ٢٦، ٢٩، ٣٩، ٤٦، ٤٩ مرتين، ٥٢، ٧٠).

(٤) انظر الآيات: (٦، ٧، ٢٢، ٢٩، ٣٠، ٣٤، ٥٤، ٥٦ مرتين، ٥٩).

٨- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل:٨٧] وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر:٦٨] قال في سورة النمل: ﴿فَفَزِعَ﴾ وفي سورة الزمر ﴿فَصَعِقَ ﴾ وإنها قال ذلك في الزمر لمناسبة ما بعده وهو قوله: ﴿ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فإن ذلك في مقابل الصعقة في حين ختم آية النمل بقوله: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ وهو مناسب للفزع إذ معنى داخرين: صاغرين، فناسب كل لفظة مكانها.

ثم انظر كيف قال بعد آية النمل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ [النمل:٨٩] فآمنهم من الفزع الذي يصيب الخلائق يوم القيامة.

ثم انظر كيف ناسب ختام السورة أولها وما ورد فيها من فزع في قصة موسى وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل:١٠] وكيف ناسب ذكر الصعقة في الزمر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠] إن سورة النمل خصت بقوله: ﴿فَفَزِعَ ﴾ موافقة لقوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ وخصت الزمر بقوله: ﴿ فَصَعِقَ ﴾ موافقة لقوله: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ لأن معناه: مات.

٩- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ [آل عمران:٨٦] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة:٧٤] فقد عبّر في آية آل عمران (بالإيمان) وفي آية التوبة (بالإسلام) وذلك لاختلاف حال من عني بهما، وقد ذكر المفسرون أن آية آل

عمران نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري، وكان قد أسلم ثم ارتد ولحق بالكفار ثم ندم، فأرسل إلى قومه ليسألوا رسول الله ﷺ هل له من توبة؟ فسألوا فنزلت الآية فكتبوا بها إليه فأسلم وحَسُنَ إسلامه، فكانت حاله حال إيمان ولم يكن في إسلامه أولاً ممن عرف بنفاق، ولا أنه أبطن خلاف ما ظهر منه من إسلامه، فكانت حاله حال إيمان وتصديق ولم يظهر خلافه وذلك هو الإيمان، فناسب وصفه بالإيمان وهو التصديق بالقلب.

أما آية التوبة فنزلت في الجُلاّس حين قال في غزوة تبوك: لئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمر. فنُمي ذلك إلى الرسول ﷺ فاستدعاه فحلف ما قال. وكان منافقاً معروف النفاق يتظاهر بالإسلام ويبطن خلافه، فأنزل الله في قصته ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ [التوبة:٧٤] فقيل بعد إسلامهم مناسبة للحال.

١٠- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر:٧] وقوله: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشورى:٥] فقال في سورة غافر: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وقال في الشورى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ وذلك لأسباب عدة منها:

١- أن آية غافر ذكرت جماعة مخصوصة من الملائكة وهم حملة العرش ومن حوله، وآية الشورى ذكرت عموم الملائكة. فناسب أن تستغفر خاصة الملائكة للخاصة من الناس وهم المؤمنون، وأن تستغفر عامة الملائكة لعموم أهل الأرض.

٢- ثم لما ذكر في غافر صفة الإيمان في هؤلاء الملائكة فقال: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ناسب أن يذكر من اتصف بهذه الصفة من أهل الأرض.

٣- ثم إن قوله: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ يفيد التخصيص ولا يفيد العموم فناسب ذلك أن يخصوا المؤمنين بالذكر لا أن يذكروا عموم أهل الأرض، وأغلبهم لا تنطبق عليه هذه الأوصاف.

٤- ثم إنهم لما سألوا ربهم أن يقيم عذاب الجحيم وأن يدخلهم جنات عدن، ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا للمؤمنين. ناسب ذلك ذكر المؤمنين وإلا فليس من المناسب أن نسأل الجنة لكافر.

وأما آية الشورى فلم يرد مثل ذلك، بل ذكر فيها عموم الملائكة فناسب أن يذكر عموم أهل الأرض، ولم يذكر صفة أخرى تقيد هذا العموم.

ثم إنه لما ختم الآية بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ناسب ذكرها بين الصفتين وقصرهما وتعريفهما وتأكيدهما ذكر العموم.

الفصل الخامس

التعريف والتنكير

لقد تكلم علماء النحو عن المعرفة والنكرة وذكروا أقسام المعارف، فتحدثوا عن العلم، والضمير، واسم الإشارة، والاسم الموصول، والمعرف بـ (أل) وغيرها، ولكن حديثهم بالطبع كان من الناحية الإعرابية المحضة.

أما البلاغيون فقد تحدثوا عن الأغراض التي يكون من أجلها التعريف، سواء كان التعريف بالضمير أم بغيره كما تحدثوا عن الدواعي التي تقتضي التنكير.

التعريف:

أ- تعريف المسند إليه:

١- **التعريف بالضمير:** والضمير كما تعلم إما للمتكلم، أو المخاطب، أو الغائب.

أ- ضمير المتكلم: يؤتى به حينما يكون المقام مقام تكلم ومنه قوله تعالى: ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه:١٤] وقوله: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف:١٢].

ب- ضمير المخاطب: يؤتي به حينما يكون المقام مقام خطاب كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة:١٢] وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح:١٥].

والأصل في الخطاب أن يكون لمعين، وقد يكون لغير معين، أو يكون لمشاهد، لأنك إنما تخاطب من تشاهده وقد يكون لغير المشاهد إذا كان مستحضراً في قلبك كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

ج- ضمير الغائب: هو الذي تتحدث فيه عن الغائب، لذا فهو يختلف عما قبله، لأن الغائب الذي تتحدث عنه لا بد أن يسبق له ذكر، حتى يرتبط كلامنا بعضه ببعض قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك:١-٢] فأنت ترى أن الضمير هنا (هو) سبق ما يدل عليه وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

وأحياناً يفهم الضمير من المعنى كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور:٢٨] فإنه يتقدّم صراحة لفظ يدل على هذا الضمير، أعني (هو) لكن تقدم ما يدل عليه في المعنى كأنه قيل: وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا فالرجوع أزكى لكم.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء:١١] والمعنى: ولأبوي المتوفى (الميت) ولم يسبق له ذكر، ولكن لما كانت الآية تتحدث عن الإرث والتركة، فإن ذلك يُعلم من السياق.

وقد يكون الأمر من الوضوح بحيث يُفهم مرجع الضمير دون عسر أو عناء، اقرأ مثلاً قوله سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧] فإن الضمير هنا وإن لم يتقدّم له مرجع، لكن النفس لا تجد عسراً في معرفته، بل تجدها تتأثر بهذا الضمير أكثر مما لو وُضع مكانه الاسم الظاهر.

ضمير الشأن:

ومنه ضمير الشأن، وهو ما يدل على غرابة، ما تتشوق النفس لتعرف ما بعده ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] كيف تتشوق النفس إلى أن تعرف ما بعد الضمير (هو)؟ وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف:١٥٥].

٢- التعريف بالعلمية:

العلم: هو الذي يعين مسماه مطلقاً، ويؤتى به ليميّز مسماه من غيره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩] وقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ [نوح:٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف:١٥٠].

والأمثلة تدل أن العلم قد يكون اسماً أو كنية وهو ما صدر بـ (أب) أو (أم) فالاسم إذن غير الكنية واللقب ومثل ذلك:

١- الاسم: إبراهيم، محمد، نوح، موسى عليهم السلام – حمزة، سعاد.
٢- اللقب: الفاروق، ذو النورين، الصديق، نور الدين، صلاح الدين.
٣- الكنية: أم الفضل، أبو حيان، أبو لهب، أبو جهل، أبو بكر، أبو المكارم.

ويؤتى بالعلم من أجل تميّزه عن غيره، أو مدحه أو التلذذ بذكر اسمه، أو لتضفي عليه بعض الصفات التي تشعر بالمدح أو الذم.

٣- التعريف باسم الإشارة:

والأصل في الإشارة أن تكون لمحسوس، وقد ينزل غير المحسوس منزلة المحسوس والإشارة قد تكون للقريب مثل: هذا، وهذه، وقد تكن للمتوسط، مثل: ذاك، وقد تكون للبعيد؛ مثل: ذلك، تلك.

وللتعريف باسم الإشارة دواعٍ وأهداف بيانية يمكن أن تتلمس في الكلام الجيد وأن تستنتج من السياق.

ومن الأغراض البيانية للتعريف باسم الإشارة:

١- أن يقصد تمييزه أكمل تمييز: وذلك لإحضاره في ذهن السامع، فيكون أكثر تصوراً له، بحيث لا يغيب عنه شيء من أوصافه، تقول مثلاً: هذا كاتب (في ظلال القرآن) قدم للفكر من قلمه وللقلب من دمه.

٢- التعريض بالمخاطب: مثل قولك لمن يقلل من شأن أمتنا: (أولئك أسلافنا خلدوا المآثر، وشيدوا ذلك البناء، وخلفوا ذلك التراث).

٣- التعظيم: تارة يكون باستعمال اسم الإشارة للقريب، وتارة يكون للبعيد.

والواقع أن السياق هو الذي يقرر ذلك فقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] استعمل فيه اسم الإشارة للقريب (هذا) وقوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] استعمل فيه اسم الإشارة للبعيد (ذلك) والسياق هو الذي اقتضى ذلك، ألا ترى أن الآية الأولى ذكرت الهداية، وهذا يستدعي القرب، حتى يكون الهادي قريباً من المهدي. أما الآية الثانية، فجاءت لنفي الريب، وهذا يستدعي البُعد بالطبع.

ثم انظر إلى قوله سبحانه: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢] حكاية يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز مع أنه حاضر أمامها لكن أرادت أن تدلل على رفعته، وعلو منزلته، وبُعده عن أمثاله، فجاءت باسم الإشارة الدال على ذلك.

٤- التحقير: وقد يكون في القرب وفي البُعد كذلك.

فمن الأول ما حكاه القرآن عن المشركين، وعما يعتمل في نفوسهم من حقد على الحق ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان:٤١] وقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء:٣٦]. أما في البُعد كقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ [الماعون:١-٢].

٥- أن يسبق ذكر اسم الإشارة أوصاف، ويليه مآثر.

فيؤتى هنا باسم الإشارة تنبيهاً على أنه جدير بالمزايا التي أخبر بها عنه، وانظر إلى قوله تعالى في وصف المتقين الذين كان القرآن هداية لهم: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١-٥] فقد جيء باسم الإشارة (أولئك)، وقد ذكرت قبله أوصاف كثيرة للمتقين، وذكر بعده أنهم على هدى من ربهم وأنهم هم المفلحون، فجيء باسم الإشارة هنا تنبيهاً على أن المشار إليه الذي اجتمعت له هذه الأوصاف حري بأن تثبت له الهداية، هذه الهداية التي من شأنها أن تجعلهم لا يفرطون في كرامتهم ولا يرضون الهوان.

أما في الذم فقد جاء في سورة البقرة، فبعد ذكر المنافقين، وكذبهم في ادعاء الإيمان، وكونهم يخادعون الله والذين آمنوا، وكونهم في قلوبهم مرض، ثم ما ذكر بعد ذلك من أوصافهم، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٦].

٤- التعريف بالاسم الموصول:

والاسم الموصول من الأسماء المبهمة، ولذا فهو محتاج إلى الصلة دائماً؛ فالصلة هي التي تزيل إبهامه، ومن الأغراض التي يؤتى من أجلها بالاسم الموصول ما يلي:

١- أن يكون الوسيلة الوحيدة للمعرفة، فإذا رأيت شخصاً ما، ولكنك لا تعرفه، وأراد صديقك أن يذكر لك شيئاً عنه، فإنه لا وسيلة لهذه المعرفة إلا باسم الموصول فيقول لك: الذي رأيته عندي من المجاهدين الصادقين، الذي كان معنا في الأمس عالِم فاضل.

٢- قصد التعظيم والحث عليه: وذلك حينما ترى الحاجة تدعو إلى ذلك، تقول لصاحبك: جاء الذي أنقذك من مأزقك الحرج. جاء من أحسن إليك.

٣- تفخيم الأمر أو تهويله: وذلك مثل قوله سبحانه حديثاً عما لقيه آل فرعون ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ [طه:٧٨] فالذي يفيده الموصول هنا لا يفيده شيء آخر كأنه يقول: غشيهم من اليم شيء لا يمكن وصفه، لشدته، أو عنفه أو كثرته. ومنه قوله سبحانه وتعالى حكاية عما حل بقوم لوط عليه السلام: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم:٥٤] أي شيئاً كثيراً صعباً، ومثله قوله سبحانه – ولكن في سياق آخر – وهو سياق التعظيم والفخامة: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ [النجم:٢٦] فهو تعظيم لما يغشى السدرة مما لا يعلمه إلا الله.

٤- التنبيه على خطأ المخاطب: كقولك: إن الذين تنتظرون منهم إنصافكم من عدوكم يمدون عدوكم بكل فتاك ومدمر، الذين تظنونهم منصفين يضمرون لكم كل شر.

٥- زيادة تقرير الغرض الذي سيق الكلام من أجله. كقوله سبحانه: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف:٢٣] فالغرض الذي سيق الكلام من أجله هو عفة يوسف ونزاهته عليه السلام. وقد جاء الموصول يؤدي هذا الغرض على أحسن وجه وأكمله فلم يقل: (راودته زليخا أو امرأة العزيز) وإنما قال: ﴿ٱلَّتِي هُوَ

﴿فِي بَيْتِهَا﴾ وفي ذلك خير دلالة على نزاهته ﷺ، إذ كونه في بيتها، ليس بينها وبينه حجاب أو ساتر. فهو يراها في كل حين، وهذا من شأنه أن يجعله أكثر استجابة لما طلبت منه ولكنه مع ذلك قال ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ فالاسم الموصول كان له أكبر الأثر في بيان عفته ﷺ.

٦- **استهجان ذكره وعدم التصريح باسمه:** وذلك كقولك: جاءت التي أخرجها أمس من مكتبي. جاء الذي تحدثت الصحف عنه أمس.

٧- **الإيماء والإشارة إلى معرفة الخبر:** وهو قريب مما يسمون براعة الاستهلال، ومعنى ذلك أن يذكر المتكلّم شيئاً في أول حديثه يستطيع أن يدرك الفطن ما سيجيء بعده كقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] انظر إلى الصلة، وهي قوله: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ألا تدرك أنك ستفهم منها فحوى الخبر الذي لم يأت بعد، إن جزاء المستكبر الهوان والصغار، ولذا جاء الخبر دالاً على هذا ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ .

٥- **التعريف بـ (أل):**

وبعضهم يقول: التعريف باللام. وهذا ناشئ عن أيهما أداة التعريف (أل) أم (اللام) وحدها؟ .

يقسِّم العلماء (أل) إلى قسمين فهي: أ- للعهد، ب- للجنس. والفرق بينهما أن لام العهد هي الداخلة على أمر يشعر بمعرفة السامع له، لتقدمه في الذكر صراحة أو كناية إذا قلت: جاء الرجل، فأكرمت الرجل، فإن (أل) إنما هي للعهد، لأن هذا الرجل قد مرّ له ذكر من قبل.

أما (أل) التي للجنس فليس فيها ما يشعر بذلك، إنما تدخل على ماهية الشيء مما لم يسبق للسامع عهد به.

أولاً: أقسام (أل) العهدية:

أ- **العهد الصريح**: فهو أن يتقدم ذكر المعرّف صراحة كقوله سبحانه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٥-١٦].

ب- **العهد الكنائي (الكناية)**: فهو أن لا يتقدم للمعرف (بأل) ذكر صريح، وإنما يتقدم ما يدل عليه كناية: كقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران:٣٥-٣٦] وستجد أن كلمة أنثى ذُكرت مرتين مرة منكرة في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ ومرة معرفة في قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ ﴾ وهذا عهد صريح، لأن الكلمة نفسها قد ذكرت منكرة أولاً.

ولكن وردت كلمة (الذكر) مرة واحدة معرفة، مع أنه لم يسبق له ذكر صريح من قبل، ولكنك إذا نظرت في الآية مرة أخرى، تجد أنه – لم يذكر الذكر صراحة – لكنه ذكر بما يدل عليه فإن قوله سبحانه ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ دلَّ على أنها تعني ذكراً، لأن القيام بخدمة المعابد والتفرغ لها، كان خاصاً عندهم بالذكور دون الإناث، و(أل) في قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ ﴾ هي للعهد إذن، ولكنه ليس عهداً صريحاً وإنما هو عهد كنائي.

ج- **العهد العلمي أو الحضوري**: قد لا يسبق للمعرف بـ (أل) ذكر ألبتة لا صراحة ولا كناية ولكنك تدرك المقصود من نطق المتكلم: فإذا قال لك: جاء المعلم،

وأنت تعرف أنه ليس هناك غير هذا المعلم. فإن (أل) هنا للعهد ولكنه ليس عهداً صريحاً ولا كنائياً ومع ذلك علمت المقصود به وأحضرته في ذهنك إحضاراً تاماً، لذا سمي هذا العهد حضورياً أو علمياً.

ثانياً: (أل) الجنسية:

والجنس يشتمل الرجال، المرأة، الإنسان، الدراهم، أي أنها تصدق على أفراد كثيرين إذا دخلت (أل) على الجنس فيمكن أن نجد ما يلي:

١- قد يكون القصد الجنس دون النظر إلى الأفراد.

٢- وقد يكون القصد فرداً غير معين.

٣- وقد يكون جميع الأفراد، أما حقيقة وإما عرفاً.

مثال على ما سبق:

١- القصد الجنس دون النظر للأفراد: كقولك: شغل الناس الدرهم والدينار، فإننا لا نقصد درهماً معيناً ولا ديناراً معيناً وإنما نقصد جنس الدراهم والدنانير.

٢- القصد فرد وغير معين: كقوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٣] فإن (أل) في الذئب ليس مقصوداً بها الحقيقة، إذ لا يعقل ذلك، لأن حقيقة الذئب لا تأكل، وهي كذلك لا تدل على ذئب معين، بل المقصود أي ذئب من الذئاب.

٣- القصد منه الاستغراق: فهو قسمان:

أ- حقيقي: يشمل كل الأفراد كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢].

فـ (أل) في الإنسان تفيد الاستغراق، وتشمل جميع الأفراد.

ب- **عرفي**: وهو ما يدل على جميع الأفراد، ولكن من حيث العرف بحيث يكون المعرّف بـ (أل) يفيد العموم والشمول في حالة الجمع وحالة الأفراد معاً كقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٩٣] فإن (أل) في الآيتين الكريمتين داخلة على الجمع، ولا يمكن أن يقال: إن استغراق الجمع لا يشمل استغراق المفرد.

٦- التعريف بالإضافة:

والإضافة إنما تأتي للاختصار وأهمها:

١- الاختصار والإيجاز: مثل قولك: شوقي أسير، لا أُمَكَّن من الصلاة فيه. فهذا أخصر من قولك: المسجد الأقصى الذي أشتاق إليه أسير ولا أُمَكَّن من الصلاة فيه.

٢- الاختصار مع تعذر التفصيل: كقولك: أصحاب النبي ﷺ شيدوا صرح العلم والحضارة، فإن الإضافة هنا مع دلالتها على الإيجاز أغنتنا عن تفصيل متعذر.

٣- التشريف: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢] فإن التشريف للمضاف أو المضاف إليه.

٤- التخلص: كأن تقول: حضر قضاة المدينة، لا تريد تقديم أحدهم على الآخر حتى لا تقع في مأزق.

٥- التحقير: كقولك: آكل الربا يتظاهر بالرحمة.

ب- تعريف المسند:

عرفت أن المسند يكون فعلاً في الجملة الفعلية مثل: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] فكل من (جاء) و(زهق) مسند.

أما في الجملة الاسمية فتارة يكون اسماً، وتارة يكون فعلاً، فقولك: محمد رسول الله ﷺ . المسند هنا (محمد) الاسم. وقولك: عمرو فتح مصر، المسند فعل (فتح).

وحديثنا في الجملة الاسمية التي يكون المبتدأ والخبر اسمين. فالمبتدأ لا يكون إلا معرفة ولا يجوز أن يكون نكرة إلا إذا كانت نكرة مفيدة كالوصف على الخصوص أو العموم. أما الخبر (المسند) فهو ما تخبر به، لذا فلا مانع أن يكون مجهولاً للمخاطب كقولك: البحتري شاعر الطبيعة. إذا كان الخبر معرفة لا بد أن يكون المبتدأ معرفة، فلا يجوز أن يكون الخبر معرفة والمبتدأ نكرة.

(الخبر) – تعريف الخبر:

فالخبر يكون معرفة إذا كان هناك أمران يعرف المخاطب أحدهما ويجهل الآخر أو كان يعرفهما ولكن السياق يوجب تقديم أحدهما، فإنك تجعل الوصف الذي يعرفه أو الذي يقتضيه السياق مبتدأ، وما ليس كذلك خبراً.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأعراف:١٩٦] وقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. وكقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:١-٢] انظر كيف جاء لفظ الجلالة في الآيتين الأوليين، جاء موجزاً معجزاً.

أما في سورة الإخلاص: فلقد جاء الخبر منكراً في الآية الأولى (أحد) معرفاً في الآية الثانية (الصمد) لأنهم لم يفردوه بالوحدانية، ولم يعترفوا بها لغيره كذلك، أما الصمدية فمع أنهم كانوا يعترفون بها لله، فإنهم كانوا يعترفون بها لغيره كذلك، فجاء النظم في الآية الكريمة فعرّف الجزءين: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾، أي: الله وحده

الذي ينبغي أن تكون له هذه الصفة، فالصمدية له وحده لا يشاركه فيها غيره، ذلكم سر النظم.

الخبر قد يكون معرفاً بـ (أل) وهذا التعريف يكون لأغراض فقد تفيد:

١- القصر الحقيقي، وذلك إذا كان الخبر خاصاً بالمبتدأ لا يتجاوزه لغيره، كقول: محمد الخاتم للأنبياء. فهذا الوصف لا يصدق على أحدٍ غير سيدنا محمد ﷺ.

٢- فإن الخبر يكون معرفاً بـ (أل) لبيان كمال الوصف فإذا قلت: زيد الأسد، فأنت هنا تدعي أن زيداً هو الشجاع الكامل في الشجاعة.

٣- قد يفيد المبالغة على سبيل الادعاء، كأن تثبت أن زيداً الشجاع، أي: على معنى أنك ادعيت أن الشجاعة ثبتت له دون غيره.

٤- يفيد ثبوت الوصف للموصوف من غير أن ينكر اتصاف غيره به مثل قول الشاعرة: رأيت بكاءك الحَسَن الجميلا، فالحسن (مسند) وهو معرف بـ (أل) ولكن لما دخل عليه فعل ينصب مفعولين وهو (رأيت) صار مفعولاً به ثانياً. لقد أرادت الشاعرة أن تقر أن الحسن هو الحسن الظاهر الذي لا ينكره أحد.

٥- الصفة التي تريد الإخبار بها عن المبتدأ مجراة على موصوف كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:٥] ومعنى التعريف في ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الدلالة أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة، كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو؟ فقيل: زيد التائب. أي: هو الذي أخبرت بتوبته أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين، وتحققوا ما هم، وتصوروا بصورتهم الحقيقية فهم لا يعدون تلك الحقيقة كما تقول لصاحبك: هل عرفت الأسد وما جُبِل عليه من فرط الإقدام؟ إن زيداً هو هو[1].

---

(١) الكشاف، للزمخشري، (١/ ٤٩).

التنكير:

النكرة: ما شاع في جنسه دون أن يدل عل معين. كما أن السياق هو الذي يدلك على المراد من التنكير ألا ترى قوله سبحانه: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة:٩٦] وقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة:١٧٩] فإن كلمة ﴿ حَيَوٰةٌ ﴾ جاءت نكرة في الآيتين، ولكنها تدل في كل آية على معنى، ففي الآية الأولى تدل على أي حياة مهما كانت، ولكنها في الآية الثانية تدل على حياة عظيمة، حري بأن يحافظ عليها.

السياق يرشدك إلى الأغراض الكثيرة حينما تتأمله، وتحسن الاستفادة منه، ولأن السياق هو الذي يدل على المراد من التنكير، نجد العلماء يختلفون تبعاً لاختلافهم في فهم المعنى، فمثلاً قوله سبحانه: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة:٧] قال الزمخشري: إن هذا التنكير يفيد النوعية أي: على أبصارهم نوع خاص من الغشاوات، ولهم نوع من العذاب خاص بهم، وقال السكاكي: إن المراد من هذا التنكير العظيم كأنه قال: غشاوة عظيمة تليق بحالهم. وعذاب كذلك.

وخذ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران:٢٣] فذهب بعضهم إلى أن تنكير (نصيباً) يفيد التقليل، أي: أوتوا حظاً قليلاً، فلماذا الغرور؟ بينما ذهب آخرون إلى أن التنكير هنا يفيد التكثير والتعظيم أي: أوتوا حظاً وافراً يمكنهم من معرفة الحق، فلم هذا الجحود إذن؟ .

والفرق بين التعظيم والتكثير، أن التكثير يكون في الكمية، أما التعظيم فيكون في الكيف، التنكير إذن متعدد الأغراض وما أجدرك أن تقف مع الآيات الكريمة

في كتاب الله، لتنعم باللطائف التي يدل عليها السياق، وقد يكون التنكير للأفراد وذلك كقوله سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص:٢٠] أي: فرد واحد لا أكثر. وقد يكون للتعظيم كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ [ص:٢٩] وقد يكون للتقليل كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] وقوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] أي: أي شيء من ثواب الله فإنه خير من المتع المادية، وقد يكون هذا للتعظيم كذلك.

خلاصة القول أننا لا يمكن أن نحصر لك أغراض التنكير ولكن نذكر بعضها من خلال السياق القرآني. اقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠] فإنك تجد في هذه الكلمات المنكرة في الآية الكريمة تفيد أغراضاً كثيرة يمكنك أن تستنتجها من السياق. ولعلك تدرك بعد هذا أن التنكير يتنافى مع الاختصاص الذي يفيد التعريف.

وسنعرض لك أمثلة عديدة من الإعجاز القرآني حول التعريف والتنكير. فتأمل يا رعاك الله!!.

أسرار الإعجاز القرآني في التعريف والتنكير:

١- ومن قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١] وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١١٢].

فعرّف (الحق) في الأولى ونكره في الثانية. وذلك أن كلمة (الحق) المعرّفة في آية البقرة تدل على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل، والحق الذي يدعو إلى القتل معروف معلوم.

وأما النكرة فمعناها أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً لا حق يدعو إلى قتل ولا غيره، أي ليس هناك وجه من وجوه الحق الذي يدعو إلى إيذاء الأنبياء فضلاً عن قتلهم، فكلمة (حق) هاهنا نكرة عامة، وكلمة (الحق) معرّفة معلومة، والقصد من التنكير الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلهم أكثر ما في التعريف، وذلك لأن التنكير معناه أنهم قتلوا الأنبياء بغير سبب أصلاً لا سبب يدعو إلى القتل ولا غيره، فمقام التشنيع والذم هاهنا أكبر منه ثم وكلاهما شنيع وذميم فجاء التنكير في مقام الزيادة في ذمهم.

٢- ومن قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١] فعرف (الحق) فيها، وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١١٢] فنكر (الحق).

ومن الواضح أن مواطن الذم والتشنيع عليهم والعيب على فعلهم في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة يدل على ذلك أمور منها.

١- أنه في سورة البقرة جمع الذلة والمسكنة، وأما في آية آل عمران فقد أكد وكرر وعمم فقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [آل عمران:١١٢] فجعلها عامة بقوله: ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ ثم قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فأعاد الفعل وحرف الجر للزيادة في التوكيد، فإن قولك: (أنهاك عن الكبر وأنهاك عن الرياء) آكد من قولك: (أنهاك عن الكبر والرياء).

٢- أنه ذكر الجمع في آية البقرة بصورة القلة فقال: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وذكره في آية آل عمران بصورة الكثرة فقال: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ أي: يقتلون

العدد الكثير من الأنبياء بغير حق. فالتشنيع عليهم والعيب على فعلهم وذمهم في سورة آل عمران أشد. ومن هنا يتبين أن التعريف في آية البقرة أليق والتنكير في آية آل عمران أليق وأنسب.

٣- وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ [البقرة:٢٣٤] فعرّف المعروف وأما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ﴾ [البقرة:٢٤٠] فنكّره (معروف)، وذكر أن المقصود بـ (المعروف) هنا الزواج، وأما غير المعرّف فيراد به ما لم يستنكر فعله من خروج أو تزيّن.

إذاً ما جاء في الآية الأولى يتعلق بإباحة التزوج بعد انقضاء العدة، فالمعروف هنا أمر الله المشهور، وهو فعله وشرعه الذي بعث عليه عباده والمراد أيضاً فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن من تزوج أو قعودهن فالمعروف هنا، فعل من أفعالهن يعرف في الدين جوازه، وهو بعض ما لهن أن يفعلنه، ولهذا المعنى خص بلفظ (من) ونكر، فجاء المعروف في الأول معرّف اللفظ لما أشرنا إليه، وهو أن يفعلن في أنفسهم بالوجه المعروف المشهور الذي أباح الشرع من ذلك وهو الوجه الذي دلّ الله عليه وأبانه، فعرّف إذ كان معرفة مقصوداً نحوه وكذلك خص بالباء وهي للإلصاق.

ومما يدلل على ذلك أيضاً أمور منها أن الآية الأولى ذكر فيها قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ﴾ فقوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ معناه: يصبّرن أنفسهن هذه

المدة ليتسنى لهن الزواج، ثم ذكر العدة التي يحق لهن التزوج بعدها ثم جاء بالباء الدالة على الإلصاق، والزواج إلصاق كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧].

ومن ناحية أخرى إنه عرّف (المعروف) المقصود به الزواج لأن الزواج شيء واحد معروف، ونكر الثاني لأنه لم يقصد به فعل معين، بل كان ما كان مباحاً لهن في الشرع فنكره لذلك.

٤- ومنه قوله تعالى: ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [آل عمران:٩٣-٩٤] فجاء بالكذب معرّفاً لأنه مخصص بهذه المسألة (مسألة الطعام) وقوله: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس:٦٨-٦٩] فعرّف الكذب لأنه مخصص بمسألة معينة: وهي زعمهم اتخاذ الله ولداً سبحانه. وقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:١٠٣] فاستعمل الكذب معرّفاً لأنه مخصص بمسألة الأنعام.

في حين قال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى:٢٤] وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ

﴿ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [المؤمنون:٣٨] فأنت ترى أنه استعمل المعرّف لأمر مخصص في حين استعمل المنكر لما هو عام.

٥- ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَبُعۡدًا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٤١] وقوله: ﴿فَبُعۡدًا لِّقَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون:٤٤] فعرّف (القوم) في الآية الأولى ونكّر (قوم) في الآية الثانية، وذلك لأن الأولى في قوم معينين وهم قوم صالح فعرّفهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ﴾ [المؤمنون:٤١] وأما الثانية فلم تكن في قوم معينين بدليل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون:٤٢] وقوله: ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضًا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدًا لِّقَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [المؤمنون:٤٤] فخصهم بالنكرة.

٦- ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٢٠٠] وقوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [فصلت:٣٦].

فقد وردت الصفتان في الأعراف منكرتين (سميع عليم) ووردتا في فصلت معرفتين وزيد قبلها ضمير الفصل، وذلك أنه ورد قبل آية الأعراف وصف آلهتهم بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تتحرك ولا تقدر على شيء مما يدل على أنها ليس فيها شيء من الحياة، فوصف الله نفسه بالسمع والعلم في مقابل آلهتهم التي لا تسمع ولا تعي، وأما في آية فصلت فقد تقدّم قبلها قوله: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [فصلت:٢٢] فأثبتوا لله سبحانه قليل العلم ونفوا عنه كثيرة فاقتضى أن يبين لهم أنه هو المختص بالعلم الكامل والسمع الكامل فجاء بالصفتين معرفتين

للدلالة على الكمال في الوصف وجاء ضمير الفصل للدلالة على قصر هاتين الصفتين عليه سبحانه وبيان أن كل ما عداه لا يعلم ولا يسمع إذا ما قيس بعلمه وسمعه. ولو جاء بهما نكرتين لم يفيدا هذا المعنى، إذ كل ما عنده سمع وعلم يصح أن يوصف بأنه سميع عليم.

٧- ومنه الاختلاف في التعريف، فقد يعرّف اللفظة مرة بـ (أل) ومرة بالإضافة وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٥] وقوله: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٢] فقد عرّف الطغيان بالإضافة وعرف (الغيّ) بـ (أل) وذلك أنه أسند المد في آية البقرة إلى الله تعالى فقال: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فالله إنما يمدهم في طيغانهم هم، ولا يمدهم في طغيان جديد لم يفعله.

في حين أسند المد في آية الأعراف إلى الشياطين فذكر أنهم يمدونهم في غي جديد لا في غيهم وحده، فهم يضيفون غياً إلى غيّهم.



الفصل السادس

الفصل والوصل

تعريف الفصل والوصل:

الفصل والوصل هو العلم بمواضع العطف والاستئناف والتهدِّي إلى كيفية إيقاع حرف العطف في مواقعه أو تركه عند عدم الحاجة إليه[1].

أساسيات الفصل والوصل:

١- إذ ذكرت عدة صفات لموصوف واحد، فقد تعددها دون حرف العطف، أو يذكر حرف العطف اضطراراً بين بعض الصفات وذلك لحسن النظم أو جمال الأداء.

ومثال ذلك قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] وقوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:١١٢].

تأمل الآيتين تجد في الآية الأولى أن الصفات منها ما هو متغير بحسب الظاهر، فهي صفات متقابلة (الأول والآخر)، (الظاهر والباطن) فإن هذه وإن كانت كلها لله تبارك وتعالى؛ إلا أن لكل منها معناه الخاص به، فالأول: الذي ليس قبله شيء، والآخر: الذي ليس بعده شيء، وكذلك ما جاء في الآية الكريمة: ﴿ٱلْآمِرُونَ

---

(١) علوم البلاغة (للمراغي)، ص١٩٣.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:١١٢] فالصفات التي ذُكرت في الآية الكريمة الثانية كلها سردت دون حرف عطف إلا هاتين الصفتين الأمر والنهي.

ومن هنا ندرك أن هذه الصفات المتقابلة أو المتضادة – سواء كان ذلك في الظاهر أم على سبيل الحقيقة فإنك تأتي بحرف العطف وإلا فلا داعي لهذا الحرف.

٢- إذا أردت أن تأتي بأحد التوابع (النعت، التوكيد، البدل، عطف البيان) لا يجوز أن توسط حرف العطف بين هذه التوابع والمتبوع كقولك: يعجبني الطالب المجتهد، جاء الأستاذ نفسه، رحم الله الخليفة عمر، أعجبتني الشجرة ارتفاعها، ولا يجوز أن تضع حرف العطف.

٣- العطف يقتضي أمرين اثنين: التغاير والتشريك فإذا قلت: جاء أحمد ومحمد فإن هذا العطف يدلنا على أن أحمد غير محمد ولكنهما اشتركا في أمر وهو المجيء. فإذا انتفى أحد هذين الأمرين (التغاير والتشريك) لم يحسن العطف. أما أمر التغاير، فلا يصح عطف الشيء على نفسه أو على جزئه، وأما أمر التشريك (الجامع) فلا بد منه، فلا نستطيع أن نجمع بين أمرين ليس بينهما نوع من الصلة.

٤- حروف العطف كل واحد منها له مع دلالته على العطف معنى آخر، فالفاء (للترتيب والتعقيب) ثم (للتراخي) بل (للإضراب) أو (للتخيير) حتى (انتهاء غاية زمنية) ولكن الواو وحدها من بين حروف العطف هي التي ليس لها أي معنى آخر، ومن هنا اختصت في مباحث الفصل والوصل.

٥- الجمل قسمان:

أ- جمل لها محل من الإعراب: وهي التي تقع خبراً، أو حالاً، أو صفة، أو مفعولاً به، أو مضافاً إليه، أو جواباً لشرط جازم، أو التابعة لواحدة من هذه.

ب- جمل ليس لها محل من الإعراب: وهي الابتدائية، والمعترضة، وصلة الوصل، والاستئنافية، والتعليلية، والتفسيرية، والواقعة جواباً للقسم ولشرط غير جازم، والتابعة لواحدة من هذه.

والفرق بين هذين النوعين، أن الجملة التي لها محل من الإعراب تسد مسد المفرد مثال: أبصرت الشمس تشرق، فإن جملة (تشرق) جملة حالية ويمكن أن يسد مسدها المفرد، فتقول: أبصرت الشمس مشرقة.

أما الجملة التي ليست لها محل من الإعراب فليست كذلك، أي: لا يسد مسدها المفرد، وأكثر مباحث الفصل والوصل تتعلق بالنوع الثاني ذلك أن النوع الأول حكمه حكم المفرد، ويزداد العطف حسناً إذا كان:

١- في الكلام ما يشبه التضاد، مثال: هو يعطي ويمنع، ويحل ويعقد، يحسن ويسيء.

٢- إذا أردت ذكر أمرين لا يتصور فصل أحدهما عن الآخر. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [غافر:٤١] ومنه قوله تعالى يحذر المؤمنين من أن يتخذوا بطانة من دونهم ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١١٩] وانظر إلى قوله: ﴿تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ وكأنه قال: «تؤمنون بكتبهم ولا يؤمنون بكتابكم».

أحوال الجمل:

١- الجملة مع الجملة ليستا شيئاً واحداً في جميع الأحوال، فقد يكون بين الجملتين اشتراك في المعنى، فتقع الجملة الثانية من الأولى كأنها هي أو جزء منها، فليس بينهما تغاير لأن الثانية ليست أجنبية عن الأولى.

٢- وقد يكون الأمر على العكس من ذلك. فتجد بين الجملتين تغايراً تاماً لا تمت إحداهما إلى الأخرى بأي نسب أو رباط، من حيث المعنى، أو من حيث الصورة اللفظية.

٣- أما النوع الثالث من الجمل، نجده وسطاً بين النوعين السابقين، ففي هذا الجملة الثانية فيه ليست مماثلة للأولى، ولا مشاركة لها في المعنى، ولا هي جزء منها، وليست بعيدة عنها كل البُعد، لا رابطة بينهما ولا صلة، ولكننا نجد في هذا النوع تغايراً ومع هذا التغاير روابط وصلات ومعنى مشتركاً أو جامعاً.

أمثلة على أقسام الجمل:

١- ليستا شيئاً واحداً، وبينهما اشتراك في المعنى:

أ- إنها ذات دين، إنها تلبس الجلباب.
ب- سناء ذكية، كانت الأولى في امتحانها النهائي.
ج- إنه تقي، إنه يقوم الليل.

الجملة الثانية ليست أجنبية عن الجملة الأولى بل تحمل معنىً مشتركاً. فإن قيام الليل في المثال الثالث ليس أمراً مغايراً للتقوى.

أمثلة على النوع الثاني:

الأمر على عكس من ذلك، هناك تغاير تام، ولا تمت إحداهما إلى الأخرى برابطة، من حيث المعنى والصورة اللفظية.

١- خرجت من بيتي صباحاً، أصدق بيت في الشعر بيت لبيد.
٢- الجو السياسي ملبد بالغيوم، سآكل اليوم منسفاً.
٣- العربية لغة الإيجاز والموسيقى، أمريكا احتلت العراق.

إذا تأملت الأمثلة الثلاثة، تجد أن الجملة الثانية لا صلة لها مطلقاً بالجملة الأولى، فهي على النقيض تماماً من القسم الأول.

أمثلة على النوع الثالث:

- السماء صافية ونجومها واضحة، سيسقط المطر ليلاً.
- جنوب لبنان حروب مستقلة، البناء بعد الدمار واجب الإنسانية.

تجد أن هناك رغم الاختلاف معنى مشترك من بعيد.

مواطن الوصل:

أولاً: اتفاق الجملتين خبراً وإنشاءً:

الوصل: إنما يأتي في حالة وسط، والعطف يقتضي أمرين: التغاير والتشريك فإذا كانت الجملتان متغايرتين معنى، متفقتين خبراً وإنشاءً، فإنه يجب الوصل.

أ- مثال الخبريتين: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤].

ب- مثال الإنشائيتين: قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد:٧].

ج- ومما اجتمع فيه الخبر والإنشاء قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٧٥-٧٦]

فانظر إلى الإنشائيتين في قوله تعالى: ﴿أَخْرِجْنَا﴾ و ﴿وَٱجْعَل لَّنَا﴾ وإلى الخبريتين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ و ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ .

ثم إن الجملة الإنشائية قد تكون لفظاً ومعنى، وقد تكون إنشائية معنى خبرية لفظاً وذلك في مثل قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة:٨٣] فإن قوله سبحانه: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ جملة خبرية لفظاً، لكنها إنشائية معنى، بمعنى لا تعبدوا إلا الله، ولهذا عطف عليها قوله سبحانه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أي: أحسنوا إحساناً، فكلتا الجملتين إنشائيتين.

ثانياً: كون الفصل مخلاً بالمعنى:

عندما تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً فيكون بينهما كمال الانقطاع، هنا يجب الفصل ولكن قد يكون هناك مانع من الفصل، لأنه يترتب عليه إخلال في المعنى.

إن علماء البلاغة يسمون هذا كمال الانقطاع مع الإيهام. ويعنون بأن كمال الانقطاع إذا كان بين الجملتين يجب الفصل، إلا إذا كان هناك إيهام بتغيير المعنى فإنه يجب الوصل.

ومثال ذلك: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩] إن في الآية الكريمة وصلاً وفصلاً ففي قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ جاءت مفصولة عن سابقتها، ولا يخفى عليك أن هذا الفصل كان له ما يسوغه ويقتضيه، لأنها جاءت جواباً عن سؤال مقدر في الأولى، كأنه قيل: ولم استحق أولئك جهنم. ولم ذرئوا لها؟ فقيل: لهم قلوب لا يفقهون بها.

أما الجمل الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ ﴾ و﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ ﴾ فإنها مشابهة للأولى من حيث الخبرية مشتركة معها في الحكم.

أما قوله سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ فإنها جاءت مفصولة عن سابقتها؛ لأنها تأكيد لها، فإنهم ما داموا لا يستفيدون من هذه الجوارح التي أنعم الله بها عليهم (القلوب، الأعين، الآذان) فليس معنى هذا إلا أنهم كالأنعام.

ولعلك تتساءل هنا عن مجيء العطف تارة، وتركه تارة مع تماثل الجمل فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ يشبه من حيث التركيب قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ جاءت الواو في الجملة الثانية وتركت في الأولى لأن كلاً منهما جزاء خاص، فهم على هدى من ربهم في الثانية، وفي هذا تصحيح لمسيرتهم، وهم المفلحون، وفي هذا تحقيق للغاية والنتيجة الطيبة التي حصلوا عليها.

عطف الجمل:

أ- عطف الجملة على ما قبلها: الجملة المعطوفة حريّ بها أن تعطف على ما قبلها مباشرة وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] وقوله سبحانه: ﴿ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٧-١٠٨] ففي الآية الأولى جمل إنشائية عطف بعضها على بعض وفي الآية الثانية جملتان خبريتان عطف إحداهما على الأخرى.

وقد نجد أن الجملة المعطوفة لا يجوز عطفها على ما قبلها مباشرة، وإنما ينبغي أن تعطف على جملة سابقة للتي قبلها، وذلك إذا كان في النص جمل متعددة فإذا جئنا للجملة الأخيرة لنعطفها على ما قبلها، وجدنا ذلك غير ممكن، لأنه يخل بالمعنى، فلا بد أن نبحث عن جملة سابقة لهذه الجملة حتى يصح العطف عليها، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ ﴾ [النساء:٦] في النص الكريم أكثر من جملة.

١- ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ .

٢- جملة الشرط وجوابه ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾ .

٣- ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا﴾ .

وجملة ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ﴾ ليست معطوفة على ما قبلها وإنما معطوفة على الجملة الأولى ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ .

ب- **تناسق الجمل المعطوفة:** إن عطف الجملة على الجملة المشابهة لها من حيث التركيب يكون أكثر انسجاماً وتكون النفس أكثر قبولاً له. كأن تعطف الجملة الاسمية على الجملة الاسمية، وأن تعطف الجملة ذات الفعل المضارع على مثلها. وكذلك الجملة ذات الفعل الماضي، وهذا هو الأصل، كقولنا يقوم ويقعد، وقام وقعد. ومن مثال ذلك قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ [الشعراء:٧٧-٨١] وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود:٤٥] وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ [النجم:٤٣-٤٤].

فأنت ترى أن هنا جملاً اشتركت في المعنى، عطفت بعضها على بعض، وأخرى اشتركت في المضارعة، عطفت بعضها على بعض، وهذا من محسنات الوصل.

ولكن قد يخالف هذا الأصل لحكمة بيانية، وغرض بلاغي، فقد تعطف الجملة الاسمية على الفعلية، والمضارع على الماضي، وبالعكس.

والجملة الاسمية تدل على الثبوت، والجملة الفعلية تدل على الحدوث، والفعل المضارع يدل على التجدد، كما يقصد منه استحضار صورة الماضي، فإذا قصد معنى من

هذه المعاني تغير العطف بين الجمل، فإذا قرأنا قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴾ [الأعراف:١٩٣] فإن قوله: ﴿ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴾ جملة اسمية عطفت على قوله سبحانه: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾ وهي جملة فعلية، فمقتضى الظاهر أن يقال: دعوتموهم أم صمتم ولكن حصل تغيير بين الجملتين، لهدف بلاغي وهو بيان أن صمتهم أمر ثابت دائم لأن دعوتهم لا تجدي شيئاً.

ومثله قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٥] فإن قوله سبحانه: ﴿أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ﴾ جملة اسمية عطفت على جملة فعلية وهو قوله سبحانه: ﴿ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ فكان مقتضى الظاهر أن يقال: جئتنا بالحق أم لعبت ولهوت، ولكن القوم أرادوا بتعنتهم أن يصوروا إبراهيم عليه السلام بأن دأبه وشأنه اللعب واللهو، فعدلوا إلى الجملة الاسمية بدلاً من الفعلية.

ومن هذا القبيل قوله تعالى نعياً على اليهود وتوبيخاً لهم: ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة:٨٧] فمقتضى الظاهر أن يقال: فريق كذبتم وقتلتم، ولكن لما كان القتل شيئاً شنيعاً مستعظماً، عدل عن الماضي إلى المضارع، لأن المضارع استحضار صورة الماضي، لتكون ماثلة أمام النفس. فتكون أكثر تأثيراً وتكون النفس منها أشد اشمئزازاً.

وعكس هذا قوله سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٩] فإنه عبّر عن الاستغاثة بالمضارع استحضاراً للصورة، وعبّر عن الاستجابة بالفعل الماضي لأن فيها زيادة اطمئنان للنفوس.

وهذا كثير يدركه من تأمل ونظر في الكلام البليغ، وتذوّق النظم، لينسج على منواله، وقد مرّ معنا من هذا القبيل: نجوت وأرهنته مالكاً وقمت وأصك وجهه.



الفصل السابع

الإيجـاز والإطنـاب

تعريف الإيجاز والإطناب:

الإيجاز: تأدية المعنى الكامل بلفظ قليل.

والإيجاز غاية دائماً، إذا كان يستدعيه المقام، وتتطلبه أوضاع المخاطبين ومقام الإيجاز في البلاغة وافر.

إذن الإيجاز: قصد اللفظ مع وفاء المعنى، أو استثمار أقل قدر من الألفاظ في أكبر قدر من المعنى.

وليس الإيجاز قلة اللفظ بل لا بد من أن يكون المعنى وافياً كاملاً وهذا هو العنصر الأهم.

ويقابل الإيجاز الإطناب. ولكن هل بين الإيجاز والإطناب واسطة؟ قالوا: إن المساواة وسط بين الإيجاز والإطناب.

الإطناب: المبالغة في الشيء، أي: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة.

الإيجـاز

أقسامه:

أ- إيجاز حذف.

ب- إيجاز قصر.

أ- إيجاز الحذف: أن نحذف جزءاً من الكلام الذي نعبر به عن المعنى المراد، وقد يكون هذا الجزء كلمة، وقد يكون جملة. وهذا المحذوف لا بد أن يستغني الكلام عنه، أي: يُفهم بدونه، كما أن هذا الحذف لا بد من قرينة تدل عليه.

والأدلة على الحذف كثيرة منها:

١- دلالة الحال: كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات:٢٤-٢٥] فإن الحال يدل على أن في الآية أكثر من محذوف.

أ- في قوله سبحانه: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي: نسلم سلاماً.

ب- وفي قوله سبحانه: ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ أي: عليكم السلام.

ج- وفي قوله سبحانه: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتم قوم منكرون.

٢- دلالة المقال: كقوله سبحانه: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ [النحل:٣٠] أي: أنزل خيراً، وإنما دلنا على هذا المحذوف ﴿أَنزَلَ﴾ القول الذي تقدّم عليه ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ﴾.

٣- **دلالة العقل**: وقد يرشد إلى المحذوف العقل، وهذا المحذوف الذي يُرشد إليه العقل، تارة يعينه العقل نفسه، وتارة يعينه الشرع، وتارة يعنيه العُرف.

وما دلّ العقل على حذفه أقسام ثلاثة:

أ- **ما عينه العقل**: وذلك مثل قوله ﷺ: «نادِ الجفنة» فقال: يا جفنة الركب! والجفنة لا تُنادَى، وإنما يُنادَى صاحبها، ليحضرها، وهي وعاء كبير يوضع فيه طعام القوم.

ب- **ما عينه الشرع**: فقد يدل العقل على الحذف، ولكن الشرع هو الذي يعيّن المحذوف، كقوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣] فهل حُرِّم أكلها أم الانتفاع بها من شعر وجلد وغير ذلك؟ الشرع يعين المحذوف هنا، وهو الأكل. وكذلك إذا قلنا: حُرم النمر علينا. فما الذي حُرم يا ترى؟ أركبه، أم الانتفاع به؟! الشرع يعين المحذوف، وهو الأكل كذلك.

ج- **ما عينه العُرف**: وقد يدل العقل على أصل الحذف، ولكن العرف هو الذي يعين المحذوف، وذلك كقوله تعالى عن امرأة العزيز تخاطب النسوة: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢] فإن العقل يدل على محذوف، فيوسف عليه السلام ليس محلاً للوم، وإنما اللوم في شأن من شؤونه، ويحتمل أن يكون لومهن لها إما على حبها المفرط له لقولهن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف:٣٠] وإما على مراودته لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف:٣٠] ولكن الحب لا لوم فيه لأنه لا اختيار لصاحبه فيه، وإنما هو شيء خارج عن نطاق إرادته.

العرف إذن يعين المحذوف: وهو المراودة.

٤- **دلالة العادة**: وقد يكون هناك محذوف لم يدل عليه العقل، وإنما أشارت إليه العادة، وذلك كقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٧] والمحذوف هنا تعينه العادة؛ لأن القوم كانوا ذوي معرفة في القتال، فكأنهم قالوا: لو نعلم ما يسمى قتالاً.

٥- **دلالة الصناعة النحوية**: ومثل قوله سبحانه: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٥] فإن النحويين يقدّرون في مثل هذا (لا)، أي: تالله لا تفتأ، ولذا إذا قلت: والله أفعل كذا، وفعلت، فقد حنثت؛ لأن معنى، والله أفعل: والله لا أفعل، فلا بد من تقدير (لا) في مثل هذا التركيب، فإذا أردت أن تقسم على الفعل الذي تريد أن تفعل، فينبغي أن تقول: والله لأفعلن كذلك، وهذا مبسوط في علم النحو.

إيجاز الحذف أقسامه:

أ- إيجاز حذف كلمة.

ب- إيجاز حذف جملة.

مواضع إيجاز حذف الكلمة:

١- **حذف المبتدأ**: كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة:١٠-١١] أي: هي نار. وقوله سبحانه: ﴿فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٤] أي: هذا ساحر، وقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦] أي: هم عباد.

٢- **حذف الخبر**: كقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴾ [الرعد:٣٥] أي: دائم، وقوله سبحانه: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٣١] الخبر محذوف أي لولا أنتم حاضرون.

٣- **حذف الفاعل**: وهذا في فاعل المصدر نحو قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ ﴾ [فصلت:٤٩] أي: دعائه الخير، وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ [القيامة:٢٦] أي: الروح.

٤- **حذف المفعول**: مثل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ ﴾ [الأعراف:١٥٢]، أي: إلهاً وقوله سبحانه: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ﴾ [السجدة:١٤]، أي: فذوقوا العذاب.

٥- **حذف حروف المعاني**: كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف:٨٥]، أصله: لا تفتأ.

٦- **حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه**: كقوله تعالى: ﴿ وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف:٨٢] والمقصود: أهل القرية. وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ [الأنبياء:٩٦]، أي: سد يأجوج ومأجوج.

٧- **حذف المضاف إليه**: نحو قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ [الروم:٤] أي: من قبل ذلك ومن بعد، وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ [الأعراف:١٤٢]، أي: عشر ليالٍ.

٨- **حذف الجار والمجرور**: نحو قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبة:١٠٢] أي: عملاً صالحاً بسيئ، وآخر سيئاً بصالح، ودل على هذا كلمة (خلط) ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، أي: من كل شيء.

٩- **حذف الموصوف**: نحو قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الصافات:٤٨]، أي: حور قاصرات. وقوله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان:٧١]، أي: عمل عملاً صالحاً.

١٠- **حذف الصفة**: ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:٤] أي: من جوع شديد، وآمنهم من خوف عظيم، ويدل على هذا

التنكير قوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥]، أي: مضافاً إلى رجسهم.

وحذف الصفة أقل من حذف الموصوف؛ لأن الصفة تأتي لإيضاح الموصوف وبيانه فيكثر قيامها مقام الموصوف.

١١- حذف الشرط: ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦] ، أي: إن لم يتسن لكم إخلاص العبادة في أرض، فأخلصوها في غيرها، وقوله سبحانه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم:٣١] أي: إن قلت لهم: أقيموا يقيموا، وقوله سبحانه: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] أي: فإن تتبعوني.

١٢- حذف جواب الشرط: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف:١٠] تقديره: ألستم ظالمين؟ ويدل على هذا المحذوف قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٠] وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام:٢٧] أي: لرأيت أمراً فظيعاً، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام:٩٣]، أي: لرأيت سوء حالهم.

١٣- حذف القسم: وذلك كقولك: لأخرجن أو لأفعلن، أي: والله لأفعلن.

١٤- حذف جواب القسم: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:١-٥] تقدير الجواب: لتعذبن، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ

سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات:١-٦] تقديره لتبعثن، ولتحاسبن، بدليل إنكارهم للبعث في قولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ [النازعات:١٠].

١٥- حذف الحال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]. أي: قائلين: سلام عليكم.

إيجاز حذف الجمل:

إن الجملة إذا حذفت تحدث خللاً في المعنى ونقصاً في الغرض المقصود، فلا يستطيع أحد أن يرتب كلامه بحيث إذا حذف منه جمل مستقلة يؤدي الغرض المراد. ولكن كلام رب العالمين يعطيك المعاني كاملة اقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [البقرة:٢٦٠] تأمل قوله تعالى: ﴿فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾ والمعنى أملهن، واضممهن إليك وقطعهن أجزاء مختلفة ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، فأنت تدرك هذا الحذف بذوقك، وتتذوق جمال الإيجاز فيه.

ومثال ذلك قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴾ [يوسف:٥٨-٥٩] ولا بد أن تتساءل هنا ماذا حدث بينهم وبينه، هل عرَّفهم بنفسه، يقيناً لا. كيف طلب منهم هذا الطلب لا بد أن

تكون هنا جمل محذوفة بعد أن عرَّفوه بأنفسهم وشرحوا شيئاً عن أسرتهم، أخبروه أن لهم أخاً آخر من أبيهم، قال لهم ما قال.

ومثل هذا الحذف في سورة النمل: قال تعالى: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل:٢٨-٢٩] وهنا تجد جملاً كثيرة قد حذفت، أي: فذهب الهدهد، وحمل الكتاب، فألقاه، فأخذته وقرأته، وجمعت قومها: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٢٩-٣١].

وفي سورة القصص: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٢٤-٢٥] وأظنك بعد ما مر تدرك مواطن الحذف أي: فذهبتا إلى أبيهما، فأخبرتاه الخبر، فأرسل إحداهما تدعوه، فجاءته، وأخبرته فسار معها إلى أبيها، فلما جاءه وقصّ عليه القصص، قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين.

وقد يكون إدراك هذا الحذف من الأمور السهلة الميسرة كالجمل التي تحدثنا عنها وقد يحتاج إلى تأمل، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك:١٩-٢١] فكأنه بعد هذا التبكيت قيل: إنهم لم يتأثروا بذلك كله، ولم يرعووا، ولم يذعنوا للحق، بل لجوا في عتوٍّ ونفور. وإيجاز الحذف كثير في كتاب الله.

إيجاز القصر:

تعريفه: تضمين الألفاظ القليلة معاني كثيرة من غير حذف، فهو الذي لا يمكن أن نعبِّر عن معانيه بألفاظ مساوية لتلك الألفاظ التي يعُبِّر بها من هذه المعاني.

ومثال ذلك قوله سبحانه: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة:١٩] ويبين أن هذه الآية جمعت جميع عيوب خمر الدنيا. وقوله في وصف فاكهة الجنة: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة:٣٢-٣٣] فقد دلّ بهاتين الكلمتين على ما يطرأ لفاكهة الدنيا من قطع من جهة وما يلقاه الناس من منع من جهة أخرى.

ومنها قوله سبحانه ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ [يوسف:٨٠]، أي: حينما يئسوا أن يأخذوا يوسف معهم. اعتزلوا الناس ليتناجوا في أمرهم، وفي هذه الآية من الإيجاز ما لا يزال يدهش البلغاء. وسيبقى كذلك. ومنه قوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف:٥٤] فهاتان الكلمتان لم تبقيا شأناً من الشؤون، ولا حالاً من الأحوال. وقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩] فجمع جميع مكارم الأخلاق، لأن العفو صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين. وفي الأمر بالمعروف تقوى الله وصلة الرحم، وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن المحرمات، والتبرؤ من كل قبيح، لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف، وهو يلامس شيئاً من المنكر، وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مقابلة السفيه بما يفسد الدين.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة:١٧٩].

يقول البرقوقي[١]: يفضل ما كان عن العرب أوجز كلام في هذا المعنى وهو قولهم: (القتل أنفى للقتل) من وجوه:

---

(١) التلخيص في علوم البلاغة، شرح البرقوقي، ص٢١٦.

١- أن عدة حروف ما يناظره منه وهو (القصاص حياة) عشرة في التلفظ، وعدة حروفه أربعة عشر.

٢- ما فيها من التصريح بالمطلوب الذي هو الحياة بالنص عليها، فيكون أزجر عن القتل بغير حق، لكونه أدعى إلى الاقتصاص.

٣- ما يفيده تنكير (حياة) من التعظيم، وذلك لمنعهم عما كانوا عليه من قتل جماعة بواحد أو النوعية، وهي الحياة الحاصلة للقاتل بانكفافه والمقتول بالكف عنه.

٤- اطراده بخلاف قولهم، فإن القتل الذي ينفي القتل، هو ما كان على وجه القصاص لا غير.

٥- سلامته من التكرار الذي هو من عيوب الكلام، بخلاف قولهم.

٦- استغناؤه عن تقدير محذوف بخلاف قولهم، فإن تقديره القتل أنفى للقتل من تركه.

٧- أن القصاص ضد الحياة، فالجمع بينهما طباق.

٨- القصاص منبع ومعدن الحياة عندما دخلت عليه (في).

أسرار الإعجاز القرآني في الإيجاز:

ومن الإيجاز الرائع في كتاب الله قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة:١٨٩] في الجملة الأولى إيجاز حذف، أي: ولكن البر بر من اتقى، وفي كلتا الجملتين إيجاز قصر، حيث أمر المؤمنين أن لا يشغلوا نفوسهم بما ليس لهم به شأن بل يجب عليهم أن ينظروا ما فيه خيرهم ومصلحتهم. وأن يفكروا في واقعهم، حتى لا يضلوا الطريق، ولا ينحرفوا عن الجادة، فالذي

ينشغل بما ليس له فيه مصلحة، ويترك ما هو أولى كالذي يأتي البيت من ظهره، والبيوت إنما تؤتى من أبوابها.

ومن الإيجاز قوله سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [ص:٤٥] فقد جمعت هاتان الكلمتان (الأيدي والأبصار) جميع الفضائل العلمية والنظرية والفكرية والعقلية والروحية.

والحق أن هذا النوع لا يمكن أن يحصر في كتاب الله تبارك وتعالى، وإنما يمثل كل واحد بما هيئ له.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ [البقرة:١٦٤]. هذه جملة من آية، ولقد جمعت كثيراً مما يصلح به شأن الناس من تجارة، وجهاد وصيد، وحل، وترحال.

الإطناب:

تعريفه: المبالغة في الشيء: يقال: أطنب في المكان إذا أطال الإقامة فيه، وإذا كان الإيجاز استثمار الألفاظ القليلة في معانٍ كثيرة، فإن الإطناب زيادة اللفظ على المعنى.

وشرط الإطناب أن تكون الألفاظ الزائدة جاءت لفائدة.

الأغراض التي يفيدها الإطناب:

١- الإيضاح بعد الإبهام، وهو ذو فوائد جمة.

٢- ذكر الخاص بعد العام.

٣- التكرير لفائدة.

٤- الإيغال.

٥- التذييل.

٦- الاحتراس.

٧- التتميم.

٨- الاعتراض.

٩- وضع الظاهر مكان المضمر.

١٠- غير ما تقدّم.

١- الإيضاح بعد الإبهام:

وللإيضاح بعد الإبهام أثر في النفس، ذلك لأن المعنى يظهر بصورتين مختلفين:

أ- مبهمة مجملة.

ب- موضحة مفصلة.

ويجب أن تدرك الفرق بين شيئين: أحدهما حصل لك به العلم دفعة واحدة، وثانيهما، علمته على سبيل التدرج شيئاً بعد شيء، فإنك تجد الأخير له لذة في نفسك لا تجدها لسابقه.

استمع إلى قوله تعالى حديثاً عن لوط ﷺ ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر:٦٥-٦٦] وأنت تتساءل عن هذا الأمر الذي قضاه الله إلى لوط ومتشوّق فؤادك إلى معرفة، وبين الله هذا الأمر بعد ذلك بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر:٦٦] فهذا المقتضى ذكر مرتين، مجملاً أولاً في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ ومفصلاً ثانياً في قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾.

ومنه قول الله عز وجل ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [طه:١٢٠] فأنت تترقب ما الذي وسوس به الشيطان؟ إن في ذلك إجمالاً لا بد من بيانه، فيبينه سبحانه بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه:١٢٠].

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء:١٣٢] والنفس تترقب ما هذا الذي أمدوا به، وتفصله الآية التي بعد هذه الآية ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء:١٣٣-١٣٤].

فأنت ترى في الأمثلة المتقدّمة أنها جميعاً من باب الإيضاح بعد الإبهام وذلك هو أول موطن من مواطن الإطناب، وجدنا أن فيه زيادة اللفظ على المعنى. ولكنها ذات فوائد جليلة.

٢- ذكر الخاص بعد العام:

وذلك تنويهاً بشأن الخاص، وتنبيهاً على فضله، كأنما هو شيء آخر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة:٢٣٨] فقد ذكرت الصلاة الوسطى مرتين، فهي داخلة في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾ ثم ذكرت مرة أخرى تنويهاً وتعظيماً، كأنما هي شيء آخر.

ومنه قوله سبحانه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١٠٤] فإن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، داخلان في عموم الدعوة إلى الخير، وإنما نُصَّ عليهما بخاصة لكونهما من الدعائم التي لا تصلح الأمة بدونهما.

٣- التكرير لفائدة:

من أسباب الإطناب التكرار لفائدة، وتختلف باختلاف السياق، فقد يكون لتأكيد الإنذار، وتأكيد الردع، كقوله سبحانه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:١-٤] وقريب منه قوله سبحانه: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ:٤-٥] وقد يكون تبكيتاً كما في قوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٥] فقد ذكرت هذه الآية في سورة المرسلات أكثر من مرة، ولكنها في كل مرة تذكر عقب آية من آيات الله؛ سواء كانت هذه الآية في أحوال الأمم، أم في أحوال النفس، أم في آثار قدرة الله في الأرض، أم في أخبار الآخرة.

وقد يكون للحث على شكر نعمة من النعم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] وقد يكون التكرار للتحسر وقد يأتي لطول الفصل بين القول والمقول كقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٨٨].

والتكرار أسلوب من أساليب العربية يؤتى به لتأكيد القول وتثبيته حينما يستلزم المقام ذلك.

٤- الإيغال:

الإيغال لغةً: البُعد، يقال: أوغل في المكان، إذا ذهب فيه بعيداً.

معناه اصطلاحاً: ختم البيت بكلمات يتم المعنى بدونها، ولكن الشاعر يأتي بها لغرض ما، الإيغال إذن، هو لفظ زائد على ما قصده الشاعر، يتمم به قافيته، ويؤدي به معنى.

إذا كان اللفظ لإتمام القافية ولا يفيد معنى، فليس من الإيغال.

ومن ذلك قول امرئ القيس[1]:

كأن عُيون الوحشِ حـولَ خبائنـا   وأرحلنـا الجـزعُ الـذي لم يُثقـبِ

والخباء والرَّحل: ما يُعمل من الوبر والصوف على عمودين أو ثلاثة، فإن كان على أكثر من ذلك سمي بيتاً، وهو ما تتخذه البادية في حلها وترحالها، والجزع، بفتح الجيم وسكون الزاي: هو الخرز، فإذا فتحت الزاي، كان معناه الهلع.

يتحدث امرؤ القيس عن كثرة ما يصطادون من الظباء، وبقر الوحش، فيشبه عيونها بعد موتها حول خبائهم التي يقطنون فيها لكثرتها بالخرز، وقد انتهى التشبه هنا ولكن القافية لم تنتهِ فالقصيدة بائية ومطلعها:

خلـيلي مُـرّا بي عـلى أم جنـدبٍ   لنقضي حاجـات الفـؤاد المعـذبِ

ففطن امرؤ القيس لتحقيق هذا التشبيه، فأكلمه بقوله: (الذي لم يثقب) لأن عيون الظباء كالخرز.

٥- التذييل:

وهو في اللغة جعل شيء ذيلاً لشيء آخر، واصطلاحاً: تعقيب الجملة بجملة أخرى متفقة معها في المعنى تأكيداً للجملة الأولى.

ومثال ذلك قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ [سبأ:١٧] في الآية الكريمة جملتان: الأولى ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ ﴾ وقد جاء

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص٥٣.

الحديث عن سبأ أصحاب سد مأرب، حيث كان لهم جنتان عن يمين وشمال، ولكنهم أعرضوا، وجحدوا نِعَم الله، فبدلوا بجنتهم جنتين ذواتى خمط وأثل وشيء من سدر قليل فعاقبهم الله تبارك وتعالى بسبب كفرهم، هذا معنى قوله سبحانه ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ﴾ فجاءت الجملة الثانية، وهي قوله سبحانه: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ تأكيداً للجملة الأولى فهي مشتملة على معناها.

ومثله قوله سبحانه: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الإسراء:٨١] ثم أكد هذه الجملة بقوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١].

أقسام التذييل:

أ- **ما يجري مجرى المثل**: إذا كان مما تردده الألسنة، ويصلح أن يكون مثلاً للعبرة والتأسي.

ب- **غير جارٍ مجرى المثل**: إذا لم يكن كذلك.

ج- **قد تكون الجملة الثانية تأكيداً لمنطوق الجملة الأولى** (اشتراك في اللفظ نفسه) كقوله تعالى: ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١].

د- قد تكون الجملة الثانية تأكيداً لمفهوم الجملة الأولى، أي: تأكيداً لمعناها دون اشتراك باللفظ.

٦- الاحتراس:

ويسمى التكميل والمعنى اللغوي من حرس (المحافظة على الشيء)، واصطلاحاً: المحافظة على المعنى من كل ما يفسده ويغيره.

ومثال ذلك قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤] فقالوا

إن قوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ احتراس، حتى لا يُفهم أن الذلة طبيعة فيهم ناشئة عن ضعف. ولكن الأمر ليس كما قالوا لأن قوله سبحانه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ يفهم منه أنهم ليسوا ضعفاء أذلاء. لأن الله لا يحب الأذلاء المستضعفين.

وشبيهة الآية قوله سبحانه ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح:٢٩] فالآيتان ترشدان إلى أن الله تبارك وتعالى لا يحب إلا من كمل إيمانهم وهم الذين اجتمع لهم هذان الوصفان، الشدة والعزة على الكفار والذلة والرحمة للمؤمنين، فهما صفتان متلازمتان، لا يمكن الفصل بينهما. وعدوا من الاحتراس قوله سبحانه: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ ﴾ [النمل:١٢] فقوله سبحانه: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ﴾ احتراس عن أن يكون هذا البياض علّة من العلل، كالبرص أو غيره.

٧- التتميم:

وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفَضْلَةٍ.

عرفت أن الاحتراس إنما يؤتى به إذا كان الكلام يوهم غير المقصود، أما التتميم الذي نحن بصدد الحديث عنه، فليس كذلك، فالكلام هنا لا يوهم شيئاً آخر غير الذي يريده المتكلم، وإنما يكون التتميم لفائدة بيانية.

ومعنى فضلة أن التتميم لا يكون بجملة مستقلة ولا بركن أساسي رئيس. ومثال ذلك قوله سبحانه: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة:١٧٧]. فقوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ له معنيان؛ لأن الضمير إما

أن يعود إلى الله سبحانه، أي: على حب الله – تبارك وتعالى – فهم يعطون المال من أجل الله وحده لا رياء ولا سمعه، وعلى هذا المعنى لا يكون قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ من التتميم في شيء لأنه من تمام معنى الآية الكريمة.

وإما أن يعود الضمير على المال، أي: يؤتون المال على حبهم له، والتتميم يتم على هذا التفسير، لأن المعنى انتهى عند قوله سبحانه: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ ثم قال: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ وهذه فضلة، لأنها ليست جملة مستقلة وليست ركناً رئيساً في الجملة، وجيء بها للمبالغة فهم يعطون المال رغم حبهم له.

٨- الاعتراض:

وهو أن يؤتى بجملة في كلام متصل بعضه ببعض، وكما تعرف أن الجملة المعترضة تأتي بين الفعل والفاعل، والفعل والمفعول، والمبتدأ والخبر، والصفة والموصوف. كقولك: نجح – والحمد لله – أخوك. وقد تأتي الجملة الاعتراضية في غير هذه المواضع، والجملة الاعتراضية لا محل لها من الإعراب.

كما أن أرباب البيان وعلماء البلاغة يتناولون هذا الموضوع من زاوية أخرى، من زاوية تعنيهم، فيبحثون عن الأغراض البلاغية التي تأتي من أجلها الجمل الاعتراضية.

وهذه الأغراض هي:

١- التنزيه: كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧] فقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ جاءت معترضة لأن أصل الكلام: ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون، أي: ويجعلون لهم ما يشتهون.

٢- الدعاء: كقول المتنبي:

وتحتقـر الـدنيا احتقـار مجـرّبٍ   يرى كلَّ مـا فيهـا وحاشـاك فانيـاً

فقوله: (وحاشاك) دعاء حسن في موضعه.

٣- **للتنبيه**: ومنه قول الشاعر:

واعلـم فعلـمُ المـرء ينفعـهُ   أن سـوف يـأتي كـلُّ مـا قُـدرا

والمعنى أن المقدور آتٍ لا محالة، وإن وقع فيه تأخير، وجاء جملة، (فعلم المرء ينفعه) معترضة بين (اعلم) ومفعوله للتنبيه.

٤- **المطابقة مع الاستعطاف**: كقول المتنبي:

وخفـوق قلـبٍ لـو رأيـتِ لهيبَـهُ   يـا جنَّـتي لظننـتِ فيـه جهـنَّما

فقوله: (يا جنتي) اعتراض للمطابقة مع جهنم والاستعطاف.

٥- **بيان السبب لأمر فيه غرابة**: كقول الشاعر:

فلا هجرهُ يبدو وفي اليـأس راحـةٌ   ولا وصـلُهُ يبـدو لنـا فنكارمُـه

فقوله: (وفي اليأس راحة) معترضة، ليبين سبب طلبه لهجر الحبيب، وهذا أمر غريب.

٦- **زيادة التأكيد**: كقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤] فجملة (حملته) معترضة وذلك إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً، وتذكيراً لحقها العظيم، وقد تكون كذلك بل تكون جواباً عن سؤال مُقدَّر.

٧- **التحسر**: كقول الشاعر:

وإني وإن قُـــدِّمت قـــبلي لعـــالِمٌ ... بـأني وإن أبطـأتُ منـك قريـب

فقوله: (وإن قدمت قبلي) في الشطر الأول، (وإن أبطأت منك) في الشطر الثاني، جملتان اعتراضيتان والغرض منهما إظهار الأسى والتحسُّر على أن الموت الذي سبق إلى ولده.

٨- **التعظيم**: ومنه قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٨] فجملة: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ معترضة، والغرض منها تعظيم القسم بمواقع النجوم، وتفخيم أمره، وفي ذلك تعظيم للمقسم عليه، وتنويه برفعة شأنه وهو القرآن الكريم.

تاسعاً: وضع الظاهر مكان الضمير:

وهذا له فوائد كثيرة؛ تدرك بالذوق، وتدل عليها القرائن. ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك:٢٠] فمقتضى الظاهر أن يقال: إن أنتم، لأن أول الآية خطاب لهم، ولكنه أراد أن يبين أن علّة الغرور إنما هي الكفر.

ومثله قوله سبحانه: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الملك:٢٨] ومقتضى الظاهر أن يقال: فمن يجيركم، ولكنه أراد أن يبين أن علّة العذاب إنما هي الكفر.

وبالجملة، فإن هذا باب عظيم من العلم، وإن لم ينبِّه له البيانيون، وقد نبّه له الكاتبون في علوم القرآن.

١٠- غير ما ذُكر:

وقد يكون هناك أسباب للإطناب غير ما تقدّم، يمكن أن تدركها بذهن ثاقب، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر:٧] فإن قوله سبحانه: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ إطناب جاء لبيان فضل الإيمان وشرفه. وإنما قلنا: إنه إطناب، لأن إيمانهم مما يرتكز في الطباع. ومثل ذلك قولك: الطلاب المجتهدون يحرصون على الإفادة من أوقاتهم، (يذهبون إلى معاهدهم) يقفون أمام كل جزئية من جزيئات العلم، فقولنا: يذهبون إلى معاهدهم إطناب.

إذن الإطناب مع كونه زيادة في اللفظ على المعنى لكنه زيادة يدعو إليها المقام من جهة، ولهذه الزيادة فوائد كثيرة من جهة أخرى، ولو لم يكن له إلا توضيح المعنى وزيادة تقرير لكفى. ولذا فقد فضله بعضهم على الإيجاز.

ولكن وجه الحق في ذلك أن لكل من الإيجاز والإطناب مقامه الذي يفضل فيه على غيره وموطنه الذي ينبغي أن يستعمل فيه.

فمن مقامات الإيجاز التي يحسن فيها: الاختصار، تسهيل الحفظ، تقريب الفهم، ضيق المقام، إخفاء الأمر على غير السامع، الضجر، السآمة، وتحصيل المعنى الكثير باللفظ اليسير، ويستحسن الإيجاز في: الاستعطاف، شكوى الحال، الاعتذارات، التعزية، العتاب، الوعد، الوعيد، التوبيخ، جباية الأموال، رسائل الملوك، الأوامر، الشكر على النعم.

ومن المقامات التي يحسن فيها الإطناب: الصلح بين العشائر، المدح، الثناء، الذم، الهجاء، الوعظ، الإرشاد، الخطابة، التهنئة، منشورات الحكومة، كتب الولاة إلى الملوك لإخبارهم بما لديهم من مهام الأمور[1].

---

(١) جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، ص٢٢٣.



الفصل الثامن

البنية في التعبير القرآني

يستعمل القرآن الكريم بنية الكلمة استعمالاً في غاية الدقة والجمال، ومن ذلك:

استعمال الفعل والاسم: فمن المعلوم أن الفعل يدل على حدث مقترن بزمن أي (حدوث وتجدد) والاسم يدل على ذات أي: (الثبوت)، تقول: هو يتعلم وهو متعلم. (يتعلم) تدل على الحدوث والتجدد، أي: هو آخذ في سبيل التعلّم بخلاف (متعلّم) فإنه يدل على أن الأمر تمّ وثبت وأن الصفة تمكنت من صاحبها.

وربما كان الأمر لم يحدث بعد ومع ذلك يؤتى بالصيغة الاسمية للدلالة على الأمر بمنزلة الحاصل المستقر الثابت وذلك نحو قولك: أتراه، سيفشل في مهمته، فتقول: هو فاشل وذلك لوثوقك بما قررته، أي: كأن الأمر تم وحصل وإن لم يحدث فعلاً، ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] فهو لم يجعله بعد ولكن ذكره بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أن الأمر حاصل لا محالة فكأنه تم واستقر وثبت، ومثله قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧] فلم يقل: سأغرقهم أو أنهم سيغرقون، ولكنه أخرجه مخرج الأمر الثابت، أي: كأن الأمر استقر وانتهى، ومثله قوله تعالى في قوم لوط عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ

﴿ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت:٣١] ولم يقولوا: سنهلك، فذكرها بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات، أي: كأن الأمر انتهى وثبت.

فخلاصة الأمر أن الفعل يدل على الحدث والتجدد، والاسم يدل على الثبوت والاستقرار، وقد استعمل القرآن الفعل والاسم استعمالاً فنياً في غاية الفن والدقة.

أسرار الإعجاز القرآني في استعمال الفعل والاسم:

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام:٩٥] فاستعمل الفعل مع الحي، فقال: ﴿يُخْرِجُ ﴾ واستعمل الاسم مع الميت، فقال: ﴿ وَمُخْرِجُ ﴾ وذلك لأن أبرز صفات الحي الحركة والتجدد فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدّد، ولأن الميت في حالة سكون وثبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات فقال: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الأنعام:٩٥].

وقد تسأل، ولماذا قال في سورة آل عمران: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [آل عمران:٢٧] بالصيغة الدالة على الحدوث والتجدد في الموطنين.

إن السياق في آل عمران يختلف عنه في الأنعام، وذلك أن السياق في آل عمران هو التغيّر والحدوث والتجدد عموماً، فالله سبحانه يؤتي ملكه من يشاء وينزعه منه، ويعز من يشاء أو يذله، ويغيّر الليل والنهار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي وغير ذلك من الأحداث، فالسياق كله حركة وتغيّر وتبديل فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغيير والحركة.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ [الأعراف:١٩٣] فرّق بين طرفي التسوية فقال: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾ بالفعل

ثم قال: ﴿أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ بالاسم ولم يسوِّ بينهما فلم يقل: أوعدتموهم أم صمتُّم بالفعلية.

وذلك أن الحالة الثانية للإنسان هي الصمت وإنما يتكلم لسبب يعرض له، لو رأيت إنساناً يكلّم نفسه لاتَّهمته في عقله، فالكلام طارئ يحدثه الإنسان لسبب يعرض له ولذا لم يسوِّ بينهما بل جاء للدلالة على الحالة الثابتة بالاسم: ﴿صَٰمِتُونَ﴾ وجاء للدلالة على الحال الطارئة بالفعل (دعوتموهم)، أي: أأحدثتم لهم دعاء أم بقيتم على حالكم من الصمت.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام:١٣١] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود:١١٧] فقد جاء في الآية الأولى بالصيغة الاسمية (مهلك) وفي الثانية بالصيغة الفعلية ﴿لِيُهۡلِكَ﴾ وذلك أن الآية الأولى في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة عما كان في الدنيا، فقد ذكر صفة الله وهو أنه لم يهلك قوماً بظلم وهم غافلون لم يكلَّفوا ولم يأتهم رسل ينذرونهم، فالذين لم ينذروا غافلون، قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [يس:٦] فهو في سياق أمر ثبت واستقر وانتهى فجاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت.

في حين أن الكلام في سورة هود على هذه الحياة وشؤونها وذكر سنّة الله في الأمم، فهو في سياق الدنيا وسنن البقاء فجاء بالصيغة الفعلية لأن الأمم تحدث وتتجدد وتهلك ويأتي غيرها، فجاء بالصيغة الدالة على الحدوث والتجدد (ليهلك)، ثم انظر كيف جاء في الآية الأولى بـ (لم) الدالة على المضي ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن﴾ لأن الأمر حصل وتم في الدنيا فهو ماضٍ بالنسبة إلى الآخرة، وجاء ههنا بلام الجحود

التي تدخل على الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد فقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ [هود:١١٧] أما ما ختم به كل آية من الآيتين فقد قلته مكان آخر.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣] فقد جاء في صدر الآية بالفعل: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ وجاء بعده بالاسم ﴿مُعَذِّبَهُمْ ﴾ وذلك أنه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب بخلاف بقاء الرسول ﷺ بينهم فإنه (العذاب) موقوت ببقائه بينهم، فذكر الحالة الثانية بالصيغة الاسمية والحالة الموقوتة بالصيغة الفعلية وهو نظير قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص:٥٩] فالظلم من الأسباب الثابتة في إهلاك الأمم فجاء بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات ثم انظر كيف جاء بالظلم بالصيغة الاسمية أيضاً دون الفعلية فقال: ﴿وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ ولم يقل: (يظلمون) وذلك معناه أن الظلم كان وصفاً ثابتاً لهم مستقراً فيهم غير طارئ عليهم فاستحقوا الهلاك بهذا الوصف السيئ.

فانظر كيف ذكر أنه يرفع العذاب عنهم باستغفارهم ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم، وأنه لا يهلكهم إلا إذا كان الظلم وصفاً ثابتاً فيهم، فإنه جاء بالاستغفار بالصيغة الفعلية (يستغفرون) وجاء بالظلم بالصيغة الاسمية ﴿ظَٰلِمُونَ ﴾ فانظر إلى رحمة الله سبحانه بخلقه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤] فرّق بين قولهم للمؤمنين وقولهم

لأصحابهم فقد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث ﴿ ءَامَنَّا ﴾، وخاطبوا جماعتهم بالجملة الاسمية المؤكدة الدالة على الثبوت والدوام ﴿إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ ولم يسوِّ فيهما فلم يقولوا: (إنا مؤمنون) وذلك لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذ ليس من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن صدق رغبة، وأما مخاطبة إخوانهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على الاعتقاد والكفر والبُعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة وارتياح للمتكلم به وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتوكيد.

ومن لطيف الاستعمال الفني للفعل والاسم قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [غافر:٦١] فاستعمل مع الليل الفعل ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ ومع النهار الاسم ﴿مُبْصِرًا﴾ ولم يسوِّ بينهما، فلم يقل: ساكناً ومبصراً لا لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه مع أن الاستعمال الحقيقي هو: (لتبصروا فيه).

وذلك أنه جمع الحقيقة والمجاز في تعبير واحد ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة لفاتت هذه المزية الفنية فإنه ذكر نعمة الله علينا في الليل فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ [يونس:٦٧] ولو قال: (هو الذي جعل لكم الليل ساكناً) لم يكن فيه دلالة نعمة على الخلق من ناحية ولكانت (لكم) هنا زائدة ليس لها فائدة، فهو جاء بـ (لكم) وبالصيغة الفعلية للدلالة على قصد النعمة والتفضل علينا، وعلاوة على ذلك فإنه لو قال: (ساكناً) لم يكن التعبير مجازياً لأن الليل يصح أن يوصف بالسكون، فتحويله إلى الصيغة الاسمية ليس فيه فائدة معنوية ولا فنية، ولما تقررت دلالة النعمة في صدر الآية.

فعدل من الفعل إلى الاسم ومن الحقيقة إلى المجاز العقلي فقال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وذلك أن النهار لا يبصر من فيه، فجمع بين التعبير الحقيقي والمجازي

ودلّ على المقصد الأول من الآية وهو الدلالة على النعمة بأقرب طريق فكسب المعنى والفن معاً، أنت ترى أنه لو وضع الكلام بأية صورة غير الصورة التي عبّر بها القرآن ما أدى هذا المؤدى، هذا علاوة على ما في جعل النهار مبصراً من جمال وزيادة في المعنى فقد أفاد هذا العدول إلى الاسمية معنيين:

١ - أننا نبصر فيه كما قيل: ليل نائم والمقصود نائم أهله.

٢- أنه جعل مبصراً أيضاً يبصر أعمالنا ويكون شاهداً علينا بالخير والشر. فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته وروعته.

ومن جميل التعبير بالفعل والاسم ما جاء في سورة الكافرون وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦] فأنت ترى أن الرسول ﷺ نفى عبادة الأصنام عن نفسه بالصيغتين الفعلية والاسمية ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ و ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ بالفعلين المضارع والماضي ﴿تَعْبُدُونَ﴾ ﴿عَبَدتُّمْ﴾ ونفى عن الكافرين العبادة الحقة بصيغة واحدة مرتين وهي الصيغة الاسمية ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

ومعنى ذلك أنه نفى عبادة الأصنام عن نفسه في الحالتين الثابتة والمتجددة في جميع الأزمنة وهذه غاية الكمال، إذ لو اقتصر على الفعل لقيل: إن هذا أمر حادث قد يزول. ولو اقتصر على الاسم لقيل: صحيح أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناه أنه مستمر على هذا الوصف لا يفارقه، فإن الوصف قد يفارق صاحبه أحياناً بل معناه إن هذا وصفه في غالب أحواله. فالحليم قد يغضب ويعاقب، ولئلا يظن ذلك في الرسول ﷺ أعلن براءته من معبوداتهم بالصيغتين الفعلية والاسمية، الصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والصيغة الاسمية الدالة على الثبات ليعلن براءته منها في

كل حالة، ثم إنه استغرق الزمن الماضي والحال والاستقبال باستعماله الفعل الماضي والمضارع، في حين نفاه عنهم بالصيغة الاسمية فقط. فإصراره هو على طريقة أقوى من إصرارهم وحاله أكمل من حالهم والنفي عنهم أدوم وأبقى من النفي عنهم.

ثم انظر كيف أن لما خاطبهم بالصورة الاسمية قائلاً: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ نفى عنهم العبادة الحقة بالصورة الاسمية أيضاً فقال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ فإنهم لما اتصفوا بكفرهم على وجه الثبات نفى عنهم عبادة الله على وجه الثبات أيضاً، وهو تناظر جميل.

ومن جميل استعمال القرآن للفعل والاسم أنه يستعملهما استعمالاً مناسباً مع وقوع الحدث في الحياة فإذا كان مما يتكرر حدوثه ويتجدد استعمله بالصورة الفعلية وإذا لم يكن كذلك استعمله بالصورة الاسمية.

فمن ذلك استعمال القرآن للفعل (ينفق) فإنه استعمله بالصيغة الفعلية لأن الإنفاق أمر يتكرر، ويحدث باستمرار قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٤] فاستعمل الفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث لأن الإنفاق أمر يتجدد، ونحوه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ﴾ [النساء:٣٨] ولم ترد بالصورة الاسمية إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران:١٧] وهو في سياق أوصاف المؤمنين الدالة على الثبات.

ومن ذلك استعمال القرآن للإيمان، فقد استعمله بالصيغة الاسمية كثيراً وذلك لأن الإيمان له حقيقة ثابتة تقوم بالقلب وليس كالإنفاق يحدث وينقطع قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة:١٨] وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢] وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

كما استعمله بالصيغة الفعلية في المواطن الدالة على الحدوث قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ [الأنعام:١٠٩] فجاء به بالصيغة الفعلية لأنه هنا أمر دال على الحدوث لا الثبوت فإنه لم يحصل بعد، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [البقرة:١٣].

ومن ذلك استعماله للاستغفار فإنه لما كان الاستغفار يحدث ويتجدد جاء به بالصيغة الفعلية كثيراً، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر:٧] وقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى:٥] ولم يرد بالصيغة الاسمية إلا في آية واحدة وهي التي ورد فيها الإنفاق اسماً وهي قوله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران:١٧] أي: أصحاب هذه الصفات، ومثل ذلك التسبيح فإنه ورد بالصيغة الفعلية كثيراً للسبب نفسه وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف:٢٠٦] و﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة:١] ولم يرد بالصيغة الوصفية إلا في آيتين:

١- في وصف نبي الله يونس ﷺ قال: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٤] بمعنى أنه كان هذا وصفه الثابت، فنجا لأنه كان من أصحاب هذا الوصف، والمجيء بالصيغة الوصفية هنا إشارة إلى أن مداومة التسبيح تخلص من الكروب والمكاره، وأن يونس نجا من هذه الشدة بمداومة التسبيح.

٢- في صفة الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٦] أي: هذه صفتهم الثابتة وقد ذكر الله سبحانه أن الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] إذن فالتسبيح وصف ثابت فيهم.

إن ما كان من شأنه ألا يفعل إلا مجازاة وليس من شأنه أن يذكر الاتصاف به لم يأت إلا في تراكيب الأفعال كقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم:٢٧] وقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج:٥٤] وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧].

ومنه قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] لأن البصر صفة لازمة للمتقين، وعين الشيطان ربما حجبت فإذا ذكر رأي المذكور، ولو قيل: (يبصرون) لأنبأ عن تجدد واكتساب لا عودة الصفة .

ثم انظر كيف ذكر الله الإضلال وأضافه إلى نفسه بالصورة الفعلية فقط للدلالة على أن هذا أمر طارئ يفعله من يستحق ولم يسند هذا الأمر إلى نفسه بالصورة الاسمية للدلالة على أن هذا ليس من صفات الله ونعوته، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر:٣٤] وقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦] في حين وصف الشيطان بذاك فقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ

﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ [القصص:١٥] فجعله وصفاً ثابتاً له ويجدده أيضاً فقال: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج:٣-٤] وقال الشيطان عن نفسه: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ [النساء:١١٩] فجعل وصف الشيطان الثابت والمتجدد الإضلال، كما جعل الله وصف ذاته العلية الثابت المتجدد الهداية فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٥٤] وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [الفرقان:٣١] وقال: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦] وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ [يونس:٣٥].

ومن بدائع الفن في هذا الباب قوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات:٢٤-٢٥]. ففرّق الله سبحانه بين السلامين فجعل الأول بالنصب ﴿سَلَٰمٗا﴾ تقديره: نسلم سلاماً، أي: بتقدير الفعل، والثاني بالرفع ﴿سَلَٰمٞ﴾ تقديره: سلامٌ عليكم، أي: بتقدير اسمية الجملة، والاسم أثبت وأقوى من الفعل، فدلّ على أن إبراهيم ﷺ حيا الملائكة بخير من تحيتهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء:٨٦] فرد التحية بخير منها.

ومنه قوله تعالى على لسان يعقوب ﷺ: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨] فجاء بالصبر مرفوعاً، أي: بتقدير الجملة الاسمية لأنه وطّن نفسه على الصبر الطويل الدائم الذي لا يعرف له نهاية والذي قد يستغرق ما بقي من عمره،

ولم يقل: (فصبراً) بالنصب بتقدير الفعل، لأنه يدل على الصبر الحادث الذي يتغير لا الصبر الدائم الثابت. فثمة فرق بين الاستعمالين والمعنيين.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ [البقرة:٢٢٩] فانظر كيف جاء بالطلقة الثالثة بالرفع. وذلك لأنها الطلقة الأخيرة والحكم معها يكون على وجه الدوام، وإما الإمساك بالمعروف أو التسريح الذي لا رجعة فيه، فانظر كيف لم يقلها بالنصب وذلك لأن النصب موقوت، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ [محمد:٤] كيف جاء بـ (ضرب) منصوباً وذلك على تقدير الفعل، أي: فاضربوا، ولم يأت به بالرفع وذلك لأنه موقوت بالمعركة وليس أمراً دائماً.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة:١] فانظر كيف قال: ﴿ وَيۡلٞ ﴾ بالرفع ولم يقل: (ويلاً) بالنصب وذلك لأنه بالرفع جملة اسمية، وبالنصب جملة فعلية، فأخبر أن لهم عذاباً دائماً لا ينقطع أو دعا عليهم به، ولو قال: (ويلاً) لكان إخباراً بالعذاب غير الدائم، ثم انظر كيف قال في آخر السورة: ﴿ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴾ [الهمزة:٨-٩] فأخبر أن أبوابها مغلقة عليهم لا تنفتح إشارة إلى دوام العذاب وخلوده، وكيف ناسب ذلك أول السورة برفع الويل. فانظر إلى هذا التناسق الجميل في التعبير والمعنى بين الافتتاحية والختام، وفي هذا القدر كفاية فإن غرضنا التمثيل وليس الاستقصاء.

٢- وكذلك استعماله للأبنية الأخرى فهو يستعملها استعمالاً فنياً عجيباً ويضعها وضعاً معجزاً، فمن تلك أنه يأتي بالفعل ثم لا يأتي بمصدره بل يأتي بمصدر فعل آخر يلاقيه في الاشتقاق فيجمع بين معنى الفعل ومعنى المصدر من

أقرب طريق وأيسرها نحو قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزمل:٨] فإنه جاء بالفعل (تبتل) غير أنه لم يأت بمصدره، وإنما جاء بمصدر فعل آخر وهو (بتل) وذلك أن مصدر (تبتل) هو (التبتُّل). أما (التبتيل) فهو مصدر (بتَّل) لا تبتَّل، فإن (التفعيل) مصدر (فعّل) وكان المتوقع أن يقول (وتبتل إليه تبتلاً) غير أنه لم يقل ذاك وسبب ذلك أنه أراد أن يجمع بين معنيي التبتل والتبتيل، وذلك أن تبتَّل على وزن تفعَّل يفيد التدريج والتكلّف مثل: تجسس، تبصّر.

وأما (فعّل) فيفيد التكثير والمبالغة وذلك نحو: كسَّر، فإن في كسَّر المضاعف من المبالغة والتكثير. فالله سبحانه وتعالى جاء بالفعل لمعنى التدرج ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر وهو التكثير، وجمع المعنيين في عبارة واحدة موجزة وجاء بمصدر الفعل (تبتَّل) ولو قال: (وتبتل إليه تبتُّلاً) لم يفد غير التدرج وكذلك لو قال: (بتِّل نفسك إليه تبتيلاً) لم يفد غير التكثير.

ولكنه أراد المعنيين فجاء بالفعل من صيغة والمصدر من صيغة أخرى، وجمعهما فقد جاء بالفعل لمعنى ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر ووضعهما وضعاً فنياً فكسب المعنيين في آنٍ واحد.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ [النساء:٦٠] والقياس أن يقول: (أن يضلهم إضلالاً بعيداً) لأن مصدر أضل: الإضلال أما الضلال فهو مصدر (ضلَّ). قال تعالى: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦] والمعنى أن يضلهم فيضلوا ضلالاً بعيداً وقد جمع المعنيين الإضلال والضلال في آنٍ واحد. والمعنى أن الشيطان يريد أن يضلهم ثم يريد بعد ذلك أن يضلوا هم بأنفسهم فالشيطان يبدأ بالمرحلة وهم يتمُّوها، فهو يريد منهم المشاركة في أن يبتدعوا الضلال ويذهبوا فيه كل مذهب. يريد أن يطمئن إلى أنهم يقومون بمهنته هو.

ولو جاء بمصدر الفعل المذكور لما زاد عن معنى الفعل المذكور، ولكنه جاء بالفعل لمعنى، وجاء بالمصدر لمعنى آخر. فجمع المعنيين والمعنيان مرادان والله أعلم.

قد يستعمل في مكان ما صيغة ثم يعدل في مكان آخر عن تلك الصيغة فيحولها إلى صيغة أخرى بحسب ما يقتضيه السياق والمعنى. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق:٢] وقوله: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود:٧٢] وقوله في مكان آخر: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥] فأنت ترى في سورة ق ﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ وفي هود: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ في سورة ص: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ فعدّل من عجيب إلى عجاب وذلك أنه تدرج في العجب بحسب قوته في آية (ق) ذكر أنهم عجبوا من أن يجيء منذر فيهم فقالوا: ﴿هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ وفي سورة هود كان العجب أكبر لأنه من خلاف المعتاد أن تلد امرأة عجوز وعقيم وبعلها شيخ إذ كل ذلك يدعو إلى الغرابة والعجب فالعجوز لا تلد، فإذا كانت عقيماً كانت عن الولادة أبعد إذ يستحيل على العقيم أن تلد، فإذا اجتمع إلى كل ذلك أن بعلها شيخ كان أبعد وأبعد ولذا أكبر العجب بأن واللام فقال: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود:٧٢] بخلاف سورة (ق) فإنه لم يؤكد العجب.

وأما في سورة (ص) فقد كان العجب عند المشركين أكبر وأكبر إذ كيف يمكن أن يؤمنوا بوحدانية الإله ونفي الشرك وهم قوم عريقون فيه؟ بل إن الإسلام جاء أول ما جاء ليردعهم عن الشرك ويردهم إلى التوحيد، وحسبك أن كلمة الإسلام الأولى هي: (لا إله إلا الله) وقد استسهلوا أن يحملوا السيف ويعلنوا الحرب الطويلة على أن يقروا بهذه الكلمة، فالقتل أيسر عندهم من النطق بكلمة التوحيد، ولذا كان

العجب عندهم أكبر وأكبر فجاء بأن واللام وعدل من عجيب إلى ﴿عُجَابٌ﴾ وذلك أن فعال أبلغ من فعيل عند العرب فـ (طوال) أبلغ من (طويل)، فانظر كيف عدّل من صيغة إلى صيغة بحسب ما يقتضيه المقام، وانظر كيف يراعي دقة التعبير في كل موضع وكيف يلحظ كل كلمة ويضعها في المكان المناسب على تباعد الأمكنة.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٨]. وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧]. انظر كيف عدّل من ﴿بَرِيٓءٞ﴾ إلى ﴿بَرَآءٞ﴾ في الصفة المشبَّهة إلى المصدر، فالفرق بين المقامين، فإن إبراهيم عليه السلام في آية الأنعام في مقام مناظرة قومه ليثبت لهم أن دينهم باطل، وكانوا يعبدون النجوم، وما قاله كان استدراجاً لهم لأجل أن يعرِّفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله، ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال، فذكر أن الكوكب ربه ثم القمر ثم الشمس ثم أعلن البراءة من كل ذلك، لأنه لا يصلح أي منهم أن يكون ربّاً، وذلك عن طريق استدراج الخصم وإيقاعه تحت الحجة.

أما في الآية الثانية فهو في مقام التبليغ فقد أصبح نبياً مرسلاً من ربه أعلن حربه على الشرك، وأعلن البراءة مما يعبد قومه، فهناك فرق بين المقامين والبراءتين.

لذا قال في الآية الأولى: ﴿بَرِيٓءٞ﴾ وفي الثانية: ﴿بَرَآءٞ﴾ وذلك أن ﴿بَرَآءٞ﴾ أقوى من ﴿بَرِيٓءٞ﴾ فإنها (براءة) بصيغة المصدر الذي هو الحدث المجرد فإن قولك: (هو رجل عدل) أبلغ من قولك: (هو رجل عادل) وذلك لأن معناه أنه أصبح هو العدل، أي: لكثرة ممارسته للعدل صار هو العدل نفسه.

ومثل ذلك قوله تعالى في ابن نوح ﷺ: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾ [هود:٤٦] ولم يقل: إنه عامل غير صالح، والمعنى أن ابنك تحول إلى عمل غير صالح ولم يبقَ فيه من عنصر الذات شيء، أي: تحول إلى حدث مجرد وأن العمل غير الصالح لو تجسد لكان ابنك، فالبراءة في آية الزخرف أشد.

ثم انظر كيف ناسب هذه القوة في البراءة والشدة بتوكيد الكلمة بمجيء النون (نون الوقاية) في آية الزخرف زيادة في التوكيد فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ ولم يأتِ بها في الأنعام بل قال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ﴾ وأن النون في مثل هذا المقام تفيد التوكيد. وانظر كيف آكد براءته في آية الأنعام بالنون وبتحويل الصيغة إلى المصدر وهي نظيرة ما مر في آيات العجب السابقة، فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته، وكيف أن القرآن كاللوحة الفنية الواحدة المتناسقة لوحظ فيها كل جزئية من جزئياتها.

وقد يجمع بين صيغتين من مادة واحدة احتياطاً للمعنى وذلك كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فإن ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ على وزن فعلان، والرحيم على وزن فعيل فجمع بينهما، وذلك لأن صيغة فعلان تدل على الصفات المتجددة، وصيغة فعيل تدل على الثبوت فجمع الله سبحانه لذاته الوصفين حتى يعلم العبد أن صفته الثابتة هي الرحمة وأن رحمته مستمرة متجددة لا تنقطع، حتى لا يستبد به الوهم بأن رحمته تعرض ثم تنقطع أو قد يأتي وقت لا يرحم فيه سبحانه، فجمع الله كمال الاتصاف بالرحمة لنفسه.

ومن ذلك أنه يستعمل صيغة جمع في مكان ثم يستعمل صيغة جمع أخرى في مكان آخر يبدو شبيهاً بالأول، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ

لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦١] وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ ﴾ [يوسف:٤٣] فأنت ترى أن العدد في الاثنين واحد وهو سبع ولكن استعمل معه ﴿سُنۢبُلَٰتٍ ﴾ مرة، ومرة أخرى: ﴿سَنَابِلَ﴾ وسر ذلك أن سنابل جمع كثرة وسنبلات جمع قلة وقد سبقت الآية الأولى في مقام التكثير ومضاعفة الأجور فجيء بها على سنابل لبيان التكثير.

وأما قوله ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ ﴾ فجاء بها على لفظ القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير، فجاء لكل موضع بما يقتضيه السياق.

ومن لطيف استعمال القلة والكثرة ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١] وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ [لقمان:٢٠] فجمع النعمة في آية النحل جمع قلة (أنعم) وجمعها في لقمان جمع كثرة (نعمه) وذلك أن نِعَم الله لا تُحصى، فلا يطيق الإنسان شكرها جميعها، ولكن قد يشكر قسماً منها، ولذلك لما ذكر إبراهيم وأثنى عليه قال: إنه شاكر لأنعمه، ولم يقل: لنعمه، لأن شكر النعم ليس في مقدور أحد، بل إن إحصاءها ليس في مقدور أحد فكيف يشكرها، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ [النحل:١٨] وأما الآية الثانية فهي في مقام تعداد نعمه وفضله على الناس، فقال: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ ﴾ [لقمان:٢٠] فذكرها بزنة جمع الكثرة.

وقد يستعمل المفرد مرة والجمع مرة أخرى مع أن الموضعين متشابهين فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران:٢٤] فقال مرة: ﴿مَّعۡدُودَةً﴾ ومرة أخرى ﴿مَّعۡدُودَٰتٍ﴾ مع أن القصة واحدة.

والحقيقة أن السياق في الموضعين مختلف، وإيضاح ذلك أن المفرد المؤنث إذا وقع صفة للجمع دلّ على أن الموصوف أكثر منه، إذا كانت صفته جمعاً سالماً، فإنك إذا قلت: (في بلدنا جبال شاهقة)، دل ذلك على أن عندكم جبالاً كثيرة بخلاف ما إذا قلت: (في بلدنا جبال شاهقات) فإنه يدل على القلة، فالأيام المعدودة أكثر من الأيام المعدودات وسبب ذلك أن المقامين مختلفان.

أما الأولى فالكلام فيها على بني إسرائيل وقد أكثر من الكلام عليهم وفي صفاتهم السيئة فذكر أنهم يحرِّفون كلام الله وهم يعلمون، قال تعالى: ﴿۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٥-٧٦] فهم يعرفون جُرمهم ويقرون به ويعملون به عن قصد وإصرار وقد توعَّدهم الله بالعذاب الشديد فقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩] إذن فهم يعملون بالجرم عن قصد، ويحرفونه عن علم ليشتروا به ثمناً قليلاً، وإذن فهم يعلمون أن الله معاقبهم على هذا الجرم فقالوا: ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ فجاء بصيغة الكثرة.

وليس الأمر كذلك في آية آل عمران، فقد قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:٢٣-٢٤] فليس في آية آل عمران مثل الجرم المذكور في سورة البقرة من ارتكاب الذنب العمد وتحريف كلام الله، ففرق كبير بين المقامين، فجاء بزمن العذاب الطويل للجرم الكبير والقليل للذنب القليل فقال: ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ بصيغة جمع القلة في آل عمران بخلاف آية البقرة فسبحان الله رب العالمين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ﴾ [الأنبياء:٤] وقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ﴾ [الفرقان:٦] فقال في آية الأنبياء: ﴿السَّمَاءِ﴾ وفي آية الفرقان: ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ وسبب ذلك أن القول عام يشمل السر والجهر فهو أعم من السر ألا ترى أنك تقول: قلت في نفسي كذا وكذا؟ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨] إن القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر زيادة فكان آكد في بيان الاطلاع على نحو أهم.

والسماء هنا أعم من السماوات وذلك أن ﴿السَّمَاءِ﴾ في القرآن تستعمل على معنيين فهي إما تكون واحدة من ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك:٥] وإما أن تكون لكل من علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره، قال تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح:١١] والسماء هنا بمعنى المطر. وقال ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الرعد:١٧] السماء هنا بمعنى

السحاب وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام:١٢٥] والسماء هنا بمعنى الجو.

المعنى أن الضال عن الحق يكون صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد في الجو لأن المرتفع يضق صدره لاختلال الضغط كما هو معلوم، وهذا إعجاز علمي علاوة على الإعجاز اللغوي، لأنه أخبر بهذه الحقيقة العلمية قبل اختراع الطائرات بقرون. وقال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:١٥] والسماء هنا بمعنى السقف، أي من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً فليمدد حبلاً إلى سقف بيته ثم ليخنق نفسه به لأن محمداً منتصرٌ لا محالة، وهذا إعجاز آخر لأنه إخبار عن المستقبل وقد تحقق ذاك ولا شك أن السماء بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من السماوات لأنها تشمل السماوات وغيرها مما علا وارتفع، فجاء به (القول) الذي هو أعم من (السر) من السماء التي هي أعم من السماوات فاستعمل العام مع العام والخاص مع الخاص.

ألا ترى كيف قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣] وقال: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١] فلما جاء بالسماوات قال: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ولما جاء بالسماء التي هي أعم من السماوات قال: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فجاء بكاف التشبيه وذلك لأن السماء أعرض بكثير من السماوات.

ثم ألا ترى كيف قال تعالى في كل من الآيتين، ففي آية آل عمران قال: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ثم قال: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وفي آية الحديد قال: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ ثم قال: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ وذلك لأن المتقين أخص من المؤمنين بالله ورسله، لأن المتقي لا يكون إلا مؤمناً، أما المؤمن بالله ورسله فقد لا يكون متقياً، فالمؤمنون بالله ورسله أكثر من المتقين فجاء للطبقة الواسعة وهم المؤمنون بالله ورسله بذكر صفتها الواسعة ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ﴾ وجاء مع الطبقة الخاصة الذين هم أقل ممن قبلهم وهم المتقون بلفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ التي هي أقل سعة من السماء فناسب بين السعة والعدد. ثم انظر كيف زاد في آية الحديد، قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١] وذلك لما زاد تفضله على الخلق فوسّع دائرة الداخلين في الجنة، وجعلها في المؤمنين عامة ولم يقصر على المتقين منهم، ذكر هذا الفضل العظيم في آية الحديد.

ثم انظر كيف أنه لما ذكر الجنة بأوسع صفة لها وذكر كثرة الخلق الداخلين فيها ذكر فضله العظيم على عبادة قال: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ في الآية الأخرى، قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ وذلك لأن كثرة الخلق المتوجهين إلى مكان ما تستدعي المسابقة إليه لا مجرد المسارعة.

فانظر كيف ذكر في آية الحديد (المسابقة) وهي تشمل المسارعة وزيادة، وذكر ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي تشمل السماوات وزيادة، وذكر المؤمنين بالله ورسله وهم يشملون المتقين وزيادة، وزاد فيها ذكر الفضل على المغفرة والجنة، فجعل في كل موضع ما يناسبه من الألفاظ فجلّت حكمة الله.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ

﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء:١٣-١٤] فقال في أصحاب الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بالجمع وأن أصحاب النار ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ بالإفراد، وقالوا: إن الحكمة في جمع الوصف أولاً للإشعار بالاجتماع المستلزم لزيادة الأنس والسعادة عند أهل الجنة فإن الوحدة لا تطاق، وإفراده لزيادة التعذيب عند أهل النار فإنه تعذيب بالنار، والوحدة جاء في (حاشية (يس) على التصريح) في هاتين الآيتين: ولعل الحكمة في جمع الوصف أولاً بذلك الاعتبار، وإفراده ثانياً باعتبار اللفظ، ما في صيغة الجمع من الإشعار بالاجتماع المستلزم للتأنس زيادة في النعيم، وما في الإفراد من الإشعار بالوحدة المستلزم للوحدة زيادة في التعذيب، وقيل: إنه لما ذكر في الأول جنات متعددة لا جنة واحدة قال: (يدخله) والضمير المنصوب في (يدخله) وإن كان مجموعاً في المعنى فهو في اللفظ مفرد من حيث هو مفرد، والمفرد من حيث مفرد لا يصح أن يكون في جنات متعددة فجاء ﴿خَٰلِدِينَ﴾ لرفع هذا الإيهام اللفظي، فهو اعتبار لفظي ومناسبة لفظية وإن كان المعنى صحيحاً[(١)].

وأما الآية الثانية فذكر فيها ناراً فناسبها الإفراد في ﴿خَٰلِدًا﴾.

ومن ذلك قوله تعالى في قصة صالح: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف:٧٩] وقوله في قصة شعيب: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٩٣] فأفرد الرسالة مع صالح وجمعها مع شعيب فقال: ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ قالوا: وذلك أن شعيباً بُعث في أمتين:

---

(١) حاشية يس على التصريح، ١/ ١٤٠.

مدين وأصحاب الأيكة (قوم يعيشون خارج مدين تحت شجر ملتف كثيف) وصالحاً بُعث في أمة واحدة قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف:٨٥] وقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧].

ومدين غير أصحاب الأيكة، وشعيب عليه السلام كان من مدين ولم يكن من أصحاب الأيكة ولذلك إذا ذكرت مدين قال: ﴿أَخَاهُمْ﴾ وإذا ذكر أصحاب الأيكة لم يقل: ﴿أَخَاهُمْ﴾ قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف:٨٥]. وقد ذكر الله جملة من الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء، وكلهم قال فيهم ﴿أَخَاهُمْ﴾ إلا أصحاب الأيكة.

فشعيب أرسل إلى أمتين ولذلك جمع الرسالة فقال: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ [الأعراف:٩٣] وقال صالح: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ [الأعراف:٧٩].

ثم لو نظرت إلى ما ذكره كل من صالح وشعيب عليهما السلام وبلّغ به قومه لوجدت أن ما ذكره شعيب من الأوامر والنواهي أكثر مما ذكره صالح.

قال الله تعالى على لسان صالح بعد أن ذكر نعمة الله عليهم ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء:١٥٠-١٥٣]. وقال على لسان شعيب: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء:١٧٩-١٨٥].

فهي في حق صالح رسالة، وفي حق شعيب رسالات.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف:٧٨] وقوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود:٦٧]، وقوله: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود:٩٤].

فأنت ترى حيث ذكر الصيحة جمع الدار وحيث ذكر الرجفة وهي الزلزلة الشديدة وحّد الدار (الأفراد)، وذلك لأن الصيحة تبلغ أكثر مما تبلغ الرجفة، فالرجفة تختص بجزء من الأرض، أما الصيحة فإن صوتها يبلغ مساحة أكبر من مساحة الرجفة لذلك وحّد مع الرجفة وجمع مع الصيحة.

وقريب من هذا قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ [يونس:٤٢] وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ [يونس:٤٣] فقال: ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ بلفظ الجمع وقال بعده: ﴿ يَنظُرُ ﴾ بلفظ المفرد، وذلك لأن المستمعين أكثر من الرائين على وجه العموم ألا ترى أننا نستمع إلى أناس كثير لا نراهم في الإذاعة، والتسجيل وغيرها من وسائل السمع، فجمع المستمعين لأنهم أكثر وإن كان لفظ (من) يحتمل الجمع والمفرد.

وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج:١-٢].

فجمع أولاً فقال: ﴿تَرَوْنَهَا﴾، ثم وحّد فقال: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ ﴾، فإن قلت: لم قيل أولاً: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ ثم قيل: ترى على الإفراد، ذلك لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائين لها. وهي معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر، فلا بد أن يحيل كل واحد منهم رائياً لسائرهم.



الفصل التاسع

الجملـة الإنشائيـة

الإنشاء: ما لا يحتمل صدقاً ولا كذباً، وهو قسمان: طلبي، وغير طلبي.

الطلبي: الذي يستدعي الكلام الذي تقوله شيئاً غير حاصل عند النطق. كقولك: اكتب الدرس. فإن هذا القول يستدعي شيئاً غير حاصل عند تلفظك به. لأن الذي تخاطبهُ لم يكن قد كتب الدرس.

غير الطلبي: إذا كان الإنشاء لا يستدعي أمراً حاصلاً عند الطلب وذلك كالتعجب، والمدح، والذم، والدعاء، وصيغ العقود، والقسم، وبعض أفعال المقاربة وهي: (كاد وكرب) وأفعال الرجاء: (عسى، حرى، اخلولق).

وإذا قلت: ما أجمل السماء! لله درَّه فارساً! فإن هذا قول لا يحتمل الصدق والكذب، فهو إنشاء، ولكنه لا يستدعي شيئاً غير حاصل عند النطق. وهذا القسم لا يبحث فيه البلاغيون لأنه لا تتعلق فيه مباحث بيانية ولأن أكثر صيغه هي في أصلها أخبار، اللهم إلا أفعال الرجاء وصيغة القسم، وإنما يقصرون بحثهم على القسم الأول وهو الإنشاء الطلبي وينحصر في مباحث خمسة (الأمر، والنهي، والتمني، والاستفهام، والنداء).

مباحث الإنشاء الطلبي:

١- الأمر:

تعريفه: طلب الفعل على جهة الاستعلاء، مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة:١١٠].

صيغ الأمر:

وله أربع صيغ:

١- **فعل الأمر**: كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل:٢٠].

٢- **المصدر النائب عن الفعل**: كقول رسول الله ﷺ: «صبراً آل ياسر؛ فموعدكم الجنة».

٣- **المضارع المقترن بلام الأمر**: كقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧].

٤- **اسم فعل الأمر**: مثل: صه! لا تتكلم إلا بخير.

واسم فعل الأمر: منه ما هو سماعي (مه، صه، آمين) ومنه ما هو قياسي وهو ما كان على صيغة (فعال) من الفعل الثلاثي، مثل (دراك) بمعنى (أدرك) و(نزال) بمعنى (انزل).

خروج صيغة الأمر عن دلالتها الأصلية:

الأصل في الأمر أن يدل على الوجوب، وإنما يدل على غيره بالقرائن، ومن هنا لا بد أن يكون من جهة العلو (من أعلى لمن هو أدنى منه).

فإن كان من الأدنى إلى الأعلى؛ فهو الدعاء، (اللهم اغفر لنا وارحمنا) وإذا كان إلى مَن يساويك، فهو التماس.

قد يخرج عن معنى الأمر إلى معانٍ أخرى، أهمها:

١- **الإرشاد**: وذلك كقوله سبحانه: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]. وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

٢- **الاعتبار**: وذلك كقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت:٢٠] وقوله سبحانه: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ [الأنعام:٩].

٣- **التخيير**: كقولك: اقرأ في النحو كتب ابن هشام أو ابن مالك.

٤- **الإباحة**: كقوله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ [البقرة:١٨٧].

٥- **الدوام**: كقوله سبحانه: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦].

٦- **التأديب**: كقول الرسول ﷺ : «يا غلام سمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك».

٧- **التعجب**: كقوله تعالى: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ [الإسراء:٤٨].

٨- **التهديد**: ومنه قوله سبحانه: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت:٤٠].

٩- **التمني**: كقول الشاعر:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ   بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

١٠- **الإهانة والتحقير**: كقول الشاعر:

إبك مثل النساء مُلكاً مُضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجالِ

١١- **التعجيز**: كقوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ [البقرة:٢٣].

١٢- التسوية: كقوله سبحانه: ﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ ﴾ [الطور:١٦].

١٣- الامتنان: كقوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ﴾ [الملك١١٤].

ونبهك إلى أمرين:

أ- أن هذه الصيغ قد يتداخل بعضها في بعضها الآخر.

ب- هذه الصيغ ليست على سبيل الحصر. فهناك صيغ كثيرة يمكن أن تستفاد من السياق: كـ (الندب، والتلهف ، والتحسر، والخبر، والإكرام، والتكوين، والتفويض، والتكذيب، والمشورة، والتسخير، والتسليم).

وكتب الأصول اشتملت على كثير من هذه الأغراض، واتفق الأصوليون على إطلاقها بإزاء خمسة عشر غرضاً:

١- **الوجوب**: كقوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الإسراء:٧٨].

٢- **الندب**: كقوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ ﴾ [النور:٣٣].

٣- **الإرشاد**: كقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ [النساء:١٥].

٤- **الإباحة**: كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ ﴾ [المائدة:٢].

٥- **الامتنان**: كقوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام:١٤٢].

٦- **التأديب**: كقوله: (كُلْ مما يليك).

٧- **الإكرام**: كقوله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر:٤٦].

٨- **التهديد**: كقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾ [فصلت:٤٠].

٩- **الإنذار**: كقوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ ﴾ [هود:٦٥].

١٠- **التسخير**: كقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥].

١١- **التعجيز**: كقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً﴾ [الإسراء:٥٠].

١٢- **الإهانة**: كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩].

١٣- **التسوية**: كقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ [الطور:١٦].

١٤- **الدعاء**: كقوله تعالى: ﴿ٱغْفِرْ لِى﴾ [الأعراف:١٥١].

١٥- **القدرة**: كقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

٢- النهي:

تعريفه: طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، وله صيغة واحدة وهي المضارع مع (لا) الناهية، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢] فإن لم يكن على وجه الاستعلاء، كان دعاء - إن كان من الأدنى إلى الأعلى - كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]. أو التماساً، كقولك لصديقك: لا تسبقني.

وقد تخرج صيغة النهي عن مدلولها الرئيسي إلى معانٍ تعرف بالقرائن، وتستفاد من السياق، ومنها:

صيغ النهي:

١- **الإرشاد**: كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١].

٢- **التهديد**: كقولك للمهمل في دراسته: لا تدرسْ.

٣- **التيئيس**: كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التحريم:٧].

٤- **التوبيخ**: كقول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي بمثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

٥- **التسلية والتصبُّر**: كقول الشاعر:

لا تلم كفي إذا السيفُ نبا   صحَّ مني العزمُ والدهرُ أبى

٦- **التحقير**: كقوله تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر:٨٨].

٧- **التمني**: كقول الشاعر:

أعينيَّ جودا ولا تجمدا   ألا تبكيان لصخرِ النَّدَى

٣- التمنّي:

تعريفه: هو طلب حصول الشيء المحبوب دون أن يكون لك طمع وترقب في حصوله. ذلك لأن الشيء الذي تحبه إن كان قريب الحصول مترقب الوقوع كان ترجياً ولا يسمى تمنياً.

الفرق بين التمنّي والترجّي:

الرقم	التمنّي	الترجّي
١	طلب حصول الشيء المحبوب دون ترقّب.	طلب حصول الشيء المحبوب مع ترقّب.
٢	طلب شيء وهو من أقسام الإنشاء.	ليس من أقسام الإنشاء الذي ليس طلبياً.
٣	طلب المستحيل.	طلب الممكن.
٤	طلب شيء محبوب قد يكون مستحيلاً أو ممكناً مع صعوبة تحققه.	تتوقع نفسك هذا الشيء.
٥	التحقيق غير متوقع.	الأسباب مهيأة لك وتحقيق التوقع.

أدوات التمنّي:

١- **ليت:** وذلك لكثرة مجيئها في كتاب الله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس:٢٦-٢٧] وهناك أدوات أخرى للتمنّي خرجوا بها عن أصل وضعها، وهذه الأدوات هي: (لعل، هل، لو) ومن الأخيرتين: رُكبت هذه الكلمات (هلاّ، لولا، ولوما).

أما هل فهي: في أصلها أداة الاستفهام.

أما لو فهي: حرف امتناع لامتناع.

أما لعلّ فهي: حرف ترجي.

وهم يستعلمون هذه الأحرف مكان (ليت) وهذا الاستعمال لا بد له من غرض بلاغي:

١- هل: تستعمل للتمني إذا أردنا أن نبرز المتمنَّى في صورة الممكن الذي لا نجزم بانتفائه. وذلك لكمال العناية، كقوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف:٥٣].

٢- لو: ونأتي بها حينما يكون المتمنَّى عزيزاً، صعب الوقوع، بعيد المنال كقوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٠٢].

ولو وضعت في حقيقتها لتدل على امتناع الشيء، ومن هنا كانت حرف امتناع للامتناع. والدليل على أن (لو) للتمني، وأنها خرجت عن أصل الوضع أن الفعل المضارع ينصب بعدها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٠٢] جاء الفعل المضارع نكون منصوباً، ولو أنها بقيت على أصلها، حرف امتناع لامتناع لم ينصب المضارع بعدها كقولك: لو زرتني أكرمك، برفع الفعل المضارع، لأنك لم تقصد التمنّي كما تعلم أن الفعل المضارع ينصب بأن مضمرة بعد الأمر والنهي والتمني والعرض والتحضيض والاستفهام، والنفي.

وألحقوا بـ (هل، لو): (لا و ما) فقالوا هلاّ، لولا، لوما، يقصدون بها التمني كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يونس:٩٨] وقوله سبحانه: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:١٣] فهذه الأحرف دخلت على الفعل الماضي والغرض منها عند ذلك التنديم، كأنما تريد أن تجعله يندم على ما فرط منه، فإذا دخلت على المضارع. فإن الغرض يكون التحضيض، أي: الحث على طلب الشيء، قال تعالى: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر:٧].

ومن أدوات التمنّي التي خرجت عن الأصل (لعل) فإن أصل وضعها الترجّي، والغرض من استعمالها للتمنّي الدلالة عل استحالة الأمر المتمنى بها قال

تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [القصص:٣٨].

وكما استعملت (لعل) مكان (ليت) فقد تستعمل (ليت) مكان (لعل) فيقصد بها الترجي. وإنما كان التمنّي بـ (لعل) أمراً مستحيلاً؛ لأن (لعل) وضعت في أصل الوضع للترجي، وهو ترقب حصول الأمر، فلو كان المتمنَّى بها أمراً ممكناً، لالتبس الأمر، وفهم منها الترجي، لذا لا يتمنى بها إلا الأمر المستحيل.

٤- النداء:

تعريفه: طلب إقبال المخاطب، أو دعوة المخاطب بحرف ناب مناب الفعل، كـ (أدعو) أو (أنادي).

وحروفه ثمانية (يا، الهمزة، أي، أيا، هيا، وا، آ، آي).

وقبل أن نحدثك عن أدوات النداء، يجمل أن تعرف أن الجملة في النداء تتكون من الفعل الذي ناب عنه حرف النداء وفاعله، فإذا قلت: يا صلاح الدين! وأردت استخراج المسند والمسند إليه من هذه الجملة، فإن المسند هو الفعل (أدعو) الذي ناب عنه حرف النداء (يا) والمسند إليه هو (الفاعل) وهو أنا.

وفي النداء مطلبان اثنان:

١- أدوات النداء.

٢- الأغراض التي تخرج إليها صيغة النداء.

أدوات النداء:

أدوات النداء تقسم إلى قسمين:

١- قسم لنداء القريب.

٢- قسم لنداء البعيد.

أدوات نداء القريب:

١- الهمزة: أبني.

٢- أي: أي بني.

أدوات نداء البعيد:

١- **يا**: وهي الأكثر استعمالاً، وهي مشتركة بين النداء البعيد والقريب، ولكن كثيراً من العلماء ذهب إلى أنها وُضعت لنداء البعيد. ومنها قول الشاعر:

أيا شجر الخابورِ مالك مورقاً   كأنكَ لم تحزنْ على ابن طريف

وكثيراً ما تحذف (يا)، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ [القصص:١٦] وقال سبحانه: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف:٤٦].

٢- **أيا**: ومنها قول الشاعر:

أيا جامعَ الدنيا لغير بلاغةٍ   لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

٣- **وا**: وهي أكثر ما تستعمل في الندبة. مثل وا حرّ قلباه، وا معتصماه.

٤- **بقية أحرف النداء (هيا، آ، آي) هي الأقل استعمالاً من سابقاتها**: كقولك: هيا ذكريات الماضي، آي بني قومي، آفلسطين سلاماً واعتذاراً.

إنزال القريب منزلة البعيد في النداء:

قد ينزل القريب منزلة البعيد، فينادى بإحدى أدواته، وذلك لأسباب أهمها:

١- **للدلالة على أن المنادى رفيع القدر، عظيم الشأن**: فيجعل بُعد المنزلة كأنه بُعد في المكان كقول الشاعر:

أبـا دُلـفٍ بوركـت في كـل بلـدةٍ كما بُورِكَتْ في شهرها ليلـةُ القـدرِ

٢- للإشارة إلى أنه وضيع ومنحط الدرجة: كقولك: يا مفرطاً في وطنك خبت وخسرت.

٣- للإشعار بأن السامع غافل لاهٍ: فتعده كأنه غير حاضر في مجلسك ومنه قولك: يا أيها الغارقون في لذاتكم، المفتونون بعدوكم، سيطلع الفجر.

أهم الأغراض التي تخرج إليها صيغ النداء:

١- التحسُّر والتوجُّع: ومنه قوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر:٥٦].

٢- التعجب: كقول الشاعر:

يــا لـــك مـــن قُـــبَّرَةٍ بمعْمَـــرِ خلا لكِ الجـوُّ فبيـضي واصْـفِري

٣- الاختصاص: ويكون بحذف النداء، مثل: أيها الرجلُ. أي: دون الرجال. وهذا أحد الفروق بين النداء والاختصاص، إذ في المنادى قد يذكر حرف النداء، والاختصاص بحذفه، وهناك فرق آخر، وهو أن الاختصاص خبر، والنداء إنشاء فإذا قلت: عليّ اعتمد أيها الفتى، فالمعنى: أخص الفتى، والمقصود هو أنت وليس من تخاطب، وهذا معناه الفخر، فكأنك تفخر بنفسك.

٤- الندبة: كقولك: وا حرّ قلباه.

٥- الإغراء والتحذير: كقول الله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ [الشمس:١٣].

٦- الزجر والملامة: كقول الشاعر:

أفــؤادي متـــى المتـــابُ أَلَـــمّا   تَصِحَّ والـشيبُ فـوق رأسي أَلَـــمَّا

٥- الاستفهام:

تعريفه: طلب الفهم، وهو استخبارك عن الشيء الذي لم يتقدّم لك علم به.

أدواته: إحدى عشرة أداة:

١- **حرفان:** الهمزة، هل.

٢- **تسعة أسماء:** (من، ما، متى، أين، أيّان، أنّى، كيف، كم، أي).

وهناك مطلبان في الاستفهام:

١- الفرق بين أدوات الاستفهام وما يستفهم عنه بها.

اعلم أن هذه الأدوات تنقسم من حيث المستفهم عنه إلى أقسام ثلاثة:

أ- منها ما يستفهم به عن الحكم - وهو إثبات شيء لشيء، أو نفيه عنه، كقولك: هل تحب العلم؟ هل يسافر أخوك؟

أنت لم تستفهم عن مفرد، فلم تستفهم عن المحبة أو العلم، ولم تستفهم عن السفر أو عن أخيك إنما كان استفهامك عن الحكم الذي هو إثبات حبك للعلم، وسفر أخيك، وهذا الذي يعبرون عنه بالتصديق، وهو إدراك النسبة بين أمرين.

ب- ما يستفهم به عن مفرد، تقول مثلاً: ما البُرُّ؟ فيقال لك: القمح. فأنت ترى أنه لا حكم هنا، فلم نثبت شيئاً لشيء. وهذا ما يسمونه التصوّر.

٣- ما يُستفهم به عن هذين معاً، أعني: عن القضية التي فيها إثبات حكم أو نفيه، وهو التصديق، وعن المفرد الذي هو التصور.

وهذا القسم الذي يُستفهم به عن التصوُّر والتصديق هو الهمزة، أما الذي يُستفهم به عن التصديق وحده؛ فهو (هل) وأما الذي يُستفهم به عن التصور وحده فهو باقي الأدوات.

أدوات الاستفهام:

١- **الهمزة**: يستفهم بها عن التصور والتصديق، أي: عن المفرد وعن الحكم. أجاء الأستاذ، فأنت تسأل عن مجيء الأستاذ وهذا هو التصديق، لأن التصديق إنما هو إدراك النسبة بين شيئين (إثبات الحكم أو نفيه) وقد يُستفهم بالهمزة عن التصور، كقولك: البلاغة صعبة أم العروض؟ أنت هنا لا تستفهم عن الحكم، لأنك تعرف أن أحدهما أصعب ولكنك تريد تعيين الصعب، فيقال لك: البلاغة.

أحكام الهمزة:

١- أنها للتصوّر والتصديق.

٢- يليها المسؤول عنه دائماً. كقولك: - من المسافر، سعيد أم خالد؟ فتقول: أسعيد مسافر أم خالد؟ ولكن إذا أردت أن تسأل عن سعيد أمسافر أم مقيم؛ فيجب أن تقول: أمسافر سعيد أم مقيم؟ الهمزة إذن لا بد أن يليها المسؤول عنه للتصور.

٣- إن كانت الهمزة للتصور فيجب أن يذكر بعدها المعادل، ومعادل الشيء ما يساويه، لأن العدل هو المساواة، ومن هذا القبيل: فلان عديل فلان، فإذا كان المسؤول عنه زيد، فمعادله عمرو أم خالد، وإذا كان المسؤول عنه السفر، فالمعادل له الإقامة.

ولا بد أن يأتي المعادل بعد (أم) التي هي من حروف العطف، فإذا قلت: أزيد مسافر؟ وأردت التصور، فيجب أن تذكر المعادل، فتقول: أزيدٌ مسافر أم عمرو؟ ولا تقل: أم مقيم لأن المعادل لزيد والمقابل له: عمرو. وتقول: أمسافر خالد أم

مقيم؟ لأن المعادل لكلمة مسافر والمقابل لها كلمة مقيم. وتقول: أفي الأردن تقول شعرك أم في الأندلس؟ لأن الذي يعادل الأردن ويقابلها الأندلس.

٤- الهمزة إذا كانت للتصور يكون الجواب عنها بتعيين المسؤول عنه من فعل أو فاعل، ولا يصح أن يكون الجواب بـ (نعم) أو (لا) وإذا كانت للتصديق يكون الجواب عنها بـ (نعم) أو (لا).

أ- للتصور كقولك: أأبوك في البيت أم أخوك، تقول: أبي في البيت.

ب- للتصديق كقولك: أتنتظر من أمريكا خيراً؟ لا.

٥- إذا كانت للتصديق، فلا يجوز ذكر المعادل بعدها. كقولك: أسافر خالد أو أردت أن تسأل عن خالد أمسافر؟ فتقول: أخالد مسافر؟ فإنك في هذه القضايا جميعها لا تأتي بـ (أم) ولا بالمعادل، ولهذا ترى الجواب فيها بـ (نعم) أو (لا).

٦- الهمزة هي أعرق أدوات الاستفهام، ولهذا لا يتقدم عليها حرف العطف كما يتقدم على غيرها، فإذ اجتمعت مع حرف العطف تقدمت عليه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود:١٧] وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك:٢٢]، وكذلك حين تجتمع مع (الواو) أو(ثم) كقوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام:١٢٢] وقوله: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف:١٨] وقوله مع (ثم) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [يونس:٥٠-٥١] أما بقية أدوات الاستفهام، فإنها تتأخر عن حروف العطف، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود:١٤] وقوله: ﴿ فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الملك:٢٨].

٧- فهي لا تقع بعد (أم)، فلا يقال: (أم أأنت مسافر) أما غيرها من أدوات الاستفهام فإنها تقع بعد (أم)، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد:١٦].

عرفت أن من أحكام الهمزة أن يليها المسؤول عنه، أنها تكون للتصور وللتصديق وإنها إذا كانت للتصوّر، فينبغي أن يذكر بعدها (أم) والمعادل. وعرفت أن المعادل هو المقابل للمسؤول عنه، لا الذي يلي الهمزة.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣-١٤٤].

في النص الكريم نجد أن الذي جاء بعد الهمزة هو المسؤول عنه، وهو الذكرين، وذكر بعدها (أم) والمعادل، والذي يعادل الذكرين الأنثيان، لماذا قدم الأنثيين هنا وهو المفعول. قد تم شرح ذلك في التقديم والتأخير.

وفي قوله تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات:٢٧-٢٨] الذي ولي الهمزة هنا ﴿أَنْتُمْ﴾ والمعادل الذي ذكر بعد ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ لأن السؤال: أيهما أكبر خلقاً؟ أأنتم أم السماء؟ .

ومن قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤] فأنت ترى أن الذي جاء بعد الهمزة الضمير ﴿ءَأَنْتُمْ﴾، والمعادل له ﴿نَحْنُ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨] وقوله سبحانه: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام:٧٤].

٢- **هل**: وهي للتصديق فحسب، فلا يسأل بها عن التصور، لهذا يمتنع أن تأتي بعدها (أم) والمعادل. تقول: هل يستعد العرب لإنقاذ فلسطين؟ فإن سؤالك بـ (هل) يقتضي جهلك بالحكم وذكرك المعادل بعد (أم) يدل على معرفتك بالحكم.

أحكام هل:

١- إنها للتصديق، ولا نذكر بعدها (أم) ولا المعادل، لأن ذلك يفضي إلى التناقض. فإن ذكرت (أم) بعدها فهي منقطعة.

٢- إنها إذا دخلت على المضارع، فإنها تخلصه للاستقبال فهي (كالسين وسوف) ولا يكون للحال. كقولك: هل تستعد لتقديم الامتحان؟ كما لا يجوز أن تدخل على أفعال مضارعة وقعت في الماضي مثل: هل تغش في الامتحان؟ أو تدل على الحال كقولك: هل تنكر عليّ ذلك؟ ومن الأفعال التي تدل على المستقبل كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] وقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠].

إذن المضارع وحده الذي يدل على الاستقبال إذا دخلت عليه (هل).

٣- أنها لا تدخل على الشرط: فلا تقل: هل إن جئتك تكرمني؟ كما أنها لا تدخل على (إنَّ): فلا تقل: هل إنك ناجح؟ ولا على المضارع المنفي، فلا تقل: هل لم يستيقظ النائمون؟ .

٤- يقبح دخولها على جملة يشعر نظمها بمعرفة الحكم فلا يحسن أن تقول مثلاً: هل فنونَ البلاغة أحببت؟ لأن هل يستفهم بها عن معرفة الحكم؟ .

واعلم أن (هل) يكثر أن يأتي بعدها الفعل، لذلك ذهب النحويون إلى أن (هل) في أصلها بمعنى (قد) بحسب كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] معناه: قد أتى على الإنسان، وقد يكون الفعل الذي تدخل عليه ماضياً، قال تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف:٤٤].

الأصل في (هل) أن تدخل على الجملة الفعلية! لكن عند دخولها على الجملة الاسمية فهذا يثير تساؤلاً، لأنه قد عدل بها عن الأصل! والآيات التي معنا: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١] وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠] وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:١٤].

الآيات التي استعلمت فيها (هل) دلت على طلب الشكر في الحال والاستقبال، دلت عليه غير مقيد بزمن.

فالآية الأولى بيان للرسول ﷺ وقد كان حريصاً على هداية القوم، يشق على نفسه، فبيّن الله له بأن ذلك ليس من شأنك، ولا اختصاصك، وأن هؤلاء قوم أظلمت نفوسهم، فأنت لا تسمع الصم ولا تهدي العمي.

٣- بقية أدوات الاستفهام:

أ- ما: أكثر ما يستفهم بها عن غير العقلاء، وقد تكون لتعريف الشيء وبيان معناه من حيث اللغة، كما يقال لك: ما الغضنفر؟ فتقول: الأسد.

وقد كثر استعمال ما الاستفهامية في كتاب الله وبخاصة في التهويل والتعظيم، قال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٣] فقد تذكر ما في الآية الواحدة مرتين كما رأيت، وكما هو الحال في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة:١٠-١١].

ب- من: أكثر ما تستعمل للعقلاء، كقولك: مَن في البيت؟ أحمد. وكقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٩] أي: ملك أم بشر، فقال ﷺ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] أي: هو الذي خلق الأجناس كلها.

ج- أي: ويسأل بها عما يميّز أحد المتشاركين في أمر من الأمور، كقوله تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:٨١] فأنت ترى أن ما دخلت عليه (أي) إنما هو مشترك مع غيره، فكان الهدف من السؤال تمييزه.

د- كم: ويستفهم بها عن العدد، كقولك: كم درهماً لك؟ عشرون درهماً.

هـ- كيف: ويستفهم بها عن الحال: كقولك: كيف زيد؟ فالجواب: صحيح أو سقيم.

و- أين: ويستفهم بها عن المكان، كقولك: أين أحمد؟ في الدار أو في السوق.

ز- متى: ويستفهم بها عن الزمان ماضياً كان أو مستقبلاً، كقولك: متى جئت؟ والجواب: صباحاً.

ح- أيان: ويستفهم بها عن المستقبل، كقول الله سبحانه: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:٦] وقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٢].

ط- أنى: وتكون:

١- بمعنى (كيف) كقوله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ [البقرة:٢٢٣] أي: كيف شئتم.

٢- بمعنى (من أين) كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران:٣٧].

٣- بمعنى (متى) كقولك: أنّى يحضر الغائبون؟ .

الأغراض التي تخرج إليها أدوات الاستفهام:

أولاً: التقرير:

مفهومه: ومعناه أن تقرر المخاطب بشيء ثبت عنده، لكنك تخرج هذا التقرير بصورة الاستفهام ذلك لأنه أوقع في النفس، وأدل على الإلزام كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك:٨] فإن الغرض منه إقرارهم بمجيء النذير، لكنه أخرجه بصورة الاستفهام، وذلك لما فيه من حجة دامغة.

أقسامه:

١- بمعنى التحقيق والتثبيت كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٥] فهو تحقيق وتثبيت لما قاله لموسى من قبل، وقد حدّثنا القرآن الكريم أن موسى لما طلب من العبد الصالح أن يتبعه، بين له أنه لا يستطيع، ومعناه أنني قد قلت ذلك فهو تثبيت للقول وتحقيق له.

ومن ذلك قول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨] فإن موسى عليه السلام لا ينكر ذلك، وإنما يريد فرعون تثبيت هذا الأمر، أي: قد ربيناك فينا وليداً.

وهذا القسم من الاستفهام التقريري هو إنشاء من حيث اللفظ، خبر من حيث المعنى، إنشاء من حيث اللفظ، لأن صيغة الاستفهام من أقسام الإنشاء، خبر من حيث المعنى، لأن معناه تثبيت الخبر وتحقيقه. فمعنى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾، قد ربيناك، ومعنى ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا﴾ [يوسف:٨٠] قد علمتم إذن اللفظ إنشاء والمعنى خبر وهذا القسم لا يطلب المتكلم له جواباً، لأنه إنما يريد تحقيق الخبر، فهو لا يحتاج إلى جواب من المخاطب.

٢- طلب إقرار المخاطب بما يريد المتكلم كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] وقوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦].

ويختلف هذا القسم عن سابقه بما يلي:

أ- هو إنشاء لفظاً ومعنى: فقولك: ألست بأستاذك؟ هذه إنشاء من حيث اللفظ لأنها على صورة الاستفهام، والاستفهام من أقسام الإنشاء، وهي إنشاء من حيث المعنى. فإن المقصود من العبارة حمل تلميذك على أن يقر بذلك.

ب- إن هذا القسم يحتاج إلى جواب، كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢] وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨] تقول: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين.

ثانياً: الإنكار:

من أهم الأغراض التي تخرج إليها أدوات الاستفهام عن وضعها الحقيقي ومن أكثرها شيوعاً: الإنكار، ويسمى استفهاماً إنكارياً.

الفرق بين الاستفهام الإنكاري والاستفهام التقريري:

الاستفهام التقريري تريد تثبيت الأمر وتحقيقه أو تنزع إقرار المخاطب واعترافه، أما الاستفهام الإنكاري فأنت لا تقرر المخاطب في شيء، وإنما تنكر عليه وتستهجن ما حدث في الماضي، أو ما يمكن أن يحدث في المستقبل.

أقسامه:

١- **تكذيبي (الاستفهام التكذيبي)**: التكذيب في الماضي أن يدعي عليك أحد أنك غبت عن عملك، فأنت هنا لست مستفهماً عن شيء لم تعمله، وإنما جئت بأداة

الاستفهام، فأخرجتها عن وضعها الحقيقي، فأنت تنكر على صاحبك وكذبه فيما صدر منه في الماضي: كقوله سبحانه: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء:٤٠] فإنه ينكر عليهم هذه الافتراءات والادعاءات وهي أن الله أصفاهم بالبنين، واتخذ من الملائكة بنات له، فهو يكذبهم بهذا القول الذي صدر منهم ومثله قوله سبحانه: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الصافات:١٥٣-١٥٥] فهو إنكار عليهم وتكذيب لهم فيما ادعوه.

والتكذيب في الماضي إذن معناه أن هذا الشيء لم يحصل، ولم يحدث والتكذيب في غير الماضي معناه أن هذا الشيء لن يحصل، ولن يحدث ولن يكون كقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود:٢٨] أي: ليس صحيحاً ما تدعون من أننا سنلزمكم ونرغمكم على الإيمان بالرسالة مع كراهيتكم لها، فهو إنكار أن يحدث هذا الإلزام ويقع. إذن الاستفهام التكذيبي الإنكاري إنما يكون على شيء لم يحدث في الماضي ولن يحدث في المستقبل.

٢- الاستفهام التوبيخي:

أ- الاستفهام في الماضي ومثاله: أن تقول لمن عرفته مجتهداً، ولكنه رسب في امتحانه: أرسبت في امتحانك؟ فأنت توبخه، وكأنك تقول له: ما كان ينبغي منك هذا، ولا يليق أن يصدر منك.

ب- الاستفهام في المستقبل، ومثاله: قولك لمن عرفت أنه سيترك الدراسة: أتترك دراستك؟ فأنت توبخهُ على هذا أو تقول له: لا ينبغي أن يكون ذلك منك.

والفرق بين التكذيبي والتوبيخي أن التكذيبي هو ما لم يحدث في الماضي ولن يحدث في المستقبل، والتوبيخي يكون على شيء حدث أو يمكن أن يحدث كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] فهو يوبخهم على أن يقع منهم ذلك، كأنه يقول: لا ينبغي أن يكون منكم الكفر، وهذه نِعَم الله عليكم كما تعرفون.

الغرض البياني من الاستفهام الإنكاري، والفرق بينه وبين النفي الصريح:

بعد أن عرفت الاستفهام بأقسامه أدركت أن معناه إنكار وقوع الشيء ماضياً أو مستقبلاً على سبيل التوبيخ أو التكذيب، فهو إنشاء لفظاً، وخبر معنى، ولعلك تتساءل: هل هناك غرض بياني يؤديه الاستفهام الإنكاري؟ فإذا كان معناه النفي أفلا تكفي صيغة النفي دون أن نضعها بقالب الاستفهام، فتقول فيما مضى من أمثلة: أنا لا أرتشي، ولم أرغب عن عمل، فلماذا عدل عن هذه الصيغ إلى صيغة الاستفهام الإنكاري؟ .

فإذا قلت لصاحبك: أتزعم أنك ستبني مسجداً؟ فأنت هنا أنكرت بطريق الاستفهام: وإذا قلت له: أنت لم تكتب هذه المقالة، فإنك أوردت كلامك بطريق النفي الصريح، عندما ألقيت كلامك بصيغة الاستفهام، فكأنك تنتظر جواباً، وفائدة أخرى للاستفهام الإنكاري هي أن المتكلم عندما يلقى كلامه بصيغة الاستفهام، فإن ذلك يدل على الثقة التي تملأ نفسه، لأنه يلقي كلامه وهو يدرك أنه لو كان في كلامه أدنى ريب، لرده عليه قائله جواباً على استفهامه.

ثالثاً: الأغراض الأخرى:

ومن الأغراض التي يمكن أن تخرج لها أدوات الاستفهام غير التقرير والإنكار:

١ - **التعجب**: أرفعت هذه الصخرة! .

٢ - **الوعيد والتخويف**: كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات:١١].

٣- **الأمر**: كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٥].

٤ - **النهي**: كقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة:١٣].

٥- **التهكم**: كقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧].

٦- **الاستبعاد**: كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ﴾ [الأنعام:١٠٦].

٧- **التهويل**: كقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٢].

٨- **التحقير**: كقوله تعالى: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:٤١].

٩- **التنبه على ضلال المخاطب**: كقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير:٢٦].

١٠- **التمني**: كقوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ [الأعراف:٥٣].

١١- **الاستبطاء**: كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

١٢- **التعظيم**: كقولك: أي رسول هذا الذي منّ الله علينا به.

١٣- **النفي**: هل أنت إلا نطفة قذرة، وجيفة قذرة؟ .

١٤- التشويق: كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الصف:١٠].

١٥- التكثير: كقول الشاعر:

صاح هذي قبورنـا تمـلأ الرحـبَ   فـأين القبـور مـن عهـد عـادِ

١٦- التسوية: كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء:١٣٦].

الفصل العاشر

الفواصل في الآيات

مفهوم الفواصل: نهايات منسجمة موسيقياً بعضها مع بعض من ﴿ خَبِيرًا، كَبِيرًا ، عَلِيمًا﴾ ومن الملاحظ أن القرآن يعني بهذه الانسجام عناية واضحة لما لذلك من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر في النفس، فقد ترى أنه مرة يقدم كلمة ومرة يؤخرها انسجاماً مع فواصل الآيات كقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء:٤٧-٤٨] بتقديم موسى على هارون، فيجعل كلمة هارون نهاية الفاصلة انسجاماً مع الفواصل السابقة واللاحقة، ويقول سبحانه: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه:٧٠] بتقدم هارون وجعل موسى نهاية الفاصلة لأن الألف فيها هي التي تناسب فواصل الآيات في سورة طه.

أسباب وجود الفواصل ومبرراتها:

١- حذف شيء من الكلام لتنسجم فواصل الآيات، إذ لو أبقى المحذوف لم تنسجم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء:٧٢-٧٣] إذ الأصل (أو يضرونكم، مقابل أو ينفعونكم) ولكنه حذف المفعول به من (يضرونكم) إذ لو أبقاه لم تنسجم فاصلة الآية مع بقية الآيات.

٢- قد يزيد شيئاً في الكلمة للغرض نفسه، كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب:٦٧] فقد مد فتحة (السبيل) لتنسجم الفاصلة مع فواصل الآيات المتقدّمة والمتأخرة.

٣- قد يبدل كلمة بكلمة أخرى، مع أن الآيتين متشابهتان، ذلك لأن فواصل الآيات في كل من المواطنين مختلفة، فيجعل في نهاية كل آية ما ينسجم موسيقياً مع أخواتها نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤] وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١٨] فأنت ترى في الآيتين تشابهاً إلا في خواتم الآيات، فإن فاصلة آية إبراهيم وهو قوله: ﴿كَفَّارٌ ﴾ منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها ﴿ٱلْأَنْهَٰرَ ، ٱلنَّهَارَ ، كَفَّارٌ﴾ وفاصلة آية النحل ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها ﴿تَشْكُرُونَ ، تَهْتَدُونَ ، تَذَكَّرُونَ ﴾.

٤- أن يضع كلمة في مكان ويضع غيرها في مكان آخر يبدو شبيهاً بالموضع الأول تجنباً للتكرار، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨] وقوله في مكان آخر: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦] فأنت ترى أنه غاير بين الفاصلتين تجنباً للتكرار وانسجاماً مع موسيقى الآيات.

٥- مراعاة كل ما يقتضيه التعبير والمعنى، ولم يفعل ذلك للانسجام الموسيقى وحدة فإنه لو لم يكن الجانب الموسيقى مراعى، في ذلك لاقتضاه الكلام من جهة أخرى. فهو لم يختم آية الشعراء بكلمة (هارون) وآية طه بكلمة (موسى) مراعاة للانسجام الموسيقي وحده، بل اقتضاه الكلام من جهة أخرى.

أسرار التعبير القرآني:

إن الذين بحثوا في أسرار التعبير القرآني لم يوفقوا في اكتناه أسرار التأليف بحيث تدرك تعليلاتهم متكلّفة وتأويلاتهم بعيدة، ولكن هناك قسم آخر تمكّن أن يضع يده على أنفس الجواهر في التأليف وأن يستكنه أدق أسرار التعبير من غير تكلّف ولا غموض.

١- فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء:٧٢-٧٣] فقد ذكر مفعول النفع ولم يذكر مفعول الضر، وقد تظن أنه إنما فعل ذلك لفواصل الآيات، ولا أشك أنه لو ذكر المفعول به لم تنسجم الفاصلة من فواصل الآيات، ولكن الحذف ما اقتضاه المعنى أيضاً فقد ذكر مفعول النفع فقال: (ينفعونكم) لأنهم يريدون النفع لأنفسهم وأطلق الضر لسببين:

١- أن الإنسان لا يريد الضرر لنفسه وإنما يريده لعدوه.

٢- أن الإنسان يخشى من يستطيع أن يلحق به الضرر.

فإننا نرى أن النفع موطن تخصيص، والضر موطن إطلاق، فخص النفع وأطلق الضر والمعنى أن هذه الآلهة لا تتمكن من الإضرار بعدوكم كما أنها لا تستطيع أن تضركم فلماذا تعبدونها؟ ولو ذكر المفعول به: فقال (أو يضرونكم) لما أفاد هذين المعنيين فانظر كيف أن الإطلاق في الضر اقتضاه المعنى علاوة على الفاصلة.

٢- ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه:٧٩] ولم يقل: وما (هداهم) وذلك أنه أخرج الفعل مخرج العموم، أي: إن فرعون لم يتصف بصفة الهداية ألبتة، ولو قال: (وما هداهم) لكان عدم الهداية مفيداً بقومه إذ يحتمل أنه

هدى غيرهم لكنه، قال: (وما هدى) أي: ما هدى أحداً، فهو قد أضل قومه ولم يهدِ أحداً لا من قومه ولا غيرهم.

٣- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤] وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١٨]. فقد تظن أنه ختم آية إبراهيم بقوله: ﴿كَفَّارٌ﴾ مراعاة لفواصل الآيات في هذه السورة، وختم النمل بـ ﴿رَّحِيمٌ﴾ مراعاة فواصل الآيات فيها.

ولا شك أن خاتمة كل من الآيتين تنسجم موسيقياً مع الآيات فيهما، ولكن السياق أيضاً يقتضي الفاصلة التي فصلت فيها كل آية من الآيتين، ذلك أن الآية في سورة إبراهيم في سياق وصف الإنسان وذكر صفاته فختم الآية بصفة الإنسان، وأن الآية في سورة النحل في سياق وصف الله تعالى فذكر صفاته.

فإننا نرى أن الكلام على صفات الله ونعمه على الإنسان في سورة النحل بارزة فختمه بصفته.

٤- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠] وقوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٦-٤٨] قدّم في سورة (طه) ذكر (هارون)، وفي سورة الشعراء ذكر موسى، وقد تظن أن ذلك ما يقتضيه أواخر الآيات وتقول: صحيح أن أواخر الآيات في سورة (طه) تقتضي أن يكون (موسى) في آخر الآية، وفي الشعراء تقتضي كلمة (هارون) هي الفاصلة، ولكن هناك ملحظ آخر يقتضي تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، ولو لم تكن أواخر الآيات كذلك، انظر إلى الفرق بين القضيتين في السورتين.

	سورة طه	سورة الشعراء
١	ذكر هارون تكرر في سورة طه كثيراً وقد جعله الله شريكاً لموسى في تبليغ رسالته: أ- ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴾ [طه:٢٩-٣٠]. ب- ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ [طه:٤٢]. ج- ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه:٤٣]. د- ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [طه:٤٥]. هـ- ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦]. و- ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [طه:٤٧]. ز- ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٤٩]. ح- ﴿ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم ﴾ [طه:٦٣]. ط- ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓا أَمْرِي ﴾ [طه:٩٠]. ي- ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ ﴾ [طه:٩٢-٩٣].	لم يرد إلا قليلاً: أ- قال تعالى: ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ [الشعراء:١٣]. ب- قال تعالى: ﴿ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:١٥].
٢	ذكر خوف موسى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه:٦٧]	لم يذكر حالة الخوف هذه في الشعراء.
٣	تبدأ بحرفين طه (ط، هـ) والهاء أول حرف من هارون.	تبدأ طسم وآخر حرف من موسى عليه السلام.

٥- ومن بديع الفاصلة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر:٧٨] وقوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٥] فقد ختم الآية الأولى بقوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وختم الآية الثانية بقوله: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وذلك لأن كل كلمة مناسبة للسياق الذي وردت فيه، فالأولى وردت في سياق الحق، ونقيض الحق الباطل، والثانية في سياق الإيمان ونقيض الإيمان الكفر.

٦- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة:٢٦-٢٧].

فانظر إلى قوله في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعية ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ ولم يقل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ وقال بعد ذلك الموعظة: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنه تقدم ذكر الكتاب وهو مسموع أو أخبار القرون وهو مما يسمع.

وكيف قال في صدر الآية التي موعظتها مرئية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ وقال بعدها: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأن سوق الماء إلى الأرض الجرز مرئي.

٧- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٢] فانظر كيف ختم آية الليل

بقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأن الليل يصلح فيه السمع وختم آية النهار بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنه صالح للإبصار.

٨- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٦].

انظر كيف جاء بالاستعاذة من الشيطان الذي نعلمه ولا نراه فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وجاء فيمن يرى ويبصر من شياطين الإنس بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فانظر إلى دقة هذا التعبير وجماله.

٩- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف:٦] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٣٩]. فتقدم العلم على الحكمة في سورة (يوسف)، وقدم الحكمة على العلم في سورة الأنعام وذلك لأنه في سورة

يوسف تقدم قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وهذا موطن علم فقدم العلم لذلك، وفي الأنعام موطن تشريع فقدّم الحكم لذلك جاء في البرهان: «وأما تقديم الحكيم على العليم في سورة الأنعام، فلأنه مقام تشريع الأحكام، وأما في أول سورة يوسف قدّم العليم على الحكيم لقوله في آخرها: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:١٠١]».

ومن الطريف أنه حيث اجتمع الاسمان (العليم والحكيم) في سورة الأنعام قدّم الحكيم على العليم، وحيث اجتمعا في سورة يوسف قدّم العليم على الحكيم وذلك لأن مواطن سورة يوسف كلها مواطن علم أولاً فقدّم العليم، ومواطن الأنعام مواطن حكمة فقدّم الحكيم، مما يدل على أن كل كلمة إنما وضعت في مكانها المناسب.

١٠- ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد:٣٢] وقوله: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج:٤٢-٤٤] فقال في آية الرعد: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وقال في آية الحج: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ وذلك أنه ذكر في آية الرعد المستهزئين وذكر في آية الحج المكذبين، والمستهزئون أعظم جرماً من المكذبين، لأنهم يجمعون السخرية إلى التكذيب فكان الوعيد لهم أشد، فجعل كل وعيد بإزاء جرمه الذي يناسبه.

١١- ومنه قوله تعالى على لسان موسى للرجل الصالح عندما خرق السفينة ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف:٧١] وقوله له عند قتل الغلام:

﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف:٧٤] فوصف خرق السفينة بأنه شيء إمراً، ووصف قتل الغلام بأنه شيء نكرا، ذلك لأن خرق السفينة دون قتل الغلام شناعة فإنه إنما خرق السفينة لتبقى لمالكيها، وهذا لا يبلغ مبلغ قتل الغلام بغير سبب ظاهر، والأمر دون النكر، فوضع التعبير في كل موضع بما يناسب الفعل. والنكر أشد من الأمر.

١٢- ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٥] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٢٧] قال في الآية الأولى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وفي الثانية: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ذلك لأن الآية الأولى أعقب بها ما تقدمها متصلاً بها من الآيات في كفار مكة وفعلهم مع رسول الله ﷺ في التضيق والإخراج، فأمر تعالى بقتالهم ووعد بتعذيبهم وخزيهم، والنصر عليهم شفاء صدور من آمن.

أما في الآية الثانية فسببها والله أعلم ما جرى يوم حنين من تولي الناس مدبرين حين ابتلوا بإعجابهم بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً ولم يثبت مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم إلا قليل، إذ لم يبرح ﷺ من مكانه فلم يثبت معه إلا القليل، فختمت هذه الآية بقوله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تأنيساً لمن فر من المسلمين في ذلك اليوم، وبشارة لهم بتوبة الله عليهم، وأن ما وقع منهم من الفرار مغفور لهم رحمة من الله.

١٣- ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام:١٣١] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧] فقد ختم آية الأنعام بقوله: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ وختم آية هود بقوله: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ذلك لأن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار

والتبليغ، فأنت ترى أن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ وتبيان أن الله لم يهلك أقواماً غافلين لم ينذرهم ولم يكلفوا، فإن من لم ينذر فهو غافل.

وأما آية هود فهي في الكلام عن الإصلاح والنهي عن الفساد في الأرض لذا ختمها بالإصلاح.

فناسب ختام كل آية السياق الذي فيه.

لقد تبين مما مر أن القرآن لا يعني بالفاصلة على حساب المعنى ولا على حساب مقتضى الحال والسياق، بل هو يحسب لكل ذلك حسابه فهو يختار الفاصلة مراعىً فيها المعنى والسياق والجرس ومراعىً فيها خواتم الآيات وجو السورة ومراعىً فيها كل الأمور التعبيرية والفنية الأخرى بل مراعىً فيها إلى جانب ذلك كله عموم التعبير القرآني وفواصله بحيث تدرك أنه اختار هذه الفاصلة. في هذه السورة لسبب ما، واختار غيرها أشبهها بها في سورة أخرى لسبب دعا إليه، وجمع بين كل ذلك ونسقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال، حتى كأنك تحس أنها جاءت بصورة طبيعية غير مقصودة، مع أنها في أعلى درجات الفن والصياغة والجمال. فما أجله من كلام وأعظمه من تعبير.

التفسير البياني لسورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩)﴾ [سورة العلق].

١ - التفسير البياني:

قد لخصت الدكتور عائشة بنت الشاطئ منهج التفسير البياني، فذكرت أنّ الأصل في المنهج التناول الموضوعي لما يراد فهمه من كتاب الإسلام، وفي فهم ما حول النص ترتّب الآيات بحسب نزولها لمعرفة ظروف الزمان والمكان ويستأنس بالمرويات في أسباب النزول من حيث هي قرائن لابست نزول الآية، وفي فهم دلالات الألفاظ نلتمس الدلالة اللغوية الأصلية التي تعطينا حسن العربية للمادة في مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية. وفي فهم أسرار التعبير نحتكم إلى سياق النص ونعرض عليه أقوال المفسرين فنقبل منها ما يقبله النص.

وقد حاول عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ) في كتابة (دلائل الإعجاز) أن يصل إلى سر الجمال الفني في القرآن عن طريق ما سمّاه بنظرية النظم، وهو دلالة الكلمة مع أختها في السياق بحيث تؤدي معنى متميزاً، وتقود إلى تركيب بلاغي رفيع، وعن طريق الفصل والوصل والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإضمار والإظهار.

بينما ركّز الزمخشري (٥٣٨هـ) في تفسيره (الكشاف) على النواحي الجماليّة في التعبير القرآني متمثلة في الفنون البلاغية والبيانية، وبذل لها كثيراً من العناية، ووفق في ذلك توفيقاً عظيماً.

ووضع معجمه اللغوي المتميّز (أساس البلاغة) لخدمة هذا الغرض في بيان وجوه الاستعمال الحقيقي والمجازي لألفاظ العربية، ليساعد ذلك كله على استجلاء مواطن الجمال في التعبير القرآني. إلا أنه لم يستوفِ ما ينبغي أن يُقال في هذا المجال، وهذا أمرٌ طبيعي، فالكلام المنزّل لا يدانيه كلام البشر، ولا يفي المألوف من كلامهم ببيانه المعجز وتصويره البارع.

وفي العصر الحديث ظهرت دراسات بيانية قرآنية للقرآن كله أو بعضه دفعت بهذا الاتجاه خطوات للأمام وسارت به شوطاً بعيداً منها «في ظلال القرآن» لسيد قطب، و «من منهل الأدب الخالد» لمحمد مبارك، و«التفسير البياني للقرآني الكريم» لعائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ».

أ- الغرض من التفسير البياني للقرآن:

١- إبراز مواطن الجمال الأسلوبي والإعجاز اللغوي. وإيلاء هذا الجانب الاهتمام الأكبر.

٢- بيان اشتراك الألفاظ بدلالات معينة يساعد في فهم النصوص القرآنية.

٣- إجلاء وجوه الجمال في التعبير والسمو في الأداء والربط بين الأفكار.

ب- مميزات التفسير البياني:

١- تلخيص الفكرة العامة للسورة أو النص القرآني، وبسط ما تضمنه من أفكار وإذا حوت السورة أو النص أكثر من فكرة واحدة لزم ربط الأفكار الفرعية برابطة مناسبة تجمع شملها وتقارب بينها.

٢- عرض الطريقة التي تمّ بها التعبير عن تلك الأفكار والمعاني المرادة، كأن يكون التعبير قائماً على العرض المباشر أو على الوصف أو السرد القصصي أو الترغيب والترهيب وإثارة المشاعر.

٣- التركيز على فهم الألفاظ القرآنية بربط اللفظ الواحدة بدلالتها المختلفة في مواضع ورودها في القرآن. والموازنة بين هذه الدلالات ومقارنتها والوقوف على طرق استخدامها.

٤- إيجاد العلائق المناسبة بين ألفاظ الآية الواحدة، أو النص ذي الفكرة الواحدة، العلائق التي تعين على إدراك تناسق تلك الألفاظ وإيقاعها المناسب وجرْسها، وما يقود إليه ذلك التناسق والإيقاع والجرس من قوة التركيب وفصاحة التعبير.

٥- إدراك الخصائص الفنية العامة للنص، وربطها بالخصائص الفنية للنصوص القرآنية المشابهة. والنظر إلى تلك النصوص نظرة شاملة، تساعد على الربط والمقارنة والتحليل والاستنتاج.

ب- أسباب النزول:

١- زجر أبي جهل ونهيه رسول الله ﷺ عن الصلاة.

٢- وعيد الله لأبي جهل بالعذاب الشديد في مقابل الفعل الشنيع.

من المعلوم أن بعض آيات القرآن وسوره كانت تتنزل ابتداء، ومنها ما كان نزوله مرتبطاً بسبب من الأسباب، ومن الآيات التي ارتبط نزولها بسبب ما ورد في سورة العلق:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي: فجاء أبو جهل فنهاه، فأنزل الله ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق:٩-١٦]».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا التصرف، فانصرف إليه النبي ﷺ فزجره، فقال أبو جهل: والله إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني». فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله تبارك وتعالى.

وعن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم. فقيل: واللات والعزّى لئن رأيته يفعل لأطأنَ على رقبته ولأعفّرن وجهه في التراب، فأنزل الله ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ .

ج- شرح السورة:

سورة العلق بالإجماع سورة مكية وآياتها تسع عشرة آية، الآيات الخمس الأولى نزلت على رسول الله ﷺ وهو بغار حراء (جبل في مكة) وأما الباقي من السورة فقد نزل في أبي جهل، لتعرضه للرسول ﷺ ونهيه عن الصلاة.

﴿ٱقْرَأْ﴾ هذا الفعل اللازم يفيد الاستغراق والشمول، أي كل شيء.

﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أي: خلق المخلوقات ثم خص خلق الإنسان من علق، والعلق: جمع علقة وهي الدم المتخثر اللزج، أي: أن هذا الإنسان مخلوق ضعيف، ومع ضعفه لا يفهم هذه الحقيقة، وهي خلق الإنسان من علقة ضعيفة فسواها بشراً سوياً، ثم يتبع الله عز وجل باستكمال خلقه لهذا المخلوق (الإنسان) وذلك بتعليمه. فللعلم في حياة الإنسان أهمية بالغة قديماً وحديثاً.

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾: أي أن الله سبحانه وتعالى علّم الإنسان الهداية والكتابة والصناعة في بداية خلق البشرية، وفي الوقت الذي لم يكن لدى الإنسان أي علم. وورد في سورة البقرة ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١] ومخاطبة الرسول ﷺ في سورة النساء ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ [النساء:١١٣] وهذا التعليم ينفرد به الإنسان دون مخلوقات الله عز وجل، ومع هذا فالإنسان لا يشكر الله على نعمائه بل شعوره بالقوة والغنى والسلطان يشعره بعدم حاجته لمن منحه هذا الخلق الذي يمتاز به عن بقية المخلوقات.

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ والمقصود هنا أبو جهل ويذكره الله بأن الرجوع إليه وحده، فالغنى نعمة من الله أنكرها العبد وطغى ونسي بأن هناك موتاً ورجوعاً ومآلاً إلى الله وحده سبحانه.

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ يبدو التعجب واضحاً وجلياً من موقف هذا المخلوق الذي ينهى الرسول ﷺ عن عبادة الله وهو غير مهتدٍ والمقصود في هذه الآيات أبي جهل.

﴿ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴾ ما هو شعورك عندما ترى شخصاً لم يهده الله ينهى شخصاً آخر مهدياً أو على طريق الهدى.

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ وهذا التعجب إذ إن هذا الناهي (أبو جهل) كاذب والفعل هو نهي المؤمن عن عبادته يعلمه الله ولا يخفى عليه فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ويتعجب الله مرة أخرى من فعل هذا الطاغية، مع أنه يعلم من هو محمد ﷺ وهو المهتدي، المؤمن، وهو على حق، وأنت على باطل، ألا إنك تهدد الرسول ﷺ وتتوعده، ومقابل هذا التهديد هناك تهديد من الله أسمى وأعظم.

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ أي لتجرّن ناصيته إلى النار وهذا دليل قاطع على تعذيب هذا الكافر، إذ إنه بالإضافة إلى كفره فإنه يهدد الرسول ﷺ ويتوعده. ولكنه سيجر من ناصيته الكاذبة الخاطئة ومع أن الآيات أنذرته بالعاقبة الوخيمة إلا أنه لم ينته، إذ رأى رسول الله ﷺ يوماً وهو يصلي في المسجد الحرام، وأراد أن يطأ على رأسه الشريف، ولكنه عاد مذعوراً، فقيل له: ما بالك؟ فال: إن بيني وبينه خندقاً من نارٍ وهولاً، وقد قال الرسول ﷺ في ذلك: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ وهناك تحدٍّ صريح من أبي جهل يقابله ردع وذلك عندما أراد أن يدعو أهله وأنصاره لنصرته، أما الزبانية فهم الملائكة، ملائكة العذاب الغلاظ الشداد.

إن هناك تناسقاً كاملاً بين أجزاء السورة تسلسلاً وترتيباً للحقائق.

ما تشتمل عليه السورة:

١ - التوجه إلى ذكر الله عند القراءة.

٢- بيان أو صفة من صفات الله تعالى وهي خلق الكون (الخالق) ثم خلق الإنسان.

٣- تعليم الله الإنسان العلم بالقلم، وجاء التعليم ليكتمل الشق الثاني للإنسان، فالله خلقه ثم أكمل خلقه بتعليمه.

٤- ومقابل هذا على الإنسان أن يشكر الله على صنيعه.

٥- الإنسان يستغني وينسى نشأته.

٦- الرجوع إلى الله والمآل إليه.

٧- التهديد الصريح بالعقاب لمن يضل السبيل.

التحليل اللفظي والمعنوي للسورة:

السورة تعالج ثلاثة موضوعات رئيسية:

١- بدء نزول الوحي على رسول الله ﷺ .

٢- طغيان الإنسان بالمال والغنى.

٣- نهي أبي جهل رسول الله ﷺ عن الصلاة، ووعيد الله إياه بالعذاب الشديد مقابل هذا الفعل الشنيع.

١- بيان أول ما مَنّ الله على عباده من نعمة متتابعة (نعمة الخلق ثم نعمة القراءة والكتابة) وهذا ينسجم وأوليات الدعوة الإسلامية. لأن من مقتضيات هذه الدعوة القراءة والتبليغ، ومن مقتضيات حفظ التنزيل كتابته وتدوينه ليبقى بين دفتي مصحف يعاد إليه في كل حين. وقد قرنت نعمة القراءة بنعمة الخلق. فكأن ذلك إيماء إلى أن أكبر ما مَنّ الله به على البشر بعد خلقهم، وما ميّزهم عن سائر المخلوقات هو نعمة القراءة والكتابة (التعليم) إن هناك تناسقاً كاملاً بين أجزاء السورة، وتسلسلاً في ترتيب الحقائق التي تضمنتها السورة يجعلها كلها متماسكة ومن هذه الحقائق المتسلسلة أول ما توجه السورة الكريمة، وأول خطوة في طريق الدعوة التي اختير لها الرسول الكريم ﷺ أن يقرأ باسم (التسمية) ثم تبدأ بصفة من صفات الخالق (الذي خلق)، ثم إبراز حقيقة التعلم (بالقلم)، ويعني بذلك الكتابة وضرورة التدوين، بهذا المقطع الأول، وضعت قاعدة التصور الإيماني العريضة،

فكل أمر وكل حركة وكل خطوة تبدأ باسم الله وإليه تصير. ثم يأتي شكر الله على نعمة الخلق والتعليم من كل إنسان مؤمن طائع لله سبحانه وتعالى.

٢- لقد كان يؤمّل أن يحسّ الإنسان بتلك النقلة البعيدة، ويدرك فضل الله عليه فيما تقدّم من نعمة الخلق، والعلم والتعليم، لكن برزت صورة الإنسان الطاغي الذي جاوز الحد في العصيان، فنسي منشأه وأبطره الغنى والمال والثروة والعشيرة.

برزت بعدها مباشرة صورة التهديد المباشر والوعيد الذي ينتظر الطاغي المستكبر المستغني أن الذي أعطاه فأغناه هو الله، كما أنه هو الذي خلقه وكرّمه بالعلم، ولكن الإنسان لا يشكر حين يطغى فيستغني، ولا يعرف مصدر النعمة التي أغنته، وهو المصدر الذي أعطاه خلقه وأعطاه علمه ثم أعطاه رزقه، ثم هو يطغى ويفجر من حيث ينبغي أن يعرف ثم يشكر.

وتتفرد الآيات بذكر صورة من صور هذا الطغيان: صورة أبي جهل يحول بين النبي ﷺ وبين الصلاة، وصورة مكذب متولٍّ ناهٍ عن الصلاة، يهدد عبداً مصلياً مهدياً أمر بالتقوى دون أن يعبأ بما ينتظره جرّاء ذلك.

إنه بالقدر الذي يحمله هذا الأسلوب من التشنيع على هذا الناهي وتقبيح فعاله، فإنه ينطوي على لمسات صاعقة في التنديد بهذا الصنيع. ستنهي بصاحبها إلى نهاية بائسة تسلمه إلى مصيره المحتوم. وترتفع حرارة هذه اللمسات، حين تصل ذروتها في سفعه بناصيته، أي: أخذه بشدة من مقدّم رأسه وجرّه بها ولطم وجه.. هذا اللفظ الشديد بجرسه، يحمل معنى الذل لذلك المتكبر الشامخ برأسه، يضاف إليه نعته بالكاذب الخاطئ القاصد للذنب المتعمد.

٣- ترسم السورة صورة التحدّي غير المتكافئ والنتيجة فيها واضحة جلية تدور فيها الدائرة على هذا الطاغية. وتبرز هنا قاعدة إيمانية أخرى قاعدة الرجعة إلى

الله، الرجعة إليه في كل شيء وكل أمر، فليس هناك مرجع سواه، إليه يرجع الصالح والطالح، والطائع والعاصي. والمحق والمبطل، وهكذا تجمع أطراف التصور الإيماني، الخلق، والنشأة، والتكريم، والتعليم ثم الرجعة والمآب إلى الله وحده لا شريك له.

تختتم السورة بتوجيه المؤمن الطائع إلى الله والثبات على إيمانه. كلا، لا تطع هذا الطاغي الذي ينهى عن الصلاة والدعوة، واسجد لله واقترب منه بالطاعة والعبادة والثبات عليهما، ولتمضي أنت يا محمد في عبادتك آمناً مطمئناً، غير مبالٍ به ولا مطيع له لتصل في عبادتك إلى منتهاها في الخضوع لمستحق الخضوع، والسجود إليه وحده. وفي ذلك توجيه للمؤمن الطائع على ضرورة الإصرار على الإيمان والطاعة والثبات عليهما. وهكذا تتكامل مقاطع السورة وتتناسق إيقاعاتها.

هـ- التحليل البياني للسورة:

١- الفاصلة القرآنية، لقد تحولت الفاصلة القرآنية (وهي التي تقابل القافية في الشعر، والسجع في النثر، وهي الحرف الأخير من الآية) في هذه السورة ثلاث مرات.

أ- اتخذت مسار الحرف الساكن المتحوّل (حرف القاف ثم حرف الميم) وبما فيه من قلقلة للحرف الأول وما في الثاني من تفخيم.

ب- اتخذت الفاصلة الألف المقصورة متنقلة بين ألفاظ مختلفة لتبعد بالآيات القرآنية عن الأسجاع النثرية المتماثلة، المألوفة في كلام البشر.

ج- اتخذت الفاصلة الهاء الساكنة وهي، مثل أصدق تمثيل للصواعق التي توالت على رأس هذا الطاغية فقادته إلى نهايته المحتومة.

٢- الإيقاع بين هذه الفواصل وأثره على السامع، وتأثيره في وجدانه وعقله تأثيراً قوياً وعميقاً:

أ- ابتدأت الفواصل مقيدة تفيد معنى الجزم والقطع في مطلع السورة.

ب- جاءت الألف اللينة المقصورة لتعطي شيئاً من الراحة والاسترخاء الذي يساعد في استيعاب الوصف المؤدي بالإنسان إلى الطغيان وإلى النهي عن الصلاة.

ج- جاءت الهاء الساكنة للتنفيس عن شدة ما حملته الآيات من معاني التهديد والوعيد، وهي فاصلة تساعد في إخراج هذه الزفرات وتلقيها كالصواعق المرسلة لا رحمة فيها ولا هوادة.

٣- جاءت الفاصلة لتعزيز المعنى وتأنيق الأسلوب معاً. انظر إلى قوله: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ فجاء بـ ﴿ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ متسقة مع ما تلاها من الفواصل، ومفيدة أنه الأكرم الذي علّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم فدلّ على كمال كرمه بأنه علّم عباده ما لم يعلموه ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

٤- قصر الآيات: وهذا من الأساليب البلاغية في التعبير، لتكون أشد وقعاً في النفوس وأعظم تأثيراً في القلوب، وهي صفة تنسحب على الآيات المكيّة عموماً، وقصر الآيات أكثر مناسبة لمضامين السور المكيّة التي تدور حول العقيدة والإيمان والثواب والجزاء وصفة الجنة والنار، لا تخرج الآيات في هذه السورة عن هذه الصفة.

٥- الإيجاز والحذف وهي أيضاً من الأساليب البلاغية: إذ تحذف في العبارة ما يمكن أن يدل عليه السياق صراحة، ويتمثل الإيجاز بالحذف في الآيتين الكريمتين.

أ- ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ : أي إن إلى ربك الرجوع فالحساب والعقاب.

ب- ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ وتقدير الحذف حذف معمول (يرى) من أجل الفاصلة: بأن الله يراه وكذلك الحذف الآخر في الآية عينها تقديره: بأن الله يراه فيحصي أعماله فيحاسبه عليها.

والإيجاز في كلا الموضعين يفيد رصانة العبارة وتركيزها، والدلالة بكلمات قليلة على معانٍ كثيرة.

٦- ظاهرة التكرار: ويفيد تكرار بعض الألفاظ التنبيه والتوكيد.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ .

قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ .

قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾.

وقد عاد بعض المفسرين بالخطاب في الآية الثانية إلى أبي جهل، وعاد بها بعضهم جميعاً إلى خطاب الرسول الكريم ﷺ .

وتكررت لفظة كلا ثلاثاً:

١- ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ بمعنى حقاً، إذ ليس قبله شيء.

٢- ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ مرتبطة بنفي ما قبلها من النهي عن الصلاة وما يتبع ذلك.

٣- ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ مرتبطة بنفي ما سبقها من أن الأمر ليس كما يظن أبو جهل.

٧- ومن ضروب التعبير البلاغي: ما وُصفت به ناصية أبي جهل بأنها كذابة في قولها خاطئة في فعلها ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ ووصف الناصية بالكاذبة الخاطئة ويراد به وصف صاحبها بذلك. إذ إن صاحبها كاذب خاطئ.

التشبيه في القرآن

بعض الحقائق نستخلصها من دراسة التشبيه:

١- خضوعه للبيئة.

٢- مجيئه بعد تمام الكلام.

٣- عدم التزام الدقة في كثير منه.

٤- اختلاف كثير من التشبيهات من حيث اختيار اللفظ.

٥- اختلافه من حيث الصورة جمالاً وروعة.

خصائص التشبيه في القرآن:

١- تشبيهاته غير مقيدة ببيئة معينة، فلم تحصر في عصر دون عصر أو مكان دون مكان، إنما هي تشبيهات عامة تستمد من الطبيعة عناصرها، وتأخذ من الكون أجزاءها، فليست لفئة خاصة ولا لقوم بأعينهم، فمشهد الماء أو الزرع أو الظلمات أو البحر، أو الرماد، أو الجبال، كلها لا تختص بزمان أو مكان مع أنها لا غنى عنها في حياة الإنسان.

٢- تشبيهاته جاءت متسقة مع الغرض الذي سيقت من أجله، فقد نجد الشيء الواحد شُبِّه به أكثر من مرة، وذلك لأن هذا الشيء لوحظت فيه صفات متعددة فروعي كل جانب ليتناسب ويتطابق مع المشبّه الذي قصد القرآن الحديث عنه.

٣- الدقة في اختيار الألفاظ، وهذه حقيقة ليست خاصة بالتشبيه، إنما هي شأن القرآن في أساليبه جميعاً، وفي كل موضوعاته التي تحدث عنها، فألفاظ القرآن جميعها مختارة ومنتقاة.

٤- تشبيهات القرآن بعيدة عن عُرف الخيال، ورعونة العاطفة وسفِّ القول وفضوله، فهي عناصر أساسية في الموضوع وأجزاء رئيسة في الجملة.

٥- القرآن كتاب هداية للأحياء ما دامت الحياة، فإن تشبيهاته جميعها تدور حول هذا الإنسان.

ومن الأمثلة على ذلك:

أ- **القمر**: الذي تغزّل فيه الشعراء، والذي امتن به الله علينا فجعله نوراً، يشبهه القرآن الكريم وقد اضمحل نوره بالعرجون القديم.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس:٣٩] وفي هذه الكلمة من الدلالة على الضآلة والضعف ما فيها، فهذا القمر بهجة السماء يبدد ظلمة الليل، ويحيل وشحته أنساً، يصبح دقيقاً، نحيلاً لا تكاد العين تنتبه إليه، وترى كلمة العرجون بوصفها القديم ما يصور لك هيئة الهلال في آخر الشهر ويحمل في نفسك ضآلة أمره معاً.

ب- **السفن**: قال تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ [الرحمن:٢٤]. شبهت السفن في البحر بضخامتها وعظمها بالأعلام واختير لفظ الأعلام دون الجبال، لأنه يبعث في النفس الأنس، وهو ما يحتاج إليه السائر في البحر.

ج- **الجبال**: قال تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ [هود:٤٢] لأن ذكر الجبل ألصق بالسياق الذي جاءت من أجله فهي تتحدث عن الطوفان يوم أن فجرت الأرض عيوناً، وفتحت السماء بماء منهمر.

د- **الموج**: قال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [لقمان:٣٢] اختيرت كلمة الظلل هنا، لأن الحديث عن أولئك الذين يتعرفون على

الله في الشدة دون الرخاء، وكلمة الظلل توحي بالرهبة كأن هذا الموج ارتفع إلى رؤوسهم، مما يجعل هلاكهم غير مرتاب به على أن الجبل قد شُبِّه بالظلة في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف:١٧١] ذلك لأن الآية هنا جاءت في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وكيف رفع الجبل فوق رؤوسهم ليصير ظلَّة لهم يقيهم حرارة الشمس.

هـ- **أكل الربا**: آكل الربا يستبيح جهد الناس وعرقهم، فيحرمهم لذة الاستقرار النفسي وربما ينتج عن ذلك كثير من الآلام والأمراض النفسية والجسدية، فما هو التشبيه الذي اختير له في كتاب الله. قال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ﴾ [البقرة:٢٧٥] هذا الذي يتخبطه الشيطان من المس بعيد عن كل استقرار نفسي وراحة في الجسم وسلامة في العقل، وهل الجزاء إلا من جنس العمل؟ .

و- **المؤمن**: انظر إلى المؤمن الذي ملأ نور الإيمان قلبه، حتى إن الله تبارك وتعالى مثّل هذا النور بقوله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٣٥].

العناصر التي اختيرت لهذا التشبيه (نور الله في قلب المؤمن):

١- المشكاة حتى لا يتوزع هذا النور ويتفرق.

٢- المصباح.

٣- الزجاجة.

٤- الزيت الذي يوقد هذا المصباح.

٥- الزيتونة لا هي بالشرقية التي تحرم ضوء الشمس حين غروبها ولا هي بالغربية التي تحرم ضوء الشمس حين إشراقها، إنما ترتشف من الشمس في كل وقت.

أسلوب التشبيه في القرآن الكريم:

١- **الترغيب والترهيب:** القرآن يستعمل أسلوب التشبيه للترغيب والترهيب ليقرر الأمر المرغّب فيه كي تقبل النفس عليه ويبين المرهَّب منه كي تنفر النفس منه استمع إليه وهو يرغب المؤمنين كي تلتئم صفوفهم في الجهاد. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف:٤] ولم يكتفِ بذكر البنيان وإنما هو البنيان المرصوص الذي أحكمت لبناته، والمشبه به البنيان.

وهاهو القرآن يحذّر من نقص العهد ويبين ما له من نتائج ضارة وآثار سلبية فيقول سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ [النحل:٩٢].

٢- **الإنسان في القرآن:**

أ- شبه الله المؤمنين الذين كانوا مع الرسول ﷺ في مكة ضعفاء، بزرع أخرج شطأه وهي تلك الشعب التي تتشعب من ساق النبات فتحميه من الآفات، فسيغلظ هذا الزرع فيستوي على ساقه، فهو يعجب الزراع في قوته ونموه، وكذلك أصحاب النبي ﷺ فقد قوي بعضهم ببعض حتى أصبح هذا الدين قوياً ليغيظ الكفار، وهذا التشبيه فيه التصوير والتجسيد المحسوس مما ليس غريباً على النفس، لذلك كان له ذلك التأثير البديع، وهو تشبيه تمثيل، لأن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ [الفتح:٢٩].

ب- المنافقون: رسم القرآن لهم صوراً متعددة طبقاً لأحوالهم فكانوا يظهرون الإيمان دفعاً للأذى وهذه الحالة لا تدوم، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧] فهو تشبيه لحال المنافقين قد ادعوا الإسلام وتظاهروا بالإيمان، فظنوا أن هذا الخداع لن تكون له نهاية، فمثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فبددت الظلمات وأضاءت ما حوله، بينما هو كذلك في فرحة وسرور وبهجة، وإذ بهذه النار تخمد فلا يبقى منها شيء.

وحالة ثانية للمنافقين حينما كانوا يشعرون بالحرج والضيق عند نزول الآيات التي تفضح أمرهم فادعاؤهم بالإيمان لا يجديهم، قال تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:١٩].

يشبه القرآن حالهم في هذا الضيق بقوم يسيرون والمطر الشديد ينزل من السماء وقد أظلم الجو، ومع هذا المطر رعد قاصف، وبرق شديد اللمعان، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا صوت الرعد، وهذا البرق يكاد يخطف أبصارهم، ولكن مع شدته يضيء لهم إذا مشوا فيه، وإذا ذهب وقفوا في أمكنتهم، فهم في شدة على كل حال، وكذلك كان المنافقون، فهم مع ادعائهم الإسلام كانوا يخشون دائماً أن تنزل آية تنبئ عن أحوالهم وتفضحهم، فهم مضطربون دائماً لا يستقر لهم قرار.

والحالة الثالثة: فقد شبههم القرآن بالخشب المسندة، فشأن الخشب أن يستفاد منه في البناء والسفن، إما عندما يكون مسنداً فستنخره السوس دون الاستفادة منه، فهم وإن أعجبك مظهرهم، لكن مخبرهم وحقيقتهم ليست شيئاً، وفي هذا نقرأ قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ ﴾ [المنافقون:٤].

أما الحالة الرابعة: فقد شبههم القرآن بحالة الذي يغشى عليهم من الموت، قال تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ ﴾ [الأحزاب:١٩].

ج- الكافرون: فنجد في القرآن تشبيهات كثيرة متعددة وموضوعاتها مختلفة وهنا اختلفت صورة التشبيه باختلاف الأغراض.

١- الإعراض عن الحق والتولي والابتعاد، نجد هذه الصورة في قول الله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر:٤٩-٥١].

الصورة لهؤلاء وهم يفرون من الراعي، ويعرضون عن الحق، ولكن هذا الإعراض لا يزيدهم إلا خوفاً فما أشبههم بهذه الحمر الوحشية النافرة من أسدٍ خشية أن يفترسها.

٢- يشبه الكافرون وهم يُدعَون إلى الحق وقد أحاطت بهم الغفلة، فهم لا يسمعون من الداعي إلا حروفاً وأصواتاً لا يفقهون منها شيئاً فما أشبههم بالأنعام التي تسمع صوت داعيها وراعيها، ولكنها لا تميز ما يضر مما ينفع، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ ﴾ [البقرة:١٧١]

المشبه، الداعي إلى الإيمان وهو يدعو أولئك الغافلين، المشبه به: الراعي: الذي يصيح بهذه الأنعام التي لا تسمع إلا دعاءً ونداءً، ووجه الشبه صورة من لا يميز بينها يضره وما ينفعه.

٣- قد يكون المشبه أعمال الكافرين لا ذواتهم وأحوالهم، فقد يعمد التشبيه ليقرر أن هذه الأعمال سوف تتلاشى مع كثرتها بحيث لا يبقى لها أثر مهما أريد لها أن تضخَّم وتشبيهات القرآن قد يُفصِّل بعضها ما يجمله الآخر. قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم:١٨] فالقرآن لم يشبهها بالرماد فحسب، ولكنه رماد أصابته ريح شديدة في يوم عاصف، فماذا عساها تبقي منه.

٤- وقد يكون التشبيه لفئة خاصة من الكافرين مثل تشبيه اليهود، أولئك الذين أكرمهم الله بالتوراة وأورثهم الكتاب ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم وأعرضوا عن هدايته، فحرفوا كلماته، وبدلوا أحكامه قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۚ ﴾ [الجمعة:٥]. فالمشبه به هو الحمار، ولكن ليس مطلقاً ولكنه الحمار الذي يحمل العلم المفيد ولكن ليس في حملها له إلا إجهاداً ومشقة وتعب. وكما أن المشبّه والمشبّه به مركبان فوجه الشبه كذلك وهو صورة من يتعب نفسه ويجهدها بكل نفيس دون أن يحصل من ذلك على فائدة.

٥- يشبه الكافرون وهم يعتمدون على معبوداتهم المتعددة فلا تغني عنهم شيئاً. قال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ [الرعد:١٤] المشبه به هو الباسط كفيه إلى الماء يظن أن ذلك يغني عنه شيئاً ويبلغ فاه وأنى له

ذلك، في هذا التشبيه صورة تامة لأولئك الذين يدعون من دون الله، أن ذلك سيصل بهم إلى هدفهم المنشود وغايتهم المقصودة وما هم ببالغين ذلك.

٦- وفي تشبيه آخر: قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤١] وإذا كان بيت العنكبوت لا يغني عنه شيئاً، فلا يقيه شراً، بل يؤويه لوهنه وضعفه، وإذا كانت خيوط العنكبوت من أقوى الخيوط، وبيته من أوهن البيوت فإن ذلك يطالعنا على دقة التشبيه، لأن أولئك الذين اتخذوا من دون الله أولياء. وقد منحهم الله العقل الذي يستنيرون به، هم الذين يهلكون أنفسهم فلا يغني عنهم أولياؤهم شيئاً.

٧- يشبه الكافرون المعرضون عن الآيات وقد فقدوا الطمأنينة، وتملكتهم مشاعر الضيق والحرج بمن يصعد في السماء. قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٥]. شُبِّه بمن يزاول ما لا يقدر عليه فإن صعود السماء مثل من هو خارج عن دائرة الاستطاعة.

٨- يشبه الذين أحاطت بهم سيئاتهم فغشيتهم الذلة، وغطى سواد الأعمال وجوههم. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ ﴾ [يونس:٢٧] انظر إلى هذا التصوير البديع المروع المرهب، كيف انتزعت فيه قطع من الليل المظلم فجعلت غطاءً لهذه الوجوه.

٩- قد يكون التشبيه في القرآن لأولئك الذين حلت بهم العقوبة بعد تكذيبهم لأنبيائهم، ومن ذلك ما شبّه به المكذبون من قوم هود ﷺ، وقد سلّط عليهم ريح صرصر عاتية، قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧] انظر إلى هذا التطابق فقد أهلكوا بالريح، ولما كان من شأن الريح القوية أن تقتلع الأشجار، ومن أضخمها النخيل شبهوا بأعجازها.

١٠- وقد يكون التشبيه من حيث القلق النفسي، وسوء العاقبة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]. يشبه القرآن المشرك الذي حرم طمأنينة الإيمان، فهو نهبٌ للوساوس يلازمه ليلاً نهاراً. فلا يستقر له حال يشبهه بمن خرّ من السماء في مكان ساحق مرتفع، فهو سقوط فيه رعب، فهو إما أن تأكله الطير أو يموت بمكان سحيق فهو بين حالين أحلاهما مرّ.

٣- تشبيهات عامة:

١- **الدنيا**: نجد القرآن يعقد للدنيا تشبيهات بما يحيط بهذا الإنسان مما لا يجهله أحد، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف:٤٥] فقد شبهت الدنيا في سرعة زوالها بهذا النبات، الذي ينزل عليه الماء من السماء ولكنه بعد خضرته يصبح هشيماً حتى إن الرياح لتذروه فلا تبقي له أثراً.

٢- **الآخرة**: أول ما يلفت الانتباه أن القرآن وهو بيّن للناس أمر البعث، وحقيقة الآخرة، لم تكن أدلته من ذلك النوع التجريدي، البعيدة عن مواطن التأثير،

فجعل من أسلوب التشبيه، ومن أبرز عنصرين فيه وهما الحس، والنفس، البرهان الساطع على إثبات هذه القضايا الخطيرة الشأن، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل:٧٧] وقضية البعث في الحقيقة أخطر قضية لأن كل ما بعدها ينبني عليها فها هو القرآن سلك أيسر المسالك، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩] ومن الذي يستطيع أن ينكر وجوده وأن له بداية؟ العود كالبدء، وذلك تشبيه بسيط سهل لا ينازع فيه صاحب فطرة سليمة فهو يبعثكم كما خلقكم.

وبعد قضية البعث نجد تصويراً لمشاهد كثيرة بأسلوب التشبيه يذكر منها باختصار:

١- تشبيه الناس بالفراش المبثوث، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣].

٢- تشبيه الجبال بالعهن المنفوش.

٣- السماء الصافية سيكون لها شأن آخر يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ [المعارج:٨].

٤- أما الجنة فتجد أسلوب التشبيه يضع الصورة أمامك، ليأنس بها القلب.

٥- أما الحور العين يُشبَّهن بالياقوت والمرجان، وتارة باللؤلؤ وتارة بالبيض المكنون.

٦- أما النار فإنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر.

٧- أما شجرة الزقوم فهي طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم.

مميزات التشبيه في القرآن الكريم:

١- يعمد القرآن إلى أسلوب التشبيه في القضايا الخطيرة ذات الشأن فهو لا يأتي بهذا الأسلوب إلا حينما يكون هناك أمر يراد تقريره وتثبيته في النفوس، وهذا ما يجعله يختلف عن كثير من التشبيهات عند الناس.

٢- أن تشبيهات القرآن كلها لا تخلو عن كونها تشبيه محسوس بمحسوس أو معقول بمحسوس إلا في تشبيهين اثنين:

أ- قال تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات:٦٥] فإن المشبه به ما لا يدرك بالحواس ويثير الاشمئزاز من هذه الصورة.

ب- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [القصص:٣١] إذا فسرنا الجان بذلك المخلوق من النار، ووجه الشبه الخفة والحركة وهو ما نختاره، ولكن أكثر المفسرين على أن الجان هي الحية الصغيرة فيكون من قبيل التشبيه المحسوس بالمحسوس.

٣- أن تشبيهات القرآن منها ما هو مفرد ومنها ما هو مركب وهو تشبيه تمثيل.

المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي / تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ط٣، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

٢- الإحكام في أصول الأحكام، سيف الدين أبو الحسن علي بن محمد الآمدي، ط١، مصر: مطبعة المعارف، ١٩١٤.

٣- الإعجاز العددي للقرآن الكريم، عبدالرزاق نوفل، ط٣، لا سنة.

٤- الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، أحمد المرسي حسني جوهر، ط١، مصر، مكتبة جزيرة الورد، ٢٠٠٠.

٥- الإعجاز العلمي في القرآن، السيد الجميلي، ط١، بيروت: دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٦.

٦- الإعجاز العلمي في القرآن، رائف نجم، ط١، الأردن، لا مطبعة، ١٩٦٩.

٧- الإعجاز العلمي للقرآن، أحمد عبدالسلام الكرواني، ط١، مصر: ١٩٧٥.

٨- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، ط١، مصر: دار المعارف، ١٩٦٢.

٩- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ط١، مصر: ١٩٢٦.

١٠- الإعجاز القرآني، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ط١، العراق، ١٩٩٠.

١١- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ، ط١، مصر: دارا لمعارف، ١٩٧١.

١٢- أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق هـ. رتير، ط١، بيروت، دار المسيرة، لا سنة.

١٣- الأمالي، لأبي علي القالي، ط٢، لا بلد، دار الحديث للطباعة، ١٩٨٤.

١٤- بديع القرآن، ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق حنفي شرف، ط، مصر: مكتبة النهضة، لا سنة.

١٥- الإيضاح، للقزويني، تحقيق لجنة من أساتذة الكلية اللغة العربية بالجامع الأزهر، مطبعة السنة المحمدية.

١٦- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، لا بلد، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩.
١٧- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، الزملكاني، تحقيق خديجة الحديثي، ط١، بغداد: مطبعة العاني: ١٩٧٤.
١٨- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ط٢، القاهرة: مكتبة الخانجي، لا سنة.
١٩- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى محسن الزبيدي / تحقيق حجازي والصهادي، ط١، مصر: المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ.
٢٠- التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم / تحقيق عصام فارس، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤.
٢١- تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق حنفي محمد شرف، ط١، مصر: لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٨٣هـ.
٢٢- تسهيل السبيل في فهم معاني التنزيل، محمد تاج الدين أبي الحسن البكري، مخطوطة، بغداد: مكتبة الأوقاف، رقم ٢٣٢٠.
٢٣- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب.
٢٤- التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، ط١، دار الشروق، ١٩٧٣.
٢٥- التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، ط٤، دار عمار، ٢٠٠٦.
٢٦- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، ط١، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨.
٢٧- خزانة الأدب، عبدالقادر بن عمر البغدادي / تحقيق عبدالسلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي.
٢٨- دلائل الإعجاز، عبدالقاهر، الجرجاني، ط٢، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٨.
٢٩- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم، شهاب الدين السيد محمد والألوسي، دار إحياء التراث العربي.
٣٠- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي / تحقيق علي فودة، ط١، مكتبة الخانجي، ١٩٣٢.
٣١- الصناعتين، أبو هلال العسكري، ط١، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧١هـ.
٣٢- علم المعاني، عبدالعزيز عتيق، ط١، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة النشر.
٣٣- علم المعاني (البلاغة فنونها وأفنانها)، فضل حسن عباس، ط٩، عمان، دار الفرقان، ٢٠٠٤.
٣٤- في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، ط١٥، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٨.
٣٥- في سيرة الإعجاز العلمي في القرآن، محمود بن عبدالرؤوف القاسم، ط١، عمان، دار الإعلام، ٢٠٠٠.

٣٦- في الإعجاز القرآني جماليات المضمون والشكل، مصطفى الصاوي الجويني، ط مصر، دار المعارف، ١٩٨٣.
٣٧- فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبدالروؤف المناوي، ط١، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٨.
٣٨- الكشاف عن حقائق وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري، ط١، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٨
٣٩- مفتاح العلوم، أبو يعقوب بن بكر السكاكي، بيروت، دار الكتب العلمَي.
٤٠- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني / تحقيق محمد سيد الكيلاني، مصطفى مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦١.
٤١- معاني الأبنية في العربية، فاضل صالح السامرئي، ط١، بيروت: الشركة المتحدة للتوزيع، ١٩٨١.
٤٢- من بلاغة القرآن: أحمد أحمد بدوي، مطبعة لجنة البيان العربي.
٤٣- علم البيان، عبدالعزيز عتيق، بيروت، دار النهضة للطباعة والنشر: لا تاريخ.
٤٤- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، القيرواني / تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٢.
٤٥- اللغة العربية منهجية وظيفية، فهد خليل زايد، ط١، عمان، دار النفائس، ٢٠٠٥.
٤٦- من أسرار العربية، إبراهيم أنيس، ط٥، القاهرة: مكتبة الإنجلو مصرية، ١٩٧٥.
٤٧- الموجه الفني لمدرس اللغة العربية، عبدالعليم إبراهيم، ط٦، مصر: دار المعارف، ١٩٦٩.
٤٨- موجز علوم العربية، محمد قاسم ورفيقه، ط١، لبنان، جروس برس، ١٩٩٤.
٤٩- نحو بلاغة جديدة، محمد عبدالمنعم خفاجي ورفيقه، مكتبة غريب، لا تاريخ.
٥٠- الجمان في تشبيهات القرآن، لأبي قاسم البغدادي، تحقيق عدنان زرزور، ط١، الكويت: المطبعة العصرية، ١٩٦٨.
٥١- Science, Technology and Development in the Muslim world. By Ziauddin Sardar, published by G. Room Helm Huriaties press, London.



فهرس

الفصل الثالث
التوكيد في القرآن الكريم

الفصل الرابع
التشابه والاختلاف

الفصل الخامس
التعريف والتنكير

الفصل السادس
الفصل والوصل

الفصل السابع
الإيجاز والإطناب

الفصل الثامن
البنية في التعبير القرآني

الفصل التاسع
الجملة الإنشائية

الفصل العاشر
الفواصل في الآيات